بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي: خالد
مع خالص الشكر والتقدير
للاستشارة
آمل القبول
أخوكم
خالد

رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر

تأليف

محمد قطب

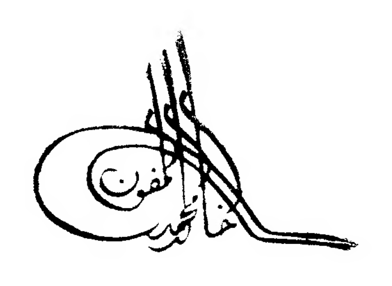
دار الوطن للنشر

الرياض - شارع العليا العام - ص.ب: ٣٣١٠

☎ ٤٦٤٤٦٥٩ - ٤٦٢٦١٢٤

الطبعـة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م



بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ

[سورة آل عمران ١٣٨ ـ ١٣٩]



مقدمة

كيف يرى المسلم أحوال العالم المعاصر؟

هل له رُؤْية خاصـة به؟ أم إنـه يتناول الأمور كما تُقدَّم له من خلال وسائل الإعلام العالمية؟

وما موقفه منها؟ أهو موقف **المشارك**، أم موقف **المتفرج**؟

وإذا شارك فمن أيّ منطلق؟ وإذا تفرّج فبعين من يتفرج؟

تلك أسئلة ينبغي أن نسـألها أنفسنا، وأن تكون لدينا إجابة واضحة عنها. فالعالم اليوم مُتشابكٌ، **نعم**، ويُعبَّر عنه أحيانًا بأنه أصبح كالقرية الصغيرة بفعل وسائل الاتصال الحديثة، ولكن النّاس ـ حتّى في القرية الصغيرة ـ **ليسوا مشربًا واحدًا، ولا موقفًا واحدًا**، ولا لهم رؤية واحدة تجاه جميع الأمور:

﴿ولو شاءَ ربُّك لجعلَ النّاسَ أمّةً واحدةً، ولا يزالُونَ مُختلفين. إلاَّ مَن رحمَ ربُّـك ولذِلك خَلَقَهُم﴾. (سورة هود، الآيتان ١١٨، ١١٩). والكتل المتصارعة ـ في العالم الواسع أو في القرية الصغيرة ـ لكلّ منها موقفها الخاصّ، ورؤيتها الخاصّة لما يجري في الأرض من أحداث.[١].

والمسلمـون ـ كما وصفهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «**أمة من دون النّاس**»[٢].

فهل هم اليوم كذلك حقًّا؟

هل لهم رُؤْيتهم الخاصّة وموقفهم الخاص ـ على الأقل كما لكلّ أمّة من الأمم الأخـرى رُؤْيتها وموقفها ـ أم إنهم أشياعٌ متفرّقون، وأتباع إما لهذه القوة أو تلك، ينظرون بالمنظار الذي يقدّمه لهم سادتهم، ويرون الأمور من خلاله ـ **أي كما يُراد لهم**

---

(١) أكتب هذا وقد انهار المعسكر الشيوعي، وحدث تقارب ملحوظ بين روسيا وأمريكا، ولكن هذا لا ينفي وجود الكتل العالمية المتصارعة.

(٢) من وثيقة الموادعة بين المسلمين واليهود في أول العهد بالمدينة. رواه ابن اسحاق.

أن يَرَوْها ـ ويشتجرون فيما بينهم، لا بسبب الرّؤية الخاصة لكلّ منهم، ولكن بسبب اختلاف الرؤية من خلال المنظار الذي يُقدّم لكل منهم!

والنتيجة. .؟ ضياع. .!

* * *

المسلمون أمّة من دون الناس، كما أراد لهم خالقهم ومخرجهم إلى الوجود، وكما وصفهم رسوله صلى الله عليه وسلم. وليس الأمر مجرّد اختلافٍ للاختلاف، ولا هو كذلك اختلافٌ في الشّكل أو في الوجهة مع كونه على المستوى ذاته مع الآخرين. إنما هو اختلاف له منشؤُه الخاص، ومستواه الخاص، وله هدفه الخاص كذلك.

فأما من حيث المنشأ:

﴿قل إنني هدَاني ربّي إلى صراطٍ مُّستقيم دينًا قيمًا، مِلَّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾. (سورة الأنعام، الآية: ١٦١).

﴿قُلْ إنّي نُهيتُ أن أعبدَ الذينَ تَدْعون من دون الله، قل لّا أتّبع أهواءكم قد ضللت إذًا وما أنَا من المهتدين﴾. (سورة الأنعام، الآية: ٥٦).

﴿قُلِ الله أعبدُ مخلصًا له ديني. فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾. (سورة الزمر، الآيتان ١٤، ١٥).

وأما من حيث المستوى:

﴿كنتم خير أمّةٍ أخرجت للنّاس، تأمرون بالمعروفِ وتَنْهون عن المنكر وتُؤمنون بالله﴾. (سورة آل عمران، الآية: ١١٠).

وأما من حيث الهدف:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسَطًا لتكونُوا شهداءَ على النّاس، ويكون الرّسولُ عليكم شهيدًا﴾. (سورة البقرة، الآية: ١٤٣).

ومقتضى كونهم أمة متميزة من دون الناس أن تكون لهم **رؤْيتهم الخاصة لما يجري من أحداث في الأرض**، وموقفهم الخاص، فعلى أي أساس يكون موقفهم، ومن أي زاوية تكون رؤيتهم؟

إذا انطلقوا من المنطلق «**القومي**» ـ كما يظنّ بعض الناس أنّ هذا هو المنطلق

الذي يميز الناس في الأرض بعضهم من بعض، ويُحدّد لهم موقفهم ورؤيتهم ـ فقد **ضلّوا الطريق من أول خُطوة**، ودخلوا في المتاهة التي أدخلهم فيها الذين كانوا يوجهونهم ـ ولا يزالون ـ ليفرّقُوا وحدتهم السياسية من جهة، وليميعوا شخصيتهم المتميزة من جهة أخرى، التي منها اتخذوا وجودهم الخاص، وهي كونهم «مسلمين» . . «**أمة من دون الناس**».

وإذا انطلقوا من المنطلق «**الأيديولوجي**» ـ كما يسمونه ـ إما «**ليبراليين**»، وإما «**اشتراكيين**» أو «**ماركسيين**»، فقد دخلوا في المتاهة كذلك، وجَرَوْا مغمضي الأعين وراء الذين يَجُرّونهم إلى هذا الاتجاه أو ذاك، فإن أرادوا أن «ينظروا» قدم لهم كلّ اتجاه منظاره، وقال لهم كما قال فرعون من قبل: ﴿**ما أُرِيكم إلا ما أرَى، وما أهديكم إلا سبيل الرّشادِ**﴾ (سورة غافر، الآية ٢٩).

إنما منطلق المسلمين يحدده كونهم «مسلمين» . . أي أنّ منطلقهم هو الإسلام.

والإسلام عقيدة، وشعيرة، وشريعة، ونظام سياسي واقتصادي واجتماعي، ورؤية خاصة للكون والحياة والإنسان، **ورؤية خاصة كذلك لما يحدث من أحداث في الأرض، وتفسير خاص للتاريخ**[١].

* * *

وقد يعيش الفرد العادي في كل أمة ـ ذلك الذي يسمونه «**رجل الشارع!**» بغير وعي ولا فهم لما يدور حوله من أحداث، لأنه يتناول الحياة جُزئية جزئية بغير ترابط، ولأنه مشغول بأمور حياته اليومية أو أمور شهواته، ولأنه لا صبر له على تحليل الأحداث وتعمقها، فهو يتناول الأمور جاهزة **من وسائل إعلامه**، كما يتناول وجبة الطعام الجاهزة من السوق، أو كما يتناول حبّة «الفيتامينات» الجاهزة التي أعدها له الأخصائيون في الدواء!

ولكن مفكري الأمم وكتابها فضلاً عن قادتها وأولي الأمر فيها لا يعيشون بهذا التبعثر وهذه السطحية **وإلا هلكوا وأهلكوا أممهم!** إنما هم يُفكّرون، ويُحلّلون،

---

(١) راجع إن شئت كتاب «حول التفسير الإسلامي للتاريخ».

ويَقيسون ويُرجّحون، ويكوّنون في النهاية رؤيتهم الخاصة وموقفهم الخاص، النابع في النهاية من أفكارهم الرئيسية ومعتقداتهم.

وقد يُقال - في عجلة سطحية - إن الذي يُحرّكهم، أو يُحدد لهم رؤيتهم وموقفهم، هو «**مصالحهم**».

وكونهم يسعون إلى تحقيق مصالحهم هذا واقع لا سبيل إلى الشّكّ فيه. ولكن كيف يتم تكييفهم وتحديدهم لمصالحهم؟ ما «**المصلحة**» في عرفهم؟ ما حدودها، وما مواصفاتها، وما الوسائل المؤدية إلى تحقيقها؟

إنها في النهاية نظرة «**عقائديّة**» أراد الإنسان أم لم يرد! نظرة مستمدّة من معتقدات الإنسان وتصوراته.. من طريقة نظرته للكون والحياة والإنسان.. من إجابته على هذا السؤال الجوهري: ما الإنسان؟ ما تكوينه؟ ما حدود طاقاته؟ ما غاية وجوده؟ ما الوسائل التي يستخدمها لتحقيق غاية وجوده.. بعبارة أخرى: ما منهج حياته؟

ومن ثم نرجع إلى نقطة البدء: **إن كلّ أمّة لها - بداهة - معيارها الذي تقوّم به أحوال العالم المعاصر!**

* * *

وللمسلمين رؤيتهم الخاصة - أو يجب أن تكون لهم رؤيتهم الخاصة - لأحوال العالم المعاصر، الرؤْية النابعة من معتقداتهم وتصوراتهم وقيمهم، ونظرتهم للكون والحياة والإنسان، وإدراكهم لغاية وجودهم الخاصة، ومهمتهم في الأرض.. أي إدراكهم أنهم «مسلمون».

ولقد ناقشت في كتاب سابق[1] الشُّبهَ التي تُثار حين يُدْعَي المسلمون لكي يَرَوْا رؤيتهم الخاصة، ويقفوا مواقفهم الخاصة، والتهم التي توجه إليهم: تهمة **الرجعية** وتهمة **التعصب**، وتهمة **اتخاذ** «**عملة خاصة**»، غير العملة المتداولة الآن في الأرض..

(١) كتاب «حول التفسير الإسلامي للتاريخ».

وقلت إنها كلها **كلام لا وزن له**. فأوربا لها «عملتها» الخاصة، وتريد أن تفرضها علينا بدعوى أنها هي العملة «**العالمية**»! فإذا نحن أردنا أن نستخدم عملتنا الخاصة ـ على الأقل كما يستخدمون هم عملتهم ـ قيل لنا إنكم **متعصبون**.. وردّدها وراءهم أتباعهم من «**المسلمين**»! وزادوا على ذلك قصة العالم الذي أصبح كالقرية الصغيرة، لا يحتمل التميز ولا الاختلاف! بينما القرية ـ أمامهم ـ تعج بالخلاف!!!

وما أريد هنا أن أكرر ما قلته هناك في ذلك الكتاب.

إنما أقول فقط إن الرؤْية الإسلامية لأحوال العالم المعاصر ليست هوًى خاصًّا، ولا مزاجًا شخصيًّا، ولا تعصبًا لأي معنى من المعاني «الأرضية» التي يتعصب لها الناس في الجاهلية:

«**ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية**»[1].

إنما هي محاولة للتعرف على «**السنن الربانية**» التي تحكم واقع العالم اليوم، ومحاولة لتفسير الأحداث الجارية على ضوء تلك السنن الربانية، للتعرف على مغزى تلك الأحداث من جهة، وما يمكن أن تئول إليه من جهة أخرى.

ومن ثم فهي دراسة «**موضوعية**» **بحتة**، «**علمية**» **بحتة**.. **ولكن بالمقاييس الصحيحة للعلمية وللموضوعية، المستمدة من كتاب الله، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا من أهواء البشر وشهواتهم**.

والاستمداد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، في تفسير أحوال العالم المعاصر، هو ـ كما قلت في كتابي السابق «حول التفسير الإسلامي للتاريخ» ـ اجتهاد بشري، يمكن أن يُخطيء وأن يُصيب، كاجتهاد الفقيه في استنباط الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.. ولكنه يظل أكثر انضباطًا وأقرب إلى الصواب من التفسير الذي يستند فقط إلى الأهواء:

---

(١) رواه أبو داود.

﴿ولـو اتّبـعَ الحقُّ أهواءَهُم لفسدتِ السماواتُ والأرضُ ومن فيهن﴾. (سورة المؤمنون، الآية: ٧١).

* * *

نظرة سريعة إلى أحوال العالم المعاصر تبين **ثلاثة خطوط عريضة رئيسية:**

الخط الأول: هو تمكّن أوربا في الأرض، وسيطرتها على العالم، سواء غرب أوربا بامتداده الذي يشمل أمريكا، أم شرق أوربا الذي يشمل روسيا وملحقاتها.

والخط الثاني: هو السيطرة العالمية لليهود، التي تمتد فتشمل معظم دول الأرض ـ الغربية والشرقية ـ وتوجهها لتحقيق مصالح اليهود وأهدافهم ومخططاتهم.

والخط الثـالث: هو الضعف المـزري الـذي يعيشه المسلمون في الأرض، وسيطرة الأعداء على بلادهم، سواء كانت سيطرة عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو فكرية، **أو مزيجًا من ذلك كلّه**، وهوان المسلمين على أنفسهم وعلى الناس، وضياعهم وتشتتهم وقلة حيلتهم في المعركة الضارية التي يعيشها الناس اليوم في الأرض.

هذا الواقع الملموس له **أسبابه ولا شكّ**، وله نتائجه كذلك.

ودراستنا في هذا الكتاب الموجز معنيّة أساسًا بدراسة الأسباب التي أدت إلى هذا الواقع من **خلال السُّنن الربّانية** التي بينها الله في كتابه المنزل وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لاستخلاص حقيقة أولية مهمة هي **كون هذا الواقع ـ بكلّ حذافيره ـ هو التحقيق الدقيق لتلك السنن الربَّانيّة، ولوعد الله ووعيده**؛ ثم استخلاص العبرة من ذلك، وهي **وجوب الرجوع إلى تلك السّنن** إذا رغبنا في تغيير واقعنا السيىء الـذي نعيشـه اليوم إلى واقـع أفضـل. فالتغيير كذلك له سننه الرّبّانية التي يجري بمقتضاها، والتي لابد من التعرف عليها إن أردنا الاستفادة منها.

كما تهدف هذه الدراسة كذلك ـ إلى جانب محاولة **رؤْية الواقع المعاصر** على ضوء السّنن الربانية ـ إلى **إلقاء نظرة على المستقبل**، وما يتوقع من أحواله، انطلاقًا من الأحوال الحاضرة وترتيبًا عليها.

ولن تكون هذه المحاولة رجمًا بالغيب، فالغيب لا يعلمه إلا الله:

﴿قـل لاَّ يعلمُ من في السمـواتِ والأرضِ الغيب إلاَّ الله﴾. (سـورة النمـل، الآية ٦٥).

ولكن تكون تتبعًا للسنن الرّبانية، ولوعد الله ووعيده، **ومحاولة لقراءة المستقبل على ذلك الضوء**.

ولئن كانت رؤْية **الحاضر** تشتمل أساسًا على تقويم مواقع القُوى العالمية الثلاث العاملة فيه، وهي **اليهود والنصارى والمسلمون**، وتقدير مواقفهم، فقراءة **المستقبل** كذلـك هي محاولـة للتعـرف على المـواقع **المتوقعة** لتلك القوى الثلاث ومواقفها في المستقبل القريب والمستقبل البعيد[1] ـ على ضوء السنن الربانية كما أسلفنا، وعلى ضوء وعد الله ووعيده ـ مع التركيز على ما يلقيه ذلك من التبعات على الأمة الإسلامية، **وعلى الصحوة الإسلامية بصفة خاصة**، إن أرادت أن تصل إلى شيءٍ حقيقيّ، وأن تُحقّق ما ندبت نفسها إليه من أهداف.

وفي ظنّي أن التوعية بأحوال العالم المعاصر، وما يتوقع أن تئُول إليه الأمور في المستقبـل، هي مسألة من صميم اهتمامات الدعوة، وواجب من الواجبات المهمة الملقاة على عاتق الدعاة الذين ندبُوا أنفسهم لإيقاظ هذه الأمة وإرشادها إلى السبيل المؤدية إلى النصر بعون الله وتوفيقه.

* وفي ختام هذه المقدمة أوجه كلمة إلى القاريء:

إن القاريء المتتبع لكتبي السابقة، وبخاصة الأخيرة منها: «**مذاهب فكرية معاصرة**» و«**واقعنا المعاصر**» و«**مفاهيم ينبغي أن تُصحّح**» و«**حول التفسير الإسلامي للتاريخ**»، قد يحسّ أنه لا يُوجد في كتاب اليوم «**معلومات**» جديدة يضيفها إلى ما سبق أن قرأه في تلك الكتب.. ولكن الجديد فيه ـ مع ذلك ـ هو محاولة **تجميع الخيوط لرسم صورة متكاملة للواقع الذي يعيشه العالم اليوم، وموقع المسلمين منه، وكذلك محاولة رسم صورة لما يُتوقّع أن تئول إليه الأمور في المستقبل**.

---

(١) الواقع أن القوى العالمية ـ كما أشار إليها القرآن الكريم ـ أربع: اليهود والنصارى والمشركون من غير أهل الكتاب والمسلمون. ولكنا اكتفينا في دراسة الواقع المعاصر بالقوى الثلاث ذوات الأهمية الخاصة، على أساس أن المشركين في الأرض اليوم خاضعون في الحقيقة لإحدى القوتين: اليهود أو النصارى أو كلتيهما معًا.

وفي ظنّي أن هذا أمر يستحق أن يُفرد بالبحث، وأن تُوجّه إليه الأنظار، حتى وإن كانت مفرداته متناثرة في عشرات الكتب من قبل. فليس المهم هنا هو «**المعلومات**» بقدر ما هو «**الدلالة**» المستخرجة من المعلومات، والتي يُرجى من دراستها اكتساب البصيرة اللازمة في حركة الدّعوة، والتي أشارت إليها الآية الكريمة:

﴿قل هذه سَبيلي أدْعُو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومنِ اتّبعني، وسُبْحانَ الله وما أنا من المشركِينَ﴾. (سورة يوسف. الآية: ١٠٨).

وفي الآية إشارة واضحة إلى أن البصيرة مطلوبة في الدّعوة لهذا الدّين، كالإيمان سواء بسواء، وأن على أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، أن يتلمّسوا تلك البصيرة ليرسمُوا على هداها خطواتهم، ثم يرجوا من الله السداد.

وبعد، فما اهتديت إليه من صواب في هذه الدراسة فهو من توفيق الله، وما قعد به العجز البشري فهو مردود إليه..

«**وما تَوْفيقي إلاّ بالله، عليه توكلت وإليه أنيب**».

محمد قطب

الجاهلية المعاصرة

أولا: تمهيد في معنى الجاهلية

يستنكر كثيرٌ من الناس أن نصف الأوضاع السائدة في معظم أرجاء الأرض اليوم بأنها «**جاهلية**»، ويحسبُون ذلك تزيدًا لا يليق، ووصفًا خاطئًا، لا يتناسب مع واقع الحال.

والسبب في ذلك أنهم يفهمون من الجاهلية **صورة معينة**، يرونها غير منطبقة على الواقع اليوم.. فينبغي أولاً أن نفهم حقيقة الجاهلية، لنرى مدى انطباقها على هذا الواقع أو بُعدها عنه.

ولنعلم - بادىء ذي بدءٍ - أن لفظ «**الجاهلية**» مصطلح قرآني. وهذه الصيغة بالذات - صيغة «**الفاعلية**» - لم ترد في استعمال العرب قبل نزول القرآن الكريم. فقد استخدموا الفعل «**جَهِلَ**»، وتصريفاته المختلفة، واستخدموا المصدر: «**الجهل**» و«**الجهالة**»، ولكنهم لم يستخدموا صيغة «**الفاعلية**» **(جاهلية)**، ولا هم وصفوا أنفسهم ولا غيرهم بأنهم «**جاهليون**». إنما جاء وصفهم بهذه الصفة في القرآن الكريم، وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمصطلح القرآني - كل مصطلح قرآني - هو استخدام خاصٌّ للفظٍ من الألفاظ، يُخصصه بمعنى مُعيّن، لا يُفهم من المعنى اللغويّ على هذا النحو الخاص إلا بتخصيص القرآن الكريم له، وإن كان يدخل - بداهة - في إطار المعنى العام..

فالصلاة في اللغة مثلاً هي **الدّعاء**. والزكاة هي **الطّهارة**. والدّين هو **ما يعتقده الإنسان ويدين به**. والإيمان هو **التصديق**..

ولكن «**الصلاة**» في المصطلح القرآني، هي تلك الهيئة الخاصة التي يقف فيها الإنسان بين يدي مولاه، متّجهًا وجهة معينة، راكعًا ساجدًا قائمًا قاعدًا داعيًا مسبّحًا كما أمر الله، وكما بيّن رسوله صلى الله عليه وسلم.

و«الزكاة» هي تلك النسبة المعينة التي يُؤدّيها المسلم من ماله لتُنفق في مصارفها المحددة في كتاب الله.

و«**الدين**» هو الإسلام - إسلام الوجه لله - وما يستتبعه من شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

والإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، وما يقتضيه ذلك من أعمال القلب وأعمال الجوارح[1].

فإذا ذكر لفظ الصلاة أو الزكاة أو الدين أو الإيمان لم ينصرف ذهن المسلم إلى المعنى اللغوي العام، إنما ينصرف ذهنه ابتداء إلى المعنى الاصطلاحي الذي ورد في كتاب الله، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

و«**الجاهلية**» - كسائر المصطلحات القرآنية - لها معناها المحدّد، الذي يدخل بطبيعة الحال في إطار المعنى اللغوي العام، **ولكنه يتّخذ دلالته المحدّدة من استخدام القرآن له، وتحديده لمعناه**.

يقول ابن تيمية - رحمه الله - في بيان المعنى اللغوي للجهل: «**هو عدم العلم، أو عدم اتباع العلم**. فإنّ من لم يعلم الحقّ فهو جاهل جهلاً بسيطًا، فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركبًا. . **وكذلك من عمل بخلاف الحقّ فهو جاهل، وإن علم أنه مخالف للحقّ**. . »[2].

وقد ورد اللفظ في كلام العرب بكلا المعنيين، وبصفة خاصة في المعنى الثاني، الذي يفيد عدم اتباع العلم، والعمل بما يُخالف مقتضاه.

---

(١) يقول السلف - وقولهم الحق - إن الإيمان قول وعمل. أما المرجئة - الذين أخذوا المعنى اللغوي دون الاصطلاحي - فيقولون إنه التصديق والإقرار، وليس العمل داخلاً في مسمى الإيمان. وهو قول واضح البطلان.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ص ٧٧ - ٧٨.

فحين يقول الشاعر[1]:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فهو يستخدم الجهل بمعنى: **نغضب غضبًا شديدًا**، ونتصرف بما يمليه علينا الغضب من بطش وعدوان، ولا نقف عند الضوابط التي تحكم سلوكنا في حالة الحِلْم.

وحين يقول الشاعر الآخر[2]:

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها   عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معًا!

فهو كذلك يستخدم الجهل بمعنى السلوك غير المنضبط بالضوابط اللائقة بمثله، من صبر وكتمان، وعدم إظهار للوعة الأسى وفرط الحزن.

أما في القرآن الكريم فاللفظ يرد في معنى خاص، أو في الحقيقة في معنيين **محدّدين**: إما **الجهل بحقيقة الألوهية وخصائصها**، وإما **السلوك غير المنضبط بالضوابط الربانية**، أي بعبارة أخرى: عدم اتباع ما أنزل الله.

فحين يقول جلّ شأنه: **﴿وجاوزنا ببني إسرائيلَ البحرَ فأتَوْا على قوم يَعْكُفُون على أصنامٍ لَّهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلـهًا كما لهم آلهةٌ. قال إنكم قومٌ تَجْهلُونَ﴾**. (سورة الأعراف، الآية: ١٣٨). فالجهل المقصود هنا هو **عدم العلم بحقيقة الألوهية**. إذ لو علموا أنه تعالى **﴿لا تُدْرِكُه الأبصارُ﴾**. (سورة الأنعام، الآية ١٠٣). وأنه **﴿ليس كمثله شيءٌ﴾**. (سورة الشورى، الآية: ١١). وأنه تعالى **﴿خالِقُ كلِّ شيءٍ﴾**. (سورة الأنعام، الآية: ١٠٢). وليس بمخلوق، ولا صفاته تشبه صفات الخلق. ما سألوا هذا السؤال الذي ينمّ عن جهلهم بهذه الأمور كلّها.

وحين يقول سبحانه وتعالى: **﴿وطائفة قد أهمّتهم أنفُسُهم، يَظُنُّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية، يقولون هل لنّا من الأمر من شيءٍ﴾**. (سورة آل عمران، الآية: ١٥٤). فالذي يعيبه الله على هذه الطائفة هو **تصور معين لأمر يتعلق بحقيقة الألوهية**. هو

---

(١) هو عمرو بن كلثوم.

(٢) هو الصِّمّة بن عبدالله القشيري.

تصورهم أن هناك من يمكن أن يُشارك الله سبحانه وتعالى في تدبير الأمر، وجهلهم بأن ما يتمّ بالفعل هو إرادة الله وحده، وتدبيره وحده، لا تدبيرهم هم ولا تدبير غيرهم، وأنهم سواء كانوا استُشِيرُوا أم لم يُسْتشارُوا، أخذ برأيهم أم لم يُؤْخذ به، فليس لشيءٍ من ذلك تأثير في قدر الله وتدبيره، كما تصوروا في جهالتهم. لذلك ردّ عليهم بقوله تعالى: ﴿**قل إن الأمر كلّه لله**﴾.

وحين يقول تعالى: ﴿**وقال الذين لا يعلمون**[1] **لولا يُكلّمنا الله أو تأتينا آيةٌ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قُلوبهم، قد بيّنا الآيات لقوم يُوقنون**﴾ (سورة البقرة، الآية: ١١٨). فالمقصود كذلك أن هؤلاء الجاهلين أو الجاهليين **يجهلون أمرًا يتعلق بالألوهية**، وهو أن الله لا يكلم الناس إلا وحيًا أو من وراء حجاب، كما قال سبحانه: ﴿**وما كان لبشرٍ أن يُكلِّمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجابٍ، أو يُرسل رسولاً فيُوحِي بإذنه ما يشاء، إنّه عليٌّ حكيمٌ**﴾. (سورة الشورى، الآية ٥١). وأنه تعالى لا يُنزّل الآيات حسب أمزجة النّاس، إنما يُنزّلها حين يشاء سبحانه، لحكمة يُريدها، فإذا أنزلت ترتبت عليها نتائجها، وهي **التدمير العاجل على الكافرين**، كما قال سبحانه: ﴿**ولو أنزلنا مَلَكًا لّقُضِي الأمر ثم لا يُنْظَرُونَ**﴾. (سورة الأنعام، الآية: ٨).

وحين يقول سبحانه على لسان يوسف عليه السلام: ﴿**وإلا تَصرف عنّي كيدهُنّ أصبُ إليهن وأكن مِّن الجاهلين**﴾. (سورة يوسف، الآية: ٣٣). فالمعنى مُتعلّق **بسلوك غير منضبط بالضوابط الربانية**، وهو الصبوّ إلى النسوة، ومخالفة أمر الله، والوقوع فيما حرّم الله، وهو الأمر الذي يَخشى يوسف عليه السلام أن يقع فيه، ويستعيذ بالله منه.

وحين يقول تعالى: ﴿**ولا تبرّجْنَ تبرُّج الجاهليةِ الأولى**﴾. (سورة الأحزاب، الاية ٣٣). فالمقصود كذلك **سلوك غير منضبط بالضوابط الربانية**، واتباع لغير ما أنزل الله من وجوب التحشم وعدم إبداءِ النساءِ لزينتهن إلا لمحارمهن.

---

(١) أي الذين يجهلون.

وحين يقول جلّ شأنه: ﴿**إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحَمِيّة حَمِيّة الجاهلية**﴾. (سورة الفتح، الآية ٢٦). فالمقصود **سلوك غير منضبط بالضوابط الربانية**، التي تلزم الإنسان ألا يُقاتل إلا في سبيل الله، ولا يُقاتل حَمِيَّةً، ولا عَصبيّة، ولا لأمر يُغضب الله سبحانه وتعالى.

وأخيرًا حين يقول سبحانه وتعالى: ﴿**أفحكمَ الجاهليّة يبغونَ، ومن أحسنُ من الله حُكمًا لّقومٍ يُوقِنونَ**﴾. (سورة المائدة، الآية ٥٠). فالأمر متعلق مباشرة **باتباع غير ما أنزل الله من التشريع**، الذي قال الله فيه: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئكَ هم الكافرون**﴾. (سورة المائدة، الآية ٤٤).

* * *

ذلك هو المعنى «**الاصطلاحي**» للجاهلية، الذي جاء في كتاب الله الكريم، والذي خلاصته **الجهل بحقيقة الألوهية، والجهل بما يجب لله سبحانه وتعالى** من إخلاص العبادة له وحده دون شريك. وهي بهذا المعنى ليست محددة بزمن معين، ولا مكان معين، ولا قوم معينين. إنما هي **تصورات** معينة، **وسلوك** معين، حيثما وجدت فهي الجاهلية، بصرف النظر عن الزّمان والمكان والقوم.

وبهذا المعيار الرباني، نصف الجاهلية المعاصرة بأنها جاهلية!

والذين يظنون أن الجاهلية كانت فترة زمنية معينة في الجزيرة العربية، انتهت ببعثة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، ولم يعد لها وجود في أي مكان في الأرض، يغفلون عن الواقع الذي تعيشه معظم الأرض اليوم، **كما يغفلون عن أقوال العلماء في هذا الشأن**.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«فإذا تبين ذلك[1]، فالناس قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم، كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه

(١) أي الشرح الذي شرح به معنى الجاهلية، واشتمالها على التصورات الخاطئة والأعمال المخالفة لما أنزل الله.

لهم جُهّال، وإنما يفعله جاهل. وكذلكَ كلُّ ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهو جاهلية. **وتلك كانت الجاهلية العامة**».

«فأما بعد مابعث الله الرسول صلى الله عليه وسلم، **فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصرٍ دون مصرٍ، كما هي في دار الكفّار،** وقد تكون في شخصٍ دون شخصٍ كالرجل قبل أن يسلم، فإنه يكون في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام.

«فأما في زمانٍ مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحقّ إلى قيام الساعة.

«والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين..»[1].

وخلاصة الكلام الدقيق الذي يقوله ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن **الجاهلية العامة** التي تشمل كلّ وجه الأرض قد انتفت بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الأرض لا تخلو في أيّة لحظة من وجود طائفة من أمته ظاهرين على الحقّ. ولكن **الجاهلية المطلقة** (التامة الكاملة) قد توجد في **بعض البلاد** بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن **الجاهلية المقيدة** (أي التي لا تشمل كل شيء ولا كل أحد)، قد توجد في بعض ديار المسلمين وفي كثير منهم.

فإذا نظرنا إلى الغرب اليوم (بصرف النظر عن بلاد الإسلام التي لا يحكمها الإسلام) **فبأي وصف نصفه**؟ أي تصورات تحكمه؟ وأي سلوك يسلكه؟ وما حكم هذه الأرباب المعبودة فيه، وأولها الهوى، الذي قال الله فيه: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾. (سورة الجاثية، الآية: ٢٢). وما حكم التشريع بغير ما أنزل الله، وتحليل ما حرّم الله؟ وما حكم التبرج القائم اليوم، الذي لم تصل إليه جاهلية في التاريخ.

* * *

ومن جانب آخر فإن كثيرًا من الناس **يستنكر أن نصف الجاهلية المعاصرة بأنها جاهلية**، حين تبهرهم قوة أوربا المادية وعمارتها للأرض، وما لديها من العلم، ويعتبرون هذا الوصف تهجّمًا عليها بغير حقّ. وهؤلاء لا يدركون أن الجاهلية في

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٧٨ ـ ٧٩.

المصطلح القرآني الكريم الذي نلتزم به، **ليست مقابلاً للقوّة الماديّة، ولا العمارة المادية للأرض، ولا العلم بظواهر الحياة الدنيا**. فقد وصف الله جاهليات كثيرة في التاريخ بالقوّة والعلم وعمارة الأرض، فلم ينف عنها ذلك كلّه أنها جاهلية، ولم يحمها من المصير المحتوم الذي قدره الله للجاهلية بحسب السنن الربانية.

﴿فأما عادٌ فاستكبروا في الأرض بغيرِ الحقِّ، وقالوا من أشدُّ منّا قوّة، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قُوّة﴾. (سورة فصلت. الآية ١٥).

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظرُوا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم كانوا أشدَّ قوّةً وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم[1] ولكن كانوا أنفسهم يَظْلِمونَ﴾. (سورة الروم. الآية ٩).

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون﴾. (سورة الروم. الأيتان ٦ ـ ٧).

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدَّ قوّةً وآثارًا في الأرض، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون. فلما جاءتهم رُسُلُهم بالبينات فَرِحُوا بما عندهم من العلم، وحَاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون﴾. (سورة غافر. الأيتان ٨٢ ـ ٨٣).

* * *

أمر آخر يعترض في أذهان الناس، حين نصف الحضارة الغربية المعاصرة بأنها جاهلية. ذلك هو تصورهم أننا **ننفي عن الجاهلية أن يكون فيها أي خير على الإطلاق**، ونَصِمُهَا بأنها شَرٌّ بحتٌ. فإذا وجدوا في الجاهلية المعاصرة جوانب من الخير رفضوا وصفنا لها بأنها جاهلية، وتصوروا أننا نفتئت عليها بهذا الوصف!

وليس الأمر كذلك! فما من جاهلية من جاهليات التاريخ خلت من جوانب من الخير، ومن أفراد خيّرين! وإذا كان القرآن الكريم ـ لحكمة معينة ـ قد ركز على جوانب السوء في الجاهلية والجاهليين، فإن السنة النبوية المطهَّرة قد فصلت الأمر،

(١) أي لما دمر عليهم حين كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بما جاءوهم به من البينات.

وبينت أن هناك أفرادًا خيّرين وجوانب خيرة في الجاهلية، ولكنّها كلّها ذاهبة بددًا، بسبب جوانب السوء التي أبرزها القرآن الكريم، وهي **شرك العبادة وشرك الاتباع، أي لبطلان القاعدة الأساسية التي تقوم عليها حياتهم كلّها**.

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا**»[1].

فيبين عليه الصلاة والسلام أن في الجاهلية «**خيارًا**» من الناس. ولا يوصف الناس بأنهم خيار حتى يكون فيهم قدرٌ كافٍ من الخير يُؤهلهم لهذا الوصف. ولكنهم إذا لم يفقهوا - **أي إذا جَهِلُوا** - يضيع خيرهم بَدَدًا، أو يستنفدون أجرهم في الحياة الدنيا ولا يقبل منهم عملهم يوم القيامة كما قال تعالى:

﴿من كان يُريدُ الحياة الدنيا وزينتها نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يُبْخَسونَ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحَبِطَ ما صنعُوا فيها، وباطلٌ مّا كانوا يعملون﴾ (سورة هود، الآيتان ١٥، ١٦).

وقد كان في الجاهلية العربية فضائل لا شك فيها، كإكرام الضيف، والشجاعة وإباء الضيم، وإجارة الضعيف.. الخ، ولعلّ قمة ما كان فيها من الفضيلة ذلك الحلف الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال فيه: «**دُعِيتُ إلى حلف في الجاهلية في بيت ابن جدعان، لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت**»[2] يقصد حلف الفضول.

ولكن هذا كلّه لم يمنع عنها صفة **الجاهلية** التي وصفها بها ربّ العالمين - وهو أصدق القائلين - ولم يمنع عنها مصيرها المحتوم في الدنيا وفي الآخرة، لأنه من السنن الربانية، ومن الحقّ الذي خلقت به السمٰوات والأرض. **﴿وما ربك بظلّام للعبيدِ﴾**. (سورة فصلت، الآية ٤٦).

فليس من الظلم وصف الجاهلية بأنها جاهلية على الرغم من الخير الجزئي

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٣٣.

الذي قد تشتمل عليه، وعلى الرغم من اشتمالها على خيار من الناس لا يُشكُّ في وجود الخير في نفوسهم. . ذلك أن الأمر ليس منظورًا فيه إلى الحياة الدنيا وحدها، **بل إلى الحياة مكتملة بجميع حلقاتها**. وعمل الجاهليين ضائع في الآخرة غير مقبول منهم، بسبب إشراكهم بالله:

﴿وقَدِمْنَا إلى ما عَمِلُوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورًا﴾. (سورة الفرقان، الآية ٢٣).

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نُقيم لهم يومَ القيامة وَزْنًا﴾. (سورة الكهف، الآية ١٠٥).

والعملُ الذي تُؤدي نهايته إلى البوار الأكيد هو عمل لا خير فيه، مهما بدا فيه من مظاهر الخير الجزئية في أثناء الطريق.

بل حتى لو أخذنا الحياة الدنيا وحدها في حسابنا وهو أمر غير جائز، لأنه يُهمل حقيقة أكبر من حقيقة الحياة الدنيا.

﴿وإنّ الدّار الآخرة لهِيَ الحيوانُ[1] لو كانوا يَعْلمونَ﴾. (سورة العنكبوت، الآية ٦٤).

نقول حتى لو أخذنا الحياة الدنيا وحدها في حسابنا، فالجاهلية هي الجاهلية ولو احتوت على جوانب من الخير الجزئي. . **والواقع الذي نراه في الغرب اليوم هو مصداق هذه الحقيقة**. فأين الإنسان في النهاية؟ هل هو في مكانه اللائق بإنسانيته؟ هل هو مُحقق لغاية وجوده؟ هل هو سعيد مُطمئن بحياته؟ وإذن فما دلالة هذه النسب المتزايدة من الأمراض **النفسية والعصبية، والقلق والانتحار، والجنون والخمر والمخدرات والجريمة**. . ؟ وإن هو استمتع بحياته فأي نوع من المتاع؟

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنارُ مثوًى لهم﴾. (سورة محمد، الآية ١٢).

فبحساب الدنيا ذاتها تظلّ الجاهلية جاهلية كما وصفها الله، حين **تجهل حقيقة الألوهية، وتتبع غير منهج الله، ولا يمنع هذا أن تكون لها «حضارة» وتقدم مادي** وعلمي وتكنولوجي. وأن تتناثر على سطحها بقع من الخير لا يربط بينها رباط!

---

(١) أي الحياة الحقيقية الدائمة التي تستحق أن تعاش.

ثانيا: جذور الجاهلية المعاصرة ومكوناتها

تعتزّ أوربا بجاهليتها المعاصرة اعتزازًا شديدًا، وترى أنها شيء غير مسبوق في التاريخ، وأنه لا يتأتى لأمة في الوجود أن تبرز مثلها أو قريبًا منها.. وترى أنها جماع الخير كله.

وفي أثناء اعتزازها تنسب نفسها أحيانًا إلى المسيحية، فتتحدث في نبرة اعتزاز عما تسميه «**الحضارةالمسيحية**»! Christian Civilization ولكنها تعود فتنسب نفسها إلى **الحضـارة الإغـريقية الرومانية** Greco - Roman وتقول: إن جذورها كلّها نابعة من هناك. وفي جميع الأحوال **تنكر أثر الإسلام والحضارة الإسلامية في قيام «نهضتها» الحديثة**، وتقدمها حتى استوت على قدميها.

والحقيقة أن هذه الجاهلية المعاصرة قد جمعت **أصولاً متعددة** وتأثرات شتّى، تجمع بين الخير والشرّ، وإن غلب عليها الشرّ في النهاية بسبب بعدها عن الله، وتمردها على كلّ شيء يأتي من طريق الوحي الرباني.. الأمر الذي دخلت من أجله في عداد الجاهليات، ولم ينفعها ما اشتملت عليه من جوانب الخير.

وإذا تتبعنا النشأة التاريخية للجاهلية المعاصرة فسيتبين لنا جذورها ومكوّناتها، والعناصر التي أثرت في تشكيلها على النحو الذي تشكلت به.

ومن الواضح أن الجذور **الإغريقية الرومانية** عميقة في التربة الأوربية، وأن الجاهلية المعاصرة تعتبر بحقّ هي الوريثة للجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية[1]، والامتداد الحقيقيّ لها، ولكن خمائر جديدة تفاعلت مع التراث الإغريقي الروماني، فكونت منه الواقع المعاصر، بحيث يُصبح قولنا إن أوربا اليوم هي الامتداد لذلك

(١) نسميها جاهلية بالمقياس الرباني الذي أشرنا إليه آنفًا وهو الجهل بحقيقة الألوهية واتباع غير ما أنزل الله، وكتب التاريخ تسميها «حضارة» فتقول «الحضارة الإغريقية» و«الحضارة الرومانية» ونقول نحن: لا بأس! فهي «حضارة جاهلية» بالمعيار الرباني.

التراث قولاً ناقص الدلالة مع أنه صحيح في جملته.

ففي الفترة التي سيطرت فيها جاهلية الدين الكنسي المحرف[١]، كانت الجذور الإغريقية الرومانية قد جفّت وكادت تموت، وساد أوربا الظلام الذي أحدثته جهالة الكنيسة وطغيانها، وتحريفها للدين المنزل، وتحويله من دين توحيد إلى دين تثليث وشرك، **وفصل عقيدته عن شريعته**، وتقديمه للناس عقيدة ـ محرّفة ـ بلا شريعة[٢].

وحقيقة إن اللغة اللاتينية ظلت هي لغة الدِّين الرسمية، والإغريقية لغة العلم والأدب، ولكن مجالهما ظلّ يضيق باستمرار، وظلّ الناس ينصرفون عن المعرفة، ويغرقون في الظلام.. **حتى جاءَ الإسلام فأيقظهم**.

وكتب التاريخ الأوربية لا تنكر أن الاحتكاك بالمسلمين، هو الذي أيقظ أوربا من سباتها ـ **إلا غُلاة الغلاة منهم!** ـ ولكن الكثرة الكاثرة تُرجع اليقظة إلى أن أوربا حين احتكت بالمسلمين عثرت على تراثها الإغريقي محفوظًا عندهم، فعادت إلى الاستمداد منه بعد أن كانت قد نسيته ـ أو فقدته ـ في فترة الظلام الكنسي!

وتلك مغالطة تنطوي على مجموعة من المغالطات!

فمما لا شك فيه ـ عندي ـ أن ما يُسمّى «**الفلسفة الإسلامية**» هو فكر إغريقي وإن تناول موضوعات إسلامية، أو قل إن شئت إنه عرض للإسلام من خلال أداة غريبة على الإسلام، هي «**الفلسفة الإغريقية**»، و«**المنطق الإغريقي**».

ومما لا شك فيه كذلك أن أوربا ـ حين أرسلت مبعوثيها ليتعلموا في المدارس الإسلامية في الأندلس والشمال الأفريقي وصقلية الإسلامية وبلاد المشرق، وحين ترجمت الكتب الإسلامية، قد وجدت ـ فيما وجدت ـ تراثها الإغريقي مرة أخرى مترجمًا بالعربية في كتب «**الفلسفة الإسلامية**»، ومضافًا إليه إضافات.. فوصل ذلك ما بينها وبين تراثها الذي كانت قد فقدته أو نسيته في عصور الظلام الكنسي.

ولكن القول بأن **هذا** هو الذي أيقظ أوربا، هو تبجح المغرور منكر الجميل،

---

(١) هي جاهلية بنفس الاعتبار الذي أشرنا إليه آنفًا وإن كانتَ ترفع شعارات «الدين».

(٢) انظر بالتفصيل إن شئت فصل «دور الكنيسة» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

الذي لا يريد أن يعترف بالحقّ، والحقّ محيط به من كلّ جوانبه!

فلقد كان التراث الإغريقي الروماني الأصلي قائمًا موجودًا في متناول أيدي الأوربيين في عصور الظلام، فلا هو أيقظهم من سباتهم، ولا هم مدوا أيديهم إليه ليتناولوه!

إنها الذي أيقظهم هو **الإسلام**.

وسواء كان احتكاكهم بالإسلام والمسلمين، هو الاحتكاك **السلمي** في الأندلس، أو الاحتكاك **الحربي** في الحروب الصليبية، فقد كان هذا الاحتكاك هو الذي أشعرهم بما هم فيه من ظلام وتخلف، وحفزهم إلى **إرادة الحياة**، بعد أن كانوا قد أخلدوا إلى السّبات الذي يُشبه الموت.

يقول «الفارو القرطبي» عن أثر المسلمين في نصارى الأندلس:

«يطرب إخواني المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب **الفقهاء** والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها، بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق. فأين تجد اليوم علمانيًّا[1] يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذي يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ واأسفاه! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب، ليسوا على علم بأي **أدب** ولا أية لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة، وإنهم ليترنمون في كلّ مكان بمدح **تراث العرب**. وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون في زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم! فواحرّ قلباه! لقد نسي المسيحيون لغتهم، ولا يكاد يوجد منهم واحد في الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة بالعربية، فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه في تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة، بل قد يقرضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمه شعر العرب أنفسهم»[2].

(١) لعله يقصد المشتغلين بالعلم.

(٢) فون جرونيباوم، حضارة الإسلام، ص ٨١ - ٨٢ من الترجمة العربية، إصدار مشروع الألف كتاب، وزارة =

وقد كان مثل هذا التأثير، العائد مع المبتعثين الأوربيين إلى مدارس المسلمين في المغرب والأندلس وبلاد المشرق، هو الذي أثار جنون الكنيسة الأوربية، فراحت **تحرق العلماء الذين نادوا بأفكار اكتسبوها من علوم المسلمين**، محاولة منها لوقف التيار الجارف الذي نشأ في الفكر الأوربي نتيجة الاحتكاك بالإسلام.

يقول بريفولت في كتاب «بناء الإنسانية Making of Humanity »:

«فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود. وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علومًا أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج امتزاجًا كليًّا بالثقافة اليونانية. وقد نظّم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كلّ ذلك كان غريبًا تمامًا عن المزاج اليوناني. أما ما ندعوه «**العلم**» فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان.. **وهذه الروح وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي**»[1].

«ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد أوربا إلى الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية»[2].

لقد كان أهم ما كسبته أوربا من الاحتكاك بالإسلام والمسلمين هو إرادة الحياة.

= التعليم العالي، بالقاهرة.

(١) عن كتاب «تجديد الفكر الديني» تأليف محمد إقبال ترجمة عباس محمود، ص ٢٥٠ من الترجمة العربية.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٩.

لقد احتكوا بأمة حية قوية متعلّمة ذات حضارة وفكر وَثَّاب . . فأرادوا أن تكون لهم حياة مماثلة، فغيروا نظرتهم إلى الأمور كلّها، وغيروا منهج حياتهم من جذوره . . فانبعثوا أمة جديدة.

كان دينهم الذي حرفته الكنيسة يدعوهم إلى إهمال الحياة الدنيا من أجل الآخرة، تفسيرًا خاطئًا منهم لقول المسيح عليه السلام ـ إن كان قد قال بالفعل ـ «من أراد الملكوت فليترك ماله وأبناءه وليتبعني . . »، فقد أنزل الله على المسلمين مثل هذا التوجيه فلم يفهموا منه ما فهمت الكنيسة من القول المنسوب إلى المسيح عليه السلام.

قال تعالى: **﴿قل إن كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم، وأموالٌ اقترفتموها، وتجارةٌ تخشونَ كسادها، ومساكنُ ترضونها، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله، فتربَّصُوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**. (سورة التوبة، الآية ٢٤). ولكن المسلمين لم يترجموا ذلك إلى رهبانية سلبية مهملة لواقع الأرض، لأن تعاليم الإسلام كلّها كانت تدعو إلى **ممارسة الحياة الواقعية بكلّ اتجاهاتها وكلّ مجالاتها**، لتحقيق «الملكوت» في واقع الأرض، وذلك بتطبيق **المنهج الرباني** في دنيا الواقع، وتحكيمه في كلّ شئون البشر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأخلاقية[1]، وتظلّ الجنة بنعيمها الخالد هي الجزاء على ما يبذله البشر في الأرض من الجهد لتطبيق ذلك المنهج في واقع الحياة، ولا تكون هي الجزاء على ترك الدنيا يعمل الفساد فيها فلا يُقَاوَم، ويَحكم القيصر فيها بهواه فيفسد في الأرض.

وكان دينهم الذي حرّفته الكنيسة يدعو الناس إلى الرضا بالذلّ والهوان في الحياة الدنيا من أجل نعيم الآخرة، تفسيرًا خاطئًا لقول المسيح عليه السلام ـ إن كان قد قال بالفعل ـ «**من خدم سيدين في الدنيا خير ممن خدم سيدًا واحدًا**»، ولكن الإسلام

---

(١) التفت المستشرق الكنـدي المعاصر ولفرد كانتول سميث إلى هذه النقطة في مقدمة كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» فقرر أن النصارى يرون أن الملكوت لا يتحقق إلا في الآخرة بينما يسعى المسلمون إلى تحقيقه في الحياة الدنيا بتطبيق الشريعة.

كان يعلم الناس ألا يرضخوا للظلم في الحياة الدنيا، بل يقاوموه ما وسعهم الجهد، لإقامة العدل الرباني المتمثل في الشريعة المنزلة، وأنذر الذين يرضون بالذلّ والظلم ولا يقاومونه ـ وهم مستطيعون ـ بالعذاب الأليم في الآخرة: **﴿إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فِيمَ كنتم؟ قالُوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكُن أرضُ الله واسعة فتهاجرُوا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً. إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حِيلةً ولا يهتدون سبيلاً، فأولئكَ عسى الله أن يعفوَ عنهم، وكان الله عفوًّا غفورًا﴾**. (سورة النساء، الآيات ٩٧ ـ ٩٩).

وهؤلاء المستضعفون حقًّا، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، ليسوا كذلك متروكين للذُّلّ يأكلهم ويسحق وجودهم، إنما هناك من يُحَضُّ على تخليصهم مما هو واقع بهم:

﴿فليُقاتل في سبيل الله الذين يَشْرُون الحياةَ الدنيَا بالآخرةِ، ومن يُقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغْلب فسوف نُؤْتيه أجرًا عظيمًا. ومالكم لا تُقاتلون في سبيل الله والمستضعفين[1] من الرّجال والنساءِ والولدان الذين يَقُولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً. الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتِلُوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفًا﴾. (سورة النساء، الآيات ٧٤ ـ ٧٦).

وكان دينهم الذي حرّفته الكنيسة يضفي على «**رجال الدين**» قداسة ليست لهم في الدين الحقيقي، مبنية على سلسلة من الأساطير التي ابتدعها بولس وغيره من المبتدعين، تبدأ بتأليه عيسى عليه السلام، وادعاء بنوّته لله سبحانه وتعالى، ثم بقول منسوب للمسيح عليه السلام، أنه قال لبطرس: «أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكلّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وكلّ ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السموات»[2]. ثم إن بطرس منح هذا السلطان القدسي للبابوات من

(١) أي المستضعفين حقيقة.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح السادس عشر. ١٩ ـ ٢٠.

بعده، فصار لكلّ منهم قداسة، ولكلمته سلطان مقدّس. وبهذا السلطان طغوا في الأرض بغير الحقّ، وكان من ضمن طغيانهم **حظر التفكير على العقل البشري** ـ لكي لا يُفكّر فيما ابتدعته الكنيسة من الخزعبلات، ولكي يظلّ للكنيسة سلطانها المقدس ـ فجمد العقل الأوربي عشرة قرون متوالية هي عصور الظلام التي رفرف عليها دين الكنيسة المحرف، وامتلأ هذا العقل بالأساطير، وحُرّم عليه أن يرى النور فرضي بالظلام. **بينما كان الإسلام بريئًا من ذلك لأنه دين الله الحقّ**، فلا قداسة فيه لأحد غير الله سبحانه وتعالى، وحتى رسوله صلى الله عليه وسلم، يُؤْمر أن يقول للناس **﴿سبحان ربي! هل كنت إلاّ بشرًا رسولاً﴾**. (سورة الإسراء، الآية ٩٣). والمسلمون يُوقّرون رسولهم صلى الله عليه وسلم، ويطيعونه في كلّ أمر، ويسارعون إلى مرضاته، ولكنهم يعرفون **أنه بشر**، وأن دوره هو التبليغ عن ربه، وهو البيان لما أنزل من عند الله، وهو التربية والتوجيه لهم، ولكنه **لا يملك لهم ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء الله**.

ثم إن هذا الدين لا يحجر على العقل أن يُفكّر، **بل يدعوه دعوة ملحّة أن يقوم بالتفكير والتدبر**، والنظر في ملكوت السماوات والأرض، والتعرف على السنن الربانية في الكـون المشهـود وفي حياة البشر، وأن يسـيروا في الأرض ويتفكروا.. ومن ثم انـطلقت الأمة التي آمنت بهذا الدين، تجوب الآفاق.. آفاق الفكر وآفاق الأرض وآفاق العلم.. وتتفوق في كلّ الميادين.

لقد كان كلّ شيء في حياة المسلمين كأنه المقابل الكامل لما ألفته أوربا في قرونها الوسطى المظلمة.. **لذلك كان الاحتكاك بين أوربا والمسلمين عظيم الأثر في حياتها، شاملاً لكلّ ميادين الحياة فيها**، كما قال «بريفولت» في عبارته التي نقلناها عنه من قبل: «ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد أوربا إلى الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية».

وكانت أوربا قمينة ـ كما قال المؤرخ البريطاني «ويلز» في كتاب **«معالم تاريخ الإنسانية»** ـ أن تدخل في الإسلام. يقول: «ولو تهيأ لرجل ذي بصيرة نفّاذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر فلعله كان يستنتج أنه لن تمضي إلا بضعة

أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يُصبح مغوليًّا - **وربما أصبح إسلاميًّا**»[1].

ولكن الكنيسة وقفت لأوربا بالمرصاد تمنعها من الدخول في الإسلام! واستخدمت في سبيل ذلك كلّ ما تملك من الوسائل بما في ذلك **محاكم التفتيش**، وبما في ذلك تكليف كُتّاب الكنيسة ومفكريها وأدبائها أن يشوهوا صورة الإسلام في نفوس الأوربيين، بتشويه صورة الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم - وتزييف وقائع التاريخ، وتصوير الإسلام بربرية ووحشية ودموية وشهوانية وانحطاطًا وقسوة وهمجية.. الخ.. الخ.

ووقعت أوربا في **مأزق تاريخي**.. فهي نافرة من الكنيسة وطغيانها وجهالتها، وحجرها على الفكر، وصرفها الناس عن ممارسة الحياة، وإصلاح الواقع الأرضي، وهي في الوقت ذاته مصدودة عن الدّين الحقّ بما شوه الكُتّاب من صورته في نفوس الناس.. وكان الملجأ الذي لجأت إليه في مأزقها التاريخي هو **نبذ الفكر الديني جملة**، والعودة إلى التراث الوثني، المتمثل في الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية، ومحاولة بناء «النهضة» على أساس ذلك التراث.

وكان هذا هو الميلاد النكد للجاهلية المعاصرة!

---

(١) ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ج ٣ ص ٩٦٦.

ثالثا: خصائص الجاهلية المعاصرة

كان لهذا الميلاد النكد آثار خطيرة في تشكيل خصائص الجاهلية المعاصرة.

فلقد جمعت هذه الجاهلية في أطوائها مواريث مختلفة وتأثرات مختلفة، جعلت منها في النهاية صورتها الحالية التي يمكن تلخيصها في كلمتين: **تقدم هائل في العلوم** المادية والتكنولوجيا والعمارة المادية للأرض، **وانتكاسة هائلة في** الجانب الروحي والقيم المعنوية اللازمة لحياة الإنسان.

لقد ورثت من الجاهلية الإغريقية **عبادة العقل، وعبادة الجسد في صورة جمال حسّي**، والروح الوثنية في النظر إلى الكون والحياة والإنسان، وبصفة خاصة علاقة **الصراع** بين البشر والآلهة، حيث الآلهة تريد تدمير الإنسان، والإنسان يريد أن يُثبت ذاته **بالتمرّد** على الآلهة.

وورثت من الجاهلية الرومانية **عبادة الجسد في صورة شهوات حسيّة**، وتزيين الحياة الدنيا لزيادة الاستمتاع الحسّي بها إلى أقصى الغاية، ومن ثم الاهتمام البالغ بالعمارة المادية للأرض.

وورثت منهما معًا نزعة **الاستعمار**، واستعباد الآخرين من أجل شهوة السيطرة من ناحية، ومن أجل زيادة الرفاهية الحسية من ناحية أخرى.

وأخذت من المسلمين **المنهج التجريبي في البحث العلمي**، الذي كان أساس كلّ التقدم العلمي الحديث، واستفادت من علومهم كلّها بما فيها الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطبّ والفلك، كما استفادت من وسائلهم الحضارية الأخرى، **(وأضافت إليها كثيراً بالطبع)**، كما أخذت منهم روح **التفكير الحرّ** في مختلف مجالات الفكر، وروح **المغامرة في** فجاج الأرض واستكشاف مجاهيلها.

وفي الأخير جاءها التأثير اليهودي، الذي نفذ من الثغرات التي أوجدها نفور أوربا من الدين، فصبغ الحياة الأوربية بالصبغة **النفعية**، وعمّق الاتجاهات المادية، وزاد من الجفوة الروحية، ونشر **التفسخ الأخلاقي** في المجتمع الأوربي، مستغلًا

أحداث الثورة الفرنسية ثم الثورة الصناعية ثم النظرية الداروينية على أوسع نطاق.

ذلك موجز مختصر يحتاج إلى تفصيل.

* * *

اشتهرت الجاهلية الإغريقية بجهد فكريّ ضخم، متمثل في «**الفلسفة**» و«**المنطق**»، معنيٍّ بالتفكير في الكليات، واستنباط النظريات، ووضع القواعد التي يقوّم على أساسها الفكر. وهذه - في ذاتها - أدوات نافعة، بل هي ضرورية للحياة الفكرية السليمة، ولا يستطيع الفكر أن يرتقي إلى آفاقه العليا بغير الإلمام بتلك الأدوات واستخدامها في مجالها الصحيح.

ولكن المأخوذ على تلك الجاهلية ليس هو «**إعمال العقل**» إنما هو ما يمكن أن نسميه «**عبادة العقل**»، أي جعله هو المحكم في الأمور كلّها، وهو المرجع الذي تنتهي إليه «المعرفة» من كلّ جوانبها - **وهو ما يبدو واضحًا في الجاهلية المعاصرة بشكل بارز.**

إنّ العقل أداة مفيدة دون شك، **وقد عظّمه الإسلام**، وجعله من كبريات النعم التي منَّ الله بها على الإنسان، وأسند إليه فهم الوحي، واستنباط أحكامه، والنظر في مجالات تطبيقه، كما أسند إليه أمورًا أخرى مهمة في حياة المسلم. ولكنه لم يجعله **هو المرجع الوحيد، ولا المرجع الأعلى**، لأن الله الخالق - سبحانه - يعلم حدود هذه الأداة، ويعلم المجالات الصالحة لعملها.. ويعلم أنها - وحدها - لا تصلح أن تكون حكمًا في الأمور التي تتعرض لهوى النفس، أو لأوهام النفس.. كما أنها محدودة بحدود القدرة البشرية.. أو فلنقل: **العجز البشري!**

إن العقل أداة صالحة للتعامل مع **الكون الماديّ**، واستنباط السنن التي تحكمه (التي سمتها أوربا في جاهليتها المعاصرة «**قوانين الطبيعة**»!)، لأن هذه السنن لا دخل للإنسان فيها، إنما دوره هو التعرف عليها، ومحاولة الاستفادة منها في تحسين أحواله على الأرض، ولا تتأثر برغباته ولا أهوائه ولا أوهامه.. وهو قد يُخطيء في فهمها وقد يُصيب، ولكنها تظلّ على حالها كما خلقها الله، لا تتأثر «**بموقف**» الإنسان: مؤْمنًا أو

كافرًا، مقبلاً أو مدبرًا، مستقيمًا أو منحرفًا. . ومن ثم فبحثه فيها يمكن أن يصل في النهاية إلى الحقيقة، في الحدود المتاحة للقدرة البشرية، المحدّدة لها من عند الله[1].

وكذلك يمكن أن يكون العقل أداة صالحة في كلّ أمر ينطبق عليه هذا الوصف، أنه «سنن» لا تتأثر بموقف الإنسان ولا رغباته ولا أهوائه ولا أوهامه، في الحدود المتاحة للقدرة البشرية. . أما الأمور التي تتعرض لهوى النفس وأوهامها، أو التي تخرج عن حدود القدرة البشرية الممنوحة للإنسان، فهنا لا يكون العقل هو المحكم، ولا يكون هو المرجع النهائي، وإن لم يُستغن عنه في الفهم والاستنباط والتطبيق.

وهنا يأتي دور الوحي الرباني. .

فقد علم الله أن هناك أمورًا لا يهتدي الإنسان فيها إلى الحقّ بمفرده. وأمورًا تغلب الإنسان فيها شهوته ورغباته، فتزين له أمورًا مُهلكة يظنّ فيها نجاته، وتنفره من أمور فيها نجاته تبدو له أضرارًا ومهالك. **فتكفل الله بتعليم الإنسان هذه الأمور كلّها عن طريق الوحي. . وترك له الأمور الأخرى، التي يصلح عقله لاستيعابها والحكم فيها، يجرب فيها مقدرته، يُخطىء ويُصيب.**

والإنسان في وضعه الطبيعي - وضعه الأمثل - حين يتلقى «**المعرفة**» من مصدريها.

من الوحي في الأمور التي تكفّل بها الوحي: حقيقة الألوهية، وحقيقة الخلق، وحقيقة اليوم الآخر، والتشريع، والمنهج الذي يحكم الحياة.

ومن العقل في الأمور المتروكة للعقل: التعرف على السنن الربانية التي تحكم الحياة البشرية لتنظيم الحياة بمقتضاها، والتعرف على السنن الربانية التي تحكم الكون

---

(١) ما زال «العلم» رغم كل الأفاق التي وصل إليها يقف حائرًا في قضايا كان يظن أنها حسمت للمرة الأخيرة. . فبعد تفجير الذرة واستخلاص طاقتها انساحت الحواجز بين «المادة» و«الطاقة» ولم يعد أحد يعرف على وجه الدقة حدود هذه وتلك!

المادي لتحقيق ما سخّره الله من طاقات السمٰوات والأرض لتحسين الحياة وتجميلها[١].

أما الجاهلية الإغريقية فقد جعلت الأمر كلّه موكولاً للعقل وحده.. فألّهته!

وصار العقل ـ عندها ـ هو المرجع الذي ترجع إليه في قضية الألوهية، وقضية الخلق، وقضية ما يكون بعد الموت، وقضية التشريع، وقضية المنهج الذي يحكم الحياة. في حين حولت الميدان الرئيسي للعقل ـ وهو النظر في الكون المادي والتعرف على خواصه، ومحاولة تسخير طاقاته ـ إلى نظريات ذهنية مجردة، لا تجرّب لمعرفة مدى صدقها وانطباقها على الواقع، إنما تُمرر على «**العقل**»، فإن رآها صحيحة فهي في حكمه صحيحة، بصرف النظر عن واقعها الحقيقي، وإن رآها ـ لأي سبب من الأسباب ـ غير صحيحة فهي في حكمه غير صحيحة، بصرف النظر عن واقعها الحقيقي!

وكان لابد لهذا الانحراف في الجاهلية الإغريقية أن يصل إلى نتيجته.. فقد عاش الناس في **دوامة من النظريات الفلسفية المتناقضة في قضايا الحياة الرئيسية كلّها، وفي الوقت ذاته لم يتقدم العلم!** وكان هذا المنهج قمينًا أن يصل بالحياة إلى البوار حتى لو قدر له أن يعيش أكثر مما عاش، ولم تأت الكنيسة لتطمسه أو تسخره لأغراضها الخاصة..

وإذا تفهمنا هذه الحقيقة نستطيع أن ندرك مدى الانحراف الواقع في الجاهلية المعاصرة من «**إحياء**» الجاهلية الإغريقية مرة أخرى.

حقيقة إنه حدثت تغييرات جوهرية في بعض نواحي المنهج..

فقد تسلم المسلمون المنهج الإغريقي، وأدركوا ما فيه من خلل في الناحية العلمية، إذ أن العلم لا يصلح نظريات ذهنية تجريدية بغير تجريب، واهتدوا ـ **بوحي إسلامهم** ـ إلى المنهج الصحيح، فحوّلوا العلم إلى ملاحظة وتجربة واستنباط، **وكان هذا هو المنهج الذي انبنى عليه كلّ التقدم العلمي في العصر الحاضر**، كما أشار

---

(١) إقرأ ـ إن شئت ـ فصل «العقلانية» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

«بريفولت»، وكثير غيره من الباحثين والمؤرخين.

وما من شك أن أوربا لها جهدها الضخم في هذا الميدان، الذي يحسب لها في النتائج الأخيرة التي توصل إليها العلم، نتيجة الجلد والمثابرة وروح الجدّ والعزيمة التي حمل الأوربيون عبئها في القرون الثلاثة الأخيرة، **ولكن هذا لا ينقص من قيمة الاهتداء إلى المنهج الصحيح**، الذي جعل هذه النتائج ممكنة بالجلد والمثابرة والعزيمة، والذي لولاه لبقي العلم نظريات تجريدية، كما كان على عهد اليونان.

كما أن العقلانية التجريدية قد تحولت ـ بفعل التقدم العلمي التجريبي ـ إلى عقلانية تجريبية، فانصرفت عن عالم **«ما وراء الطبيعة» (الميتافيزيقا)** إلى عالم الطبيعة، واكتسبت بذلك **«واقعية»** في تناول مشكلات الحياة البشرية لم تكن لها من قبل، ونشأت من ذلك دوائر واسعة من الأبحاث، تحاول أن توجد حلولاً عملية للمشكلات التي تواجه الناس في حياتهم، وتصل إلى تيسيرات ضخمة في مجالات الحياة المختلفة، تستخدم فيها ثمار العلم أولاً بأول، وتُؤدي هي ذاتها إلى مزيد من التقدم العلمي..

ولكن تبقى بعد ذلك حقيقة مبدئية.. هي الانحراف الجوهري الذي ورثته الجاهلية المعاصرة من الجاهلية الإغريقية ـ بالرغم من التغييرات التي أحدثها المنهج التجريبي ذو الأصل الإسلامي ـ ذلك الانحراف المتمثل في **تحكيم العقل فيما لا مجال له فيه، واتخاذه حكمًا فيما لا يصلح أن يكون حكمًا فيه.**

لقد حكّمت الجاهلية المعاصرة عقلها في **قضية الألوهية**، فأدت بها عقلانيتها التجريبية إلى **نفي وجود الله!** لمجرد أن الله سبحانه وتعالى **«لا تدركه الأبصار»**، ولا يمكن إدراك وجوده بتجربة علمية معملية، على طريقة الكون الماديّ.. وحقيقة أن الجاهلية المعاصرة حوّلت عقلانيتها عن البحث فيما وراء الطبيعة، وكان هذا تحولاً صحيًّا سليمًا في ذاته، لأن عقلانية الإغريق في هذا المجال لم تُفض إلى علم نافع ينفع البشرية في دنياها ولا آخرتها[1]، ولكن حكمها ـ بعقلانيتها ـ بنفي وجود الله لمجرد أن

---

(١) كان ما يسمى «الفلسفة الإسلامية» محاولة للاستفادة من الفكر الإغريقي في إثبات وجود الله. ولم تفض هذه المحاولة إلى شيء ذي قيمة، والمنهج القرآني هو الأولى بالاتباع، لأن منزل القرآن هو خالق النفس البشرية العليم =

قضية الألوهية لا تخضع للتجربة المعملية، كان خطلاً ضخمًا **هوى بالبشرية في حمأة الإلحاد**، وما صاحبه من انتكاس القيم المعنوية كلّها إلى الحضيض. وخسرت البشرية من وراء هذا الانحراف أضعاف أضعاف ما كسبته من الخير الجزئي الذي حققه توجه العقلانية إلى الحلول العملية لمشكلات الحياة الواقعية، والتقدم العلمي في شتى المجالات.

وحكّمت الجاهلية المعاصرة عقلها في **قضية الخلق** ـ بعد نفيها لوجود الله سبحانه وتعالى، أو في القليل نفي هيمنته وتدبيره لشئون الكون ـ فأدت بها عقلانيتها إلى أسطورة ضخمة ليس لها واقع علمي، هي «**الطبيعة الخالقة**» من ناحية، و«**الخلق الذاتي**» من ناحية أخرى.. وصارت هذه الأسطورة «**علمًا**» يتداوله «العلماء» بغير برهان علمي، في الوقت الذي يرفضون فيه ردّ الأمور إلى الله بحجة عدم وجود برهان علمي على وجوده أو تدبيره لشئون الخلق!

واعجب إن شئت لسريان هذه الأسطورة في عصر «**العلم**»! واعجب أكثر من أن «**العالم**» إذا ذكر الله في البحث العلمي سقط من أعين «**العلماء**»! وصار مضغة في أفواههم يتندرون بجهله وسذاجته، وعدم علميته، وعدم موضوعيته، وتعلقه «بالغيبيات»، فإذا ذكر «**الطبيعة**» رفعوه بذكرها، وخروا لها ساجدين!! وصدق الله العظيم:

﴿وإذا ذُكر الله وحده اشمأزَّت قلوبُ الذين لا يُؤمنون بالآخرة، وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾. (سورة الزمر، الآية ٤٥).

والحق أن هذه الأسطورة تستحق منّا وقفة بالنظر إلى مدى توغلها في الجاهلية المعاصرة، وتأثيرها على كثير من مجاري الفكر ومجاري السلوك، مع عدم استنادها إلى شيء على الإطلاق!

وكما يقول «ول ديورانت» عن الأثير إنه «**خرافة** ابتدعت لإخفاء الجهل المثقف للعلم الحديث، فهو غامض غموض الشبح أو الروح»[1] فالطبيعة الخالقة خرافة

= بما يصلح لها في دينها ودنياها.

(١) ول ديورانت، مباهج الفلسفة، ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، ص ٧٢.

مبتدعة على ذات المستوى، وإن كانت أسبابها أعمق، وآثارها أخطر. فإذا كان الأثير خرافة قد ابتدعت لأسباب «**علمية**»، أي لتفسير أمور غامضة في هذا الكون لم يتوصل العلماء إليها بعد، فافترضوا فرضًا واتخذوه كأنه حقيقة.. فالطبيعة الخالقة خرافة قد ابتدعت لأسباب «**دينية**»! فقد كانت مهربًا وجدانيًّا ـ لا علميًّا ـ من إله الكنيسة الذي تَستعبد الناس باسمه، وتسلب أموالهم، وتقلق راحتهم، وتتعقب أفكارهم، وتتدسس إلى داخل أرواحهم، إلى إله آخر له معظم خصائص الإله الأول: أبديّ أزليّ، خالق، قادر.. ولكن ليست له كنيسة، وليست له على البشر التزامات.. فعُبّاده أحرار لا يتقيدون تجاهه بشيء في أخلاقهم، ولا قيمهم، ولا سلوكهم! وإلى هنا يكون الأمر أقرب إلى الهزل منه إلى الجد.

أما أن تتحول هذه الخرافة المبتدعة لأسباب وجدانية إلى ما يُعتبر «**حقيقة علمية**»، هي التي تقبل من العلماء، وغيرها ـ الذي هو الحقّ ـ يُرفض منهم، فهذه هي العجيبة التي لا يُفسّرها شيء، ولا حتّى الفزع من سلطان الكنيسة المفزع.. فقد كانت الأسباب الرئيسية التي من أجلها رفضت العقلانية التجريبية أن تعترف بوجود الله، أو تعترف بهيمنته على الكون، هي أن الله «**لا تُدرِكه الأبصار**»، وأنه قضية «**غيبية**»، لا تدخل في عالم الحس. **فما الطبيعة الخالقة؟ هل تدركها الأبصار؟** أم إنها **قضية غيبية لا تدخل في عالم الحسّ؟**! إن الذي تدركه الأبصار هو الطبيعة المخلوقة لا الطبيعة الخالقة.. وهذه لا يختلف وضعها سواء آمنّا بالله الحقّ، أم آمنت الجاهلية بإلهها الزائف.. فأي شيء يمكن أن يُفسّر ـ فضلاً عن أن يُبرّر ـ الإيمان بالأسطورة في عهد العلم؟! وبأي حُجّة يحتجّ عصر العلم على أساطير الكنيسة وخرافاتها «**الدينية**»، إذا وقع هذا العصر في أساطير «**الإلحاد**» وخرافاته؟

على أن القضية لا تقف في خطورتها عند هذا الحدّ، وهو خطير في ذاته، إنما تتعداه إلى آثاره الخطيرة في حياة البشرية. فما من «**وهم**» في تاريخ البشرية كان له من الآثار المدمرة مثل ما كان من آثار هذا الوهم الذي اعتنقته الجاهلية المعاصرة لتسند به إلحادها وتحللها وتفسخها.. فقد استندت إليه بادىء ذي بدءٍ لتواجه به طغيان الكنيسة، وتسند به تمرّدها على ذلك السلطان، فإذا به يهوي بها في مهاوٍ من الفساد

الفكري والفساد الخلقي لا يحصيها الحصر. . ونظرة سريعة إلى المجتمع الغربي - **بعد إلحاده بالله، وإعطائه الشرعية للفساد الخلقي والفوضى الجنسية** - كفيلة بأن ترينا كم كان لإنكار وجود الله، ونفي «**الغائية**» عن الخالق البديل، من نتائج خطيرة، ليس أقلّها انتشار الأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة. .

إن الإنسان - بغير الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بأن هناك غاية من خلقه - لابد أن يصل إلى العبثية التي عبر عنها شاعر جاهلي معاصر[1]:

جئـت لا أعلم من أيـن ولكـنـــــي أتيـــت
ولـقـد أبصـرت قدامــي طـريقـــاً فمشيـــت

وتنقلب الحياة بحثًا مجنونًا عن «**المتاع**»، يُؤدي في النهاية إلى الهبوط، ويُؤدي إلى الدمار.

* * *

وحكّمت الجاهلية المعاصرة عقلها في **قضية التشريع**. . بحُجة أن الإنسان قد شبّ عن الطّوق، ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله. وبحجة أن الأمور قد تطوّرت، بينما التشريع السماوي جامد لا يتحرك، ولا يواكب التطور.

وقضية التشريع بالنسبة لأوربا قضية مركبة، تصبّ فيها اعتبارات كثيرة في وقت واحد.

فالواقع أن «**العلمانية**» بمعنى فصل الدين عن الدولة، والتشريع بغير ما أنزل الله، أمر عميق الجذور في التربة الأوربية، لم تعدّله حتى فترة الدين الكنسي المحرف، فقد كان من تحريفات ذلك الدين، التي ارتكبتها الكنيسة ضمن ما ارتكبته من التحريفات، **فصل الدين عن الدولة**، أو **فصل العقيدة عن الشريعة**، وتقديم الدّين عقيدة بلا شريعة، على أساس قول منسوب للسيد المسيح: «أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله!».

أما العلمانية التي أبرزتها الجاهلية المعاصرة وأكدتها فهي **إقصاء كل أثر للتعاليم**

---

(١) هو الشاعر اللبناني المعاصر إيليا أبو ماضي.

الدينية في التشريع، وإقامة التشريع على مبعدة من الدين - إن لم يكن على **عداء صريح مع الدين** - ويبدو ذلك واضحًا في **تحليل الربا، وإباحة الفاحشة**، وعدم اعتبارها جريمة ما دامت برضى الطرفين، بل التوسع في ذلك - حديثًا - إلى حدّ إباحة الفاحشة الشاذة وزنا المحارم . . إلى غير ذلك من ألوان التحدّي الصارخ لأوامر الله.

ويبرز معنى «**الجاهلية**» في هذه القضية من زاويتين اثنتين على الأقل.

الأولى: هي **التمرّد على حقّ الله في التشريع**، المترتب على كونه هو الخالق سبحانه، الذي خلق البشر، وخلق لهم طعامهم وشرابهم وكساءهم والهواء الذي يتنفسونه، وسخّر لهم ما في السمٰوات وما في الأرض جميعًا منه . . وهم لا يملكون شيئًا من ذلك كلّه بغير تمليك الله لهم إياه:

﴿**ألا لهُ الخلقُ والأمر**﴾. (سورة الأعراف، الآية ٥٤).

أي أنه هو صاحب الأمر سبحانه بما أنه هو الخالق. والرزق ذاته هو من خلق الله سبحانه وتعالى:

﴿**يا أيّها الناس اذكرُوا نعمةَ الله عليكم، هل من خالقٍ غيرُ الله يرزُقُكُم مّن السماءِ والأرضِ، لا إله إلا هو فأنّى تُؤْفكون**﴾. (سورة فاطر، الآية ٣).

الثانية: هي **التمرّد على حكمة الله الحكيم الخبير**، الذي خلق الإنسان ويعلم دخائله، ويعلم ما يُصلحه وما يَصلح له، ويُحيط بالزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله، ويعلم ما يمكن أن يُؤدي إليه كل تشريع من التشريعات، لا في الحاضر وحده، ولكن في الزمن المقبل كله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. بينما علم الإنسان قاصر، وأشد علمه قصورًا - كما بيّن «الكسيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» - **هو علمه بنفسه**.

وكان من نتائج التشريع بغير ما أنزل الله في الجاهلية المعاصرة، أن انقسم الناس - كما يحدث في كلّ جاهليات التاريخ - إلى **سادة وعبيد**. سادة **يملكون ويشرعون**، وعبيد **يقع على كاهلهم التشريع**، كما هو الحال في كلّ من المعسكرين المتنازعين: **المعسكر الرأسمالي**، الذي يملك الرأسماليون ناصية الأمر فيه،

ويستعبدون الكادحين ـ على الرغم من مسرحية الديمقراطية الجميلة[1] ـ **والمعسكر الشيوعي** الذي يملك الحزب ـ أو اللجنة المركزية العليا للحزب، أو الأعضاء البارزون في اللجنة المركزية، أو الزعيم الأوحد، أو الاستخبارات ـ ناصية الأمر فيه، ويقع العبء فيه على الكادحين، أو طبقة «البروليتاريا» التي زعمت الشيوعية أنها حطّمت النّظم السائدة كلّها من أجلهم!

كما كان من نتائجه خلط وخبط لا تنتهي آثاره عند حدّ..

كانت **المرأة** في المجتمع الغربي **مظلومة** فأراد قوم إنصافها بما رأت «**عقولهم**» أنه الحقّ والعدل، وكانت النتيجة ما هو معروف من آثار «**تحرير المرأة**» من تفتيت الأسرة، وتشرّد الأطفال، وجنوح الأحداث، وتحول المجتمع إلى ماخور كبير.

وكان **العمال** مظلومين فأراد قوم إنصافهم بما رأت «**عقولهم**» أنه الحقّ والعدل.. وكانت النتيجة كلّ الشرّ الذي اعترف به أخيرًا «جورباتشوف» في نقده للشيوعية!

وهذان مجرد مثلين من أمثلة **التشريع بغير ما أنزل الله**.. وإلاّ فالحياة الغربية ـ في كلا المعسكرين ـ مليئة بالنماذج الصارخة للخلل القائم في حياة الناس، أفرادًا وجماعات، يفسد حياتهم، ويبدد طاقاتهم، ويسلمهم إلى الضياع.

* * *

وحكّمت الجاهلية المعاصرة عقلها في **رسم منهج للحياة**..

والحقّ أنه منهج بالغ الدّقة.. وأنه ملبٍّ للأهداف الرئيسية للحياة الأوربية.. وملبٍّ لها على درجة كبيرة من التمكّن.

والحقّ كذلك أن فيه كثيرًا من «**الفضائل**».

ولكن.. فلننظر إلى «**الأهداف**»، فلعلها هي التي تبين لنا موضع الخلل في «**المنهج**» الذي رسم لتحقيق تلك الأهداف.

يمكن تلخيص الأمر في قوله تعالى: **﴿من كان يُريد الحياة الدُّنيا وزينَتَها﴾**.

(سورة هود، الآية ١٥).

---

(١) انظر ـ إن شئت ـ فصل «الديمقراطية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

فالقـوم قد ورثـوا من كلتا الجاهليتين الإغريقية والرومانية **إرادة الحياة الدنيا وزينتها**، كما أشرنا من قبل، فقد قلنا إنهم ورثوا عن الجاهلية الإغريقية **عبادة الجسد** في صورة جمالٍ حسيٍّ، ومن الجاهلية الرومانية **عبادة الجسد** في صورة شهوات حسية، وتزيين الحياة الدنيا لزيادة الاستمتاع الحسّي بها إلى أقصى الغاية، ومن ثم الاهتمام البالغ بالعمارة المادية للأرض. .

وذلك كلّه شأن من كان يُريد **الحياة الدنيا** وزينتها:

﴿زُيِّنَ للناس حبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطير المقنطرةِ من الذّهب والفضّـةِ والخيـلِ المسوّمةِ والأنعامِ والحرثِ[1] ذلك متاعُ الحياةِ الدّنيا، والله عنده حسن المآب﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٤).

وإذا كانت فترة الدين الكنسي المحرف قد نقلت أوربا ـ فترة من الزمن ـ من **النقيض إلى النقيض**: من الاستغراق في ملذّات الحسّ، والفتنة بالحياة الدنيا، إلى الرهبانية، والزّهد في متاع الأرض كلّه، وإهمال الحياة الدنيا من أجل الآخرة[2]. . فقد نقلهم التمرّد على الدين والكنيسة مرة أخرى من **النقيض إلى النقيض**. . من الرهبانية والزّهد إلى الفتنة بملذات الحياة[3].

عادوا ـ كما يصفون أنفسهم بحقّ ـ إغريقيين رومانيين!

ووضعوا لأنفسهم **«منهج حياة»** يُحقق لهم أهدافهم، مستفيدين بكلّ ما أمدّهم به التقدم العلمي والتكنولوجي الذي أحرزوه في أثناء الطريق.

أرادوا القوّة، فوضعوا لأنفسهم منهجًا يُحقّق لهم القوة في كلّ الميادين، وكان من بين أدواته الاستعمار، الذي ورثوا نزعته من الجاهليتين الإغريقية والرومانية.

---

(١) هذه الأمور مذكورة في الآية لا على سبيل الحصر، وقد جدّت بعد الخيل أشياء أخرى أشارت إليها آية سورة النحل في قوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون﴾. (سورة النحل: الآية ٨).

(٢) لا ينفي هذا وجود أغنياء مترفين غارقين في المتاع.

(٣) لا ينفي هذا وجود زاهدين في المتاع.

ولم يكن الاستعمار شيئاً عارضًا في حياة الجاهلية المعاصرة، ولا شيئًا خارجًا عن خطها الأصيل ـ كما يعتذر عنه الذين استعبدت أرواحهم للغرب ـ إنما كان **وسيلة مشروعة** عندها من وسائل القوة، موروثة ـ هي والنظر إليها على أنها أداة شرعية ـ من الجاهلية الإغريقية الرومانية التي كانت تجد لذتها في التوسع واستعباد الآخرين.

وبصرف النظر ـ مؤقتًا ـ عن **الروح الصليبية** التي كانت من أكبر دوافع الاستعمار الحديث[1]، فإن الفظائع التي ارتكبت في هذا الاستعمار الوحشي، كانت مبررة تمامًا عند أصحابها، على أنها «**حقّ**» من حقوق الأقوياء الذين يسعون إلى تمكين قوتهم وترسيخها، و«**عقاب مشروع**» على جريمة المقاومة لهذا الحقّ المشروع!

ولو أن الساسة وحدهم هم الذين برّروا هذه الجرائم ـ أو في القليل غطّوا عليها ـ أو لو أن العسكريين وحدهم هم الذين قاموا بذلك، لقلنا: «شنشنة نعرفها من أخزم»، كما قال العرب في أمثالهم، بمعنى أن الشيء من معدنه لا يُستغرب! ولكنا إذا راجعنا الكتّاب والأدباء والمفكرين والفلاسفة ودُعاة الحرية ودُعاة الإنسانية.. الخ.. الخ.. ونظرنا في الجهد الذي بذلوه لوقف المجازر الوحشية التي صاحبت ذلك الاستعمار ـ وقد كانوا يملكون وقفها لو جندوا أنفسهم لوقفها ـ لو نظرنا في ذلك الجهد لعرفنا **كم مرّ الأمر سهلاً على «ضمير» أوربا.. وما يزال!**

وقد استخدموا ـ بطبيعة الحال ـ وسائل نافعة، بل وسائل فاضلة في بعض الأحيان، لتحقيق القوة التي أرادوها.

استخدموا التعليم.

ووضعوا مناهج تعليمية **مدروسة**، بذلت في دراستها عناية ملحوظة، وجُرّبت، وأجريت الملاحظات عليها في أثناء التجربة، وعدّلت أخطاؤها، واستكمل نقصها، للوصول بها إلى أقصى طاقتها الإنتاجية. ورُوعي في هذه المناهج تخريج قوم عمليين، ومنتجين، ولديهم القدرة على الابتكار، والقدرة على الاختراع. عُوِّدُوا من صغرهم على القراءة والاطلاع، ورؤية الموضوع الواحد من أكثر من زاوية، وبأكثر من طريقة،

---

(١) سنتحدث عن الروح الصليبية فيما بعد.

فلا ينحصر ذهنهم في الاستظهار والحفظ، ولا ينحصر في رؤية واحدة معينة مفروضة تعيق الذّهن عن رؤية صور أخرى.. وعُوِّدُوا على تجربة ما يمكن تجربته من المعلومات، فنشأوا **واقعيين تجريبيين**، وفي الوقت ذاته **مدربين ذوي خبرة**، وذوي استعدادات عملية، مستعدة لبذل الجهد، راغبة في الإنتاج[1].

ووضعوا مناهج تربوية **مدروسة**، تُعوِّد الصّغار على كثير من الفضائل التي يحتاجون إليها وهم كبار.

تعوّدهم على النظام والانضباط..

وتعوّدهم على المثابرة والجَلَد..

وتعوّدهم على الاعتماد على النفس وتحمل المسئولية.

وتعوّدهم على النشاط في الحركة.

وتعوّدهم على الجرأة في مواجهة المواقف.

وتعوّدهم على الصدق والأمانة.

وتعوّدهم على السلوك المهذب مع الآخرين.

وكلّها كما ترى «**فضائل**» نافعة، وكلّها من أدوات التمكين والقوة اللازمة للشعوب التي ترغب في التمكين في الأرض.

واستخدموا **العلم**.. ويسّروا به كثيرًا من مشقات الحياة، إذ حمّلوا الآلة ما كان يحمل الإنسان من قبل من الكدّ، وصارت الآلة تقوم بأضعاف ما كان يقوم به الإنسان من الانتاج من قبل، وفي زمن لا يُقاس في قصره بالنسبة لما كان يقضيه الإنسان من قبل. كما استخدموه في حلّ مشكلاتهم، فدرسوها بطريقة علمية منظمة، ووضعوا لها حلولاً مبنية على أسس علمية.

---

(١) لاحظ كيف كان هذا من سمات الحياة الإسلامية حين كان المسلمون متمسكين حقًّا بالإسلام، وشاعرين بأن لهم رسالة يؤدونها. وقد وجدت أوربا ذلك كله في الحضارة الأندلسية حين احتكت بالمسلمين هناك، وأخذت عنهم المنهج التجريبي في البحث العلمي، كما أخذت عنهم روح البحث الحر في الجامعات الإسلامية.

واستخدموا - باختصار - أنظمة **سياسية واقتصادية واجتماعية تُحقق** للإنسان كثيرًا من ضروريّات حياته، وقدرًا من تحقيق الذات (في النظم الليبرالية على الأقل، وإن كانت النظم الاشتراكية تزعم أنها هي التي تعمل على تحقيق الذات!).

وإلى هنا ينتهي «**المنهج**» .. ينتهي عند تحقيق التمكين في الأرض.. في الحياة الدنيا.. ولا يلتفت إلى شيءٍ وراء ذلك!

كلّا! بل إنه لا ينتهي هنا! فما زالت في الأهداف المراد تحقيقها بقية، تحتاج إلى ما يقابلها في المنهج.

إن الحياة الدنيا ليست قوة وتمكينًا فقط.. **إنما هي كذلك متاع!**

وقد ورثت الجاهلية المعاصرة من أصولها الإغريقية الرومانية - والرومانية خاصة - حبّ المتاع، والمتاع الجسدي خاصة. إذن ينبغي أن يكون في «**المنهج**» ما يُقابل هذا «**الهدف**» الأساسي الأصيل.

ويدخل في هذا «المنهج» «برامج» متعددة.

تدخل **وسائل الإعلام، ووسائل الترفيه، ووسائل «اللهو»، والحرية الجنسية. و«تحرير المرأة»، والنظريات (والتطبيقات) التي تُحارب «الكبت»! كما يدخل بصفة أساسية محاربة الدّين والأخلاق والتقاليد!**

إن ما نسميه نحن بـ«**الفساد الخلقي**» أو بـ«**الفوضى الجنسية**» أو «**التحلل**» أو ما شابه ذلك من العبارات، ليس أمرًا عارضًا في حياة الجاهلية المعاصرة، ولا شيئًا خارجًا عن خطّها الأصيل - كما يعتذر عنه الذين استعبدت أرواحهم للغرب - إنما هو خط أصيل فيها، يُحقّق هدفًا أصيلًا من أهدافها.. وقد كان موجودًا في الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية[1] كلتيهما، وكان من الأسباب التي أدت بكلتيهما إلى الدمار. وإنما احتاج الأمر إلى فترة من الوقت، وإلى «**جهود**» تبذل لإزالة ما علق في النفس الأوربية من آثار الفترة المسيحية التي امتدت عدّة قُرون، تسميها أوربا قرونها الوسطى المظلمة[2].

(١) سنتكلم فيها بعد عن الذين بذلوا الجهود لإفساد أوربا، والعالم كله من ورائها.

(٢) هي مظلمة حقًّا بالنسبة لأوربا ولكن لا بسبب الدين في ذاته كما يزعمون، بل بسبب الدين الكنسي المحرف.

وقد يبدو للعين السطحية النظرة أن ما هو موجود اليوم خاص بهذه الجاهلية - أو كما يسمونها هم: هذه «**الحضارة**» - ولكن الأمر ليس كذلك لمن يراجع التاريخ.. حقيقة إن «**الوسائل**» قد تغيرت. فلم يكن عند الإغريق والرومان سينما ولا تلفزيون ولا فيديو، ولا وسائل إفساد جماعية كالموجودة اليوم. ولكن من السذاجة المُفْرِطة أن يكون حكمنا مرتبطًا بالوسائل - التي من شأنها أن تتغير من عصر إلى عصر - إنما يجب أن يكون الحكم مرتبطًا بالأهداف والأفكار والمبادىء أكثر من ارتباطه بالوسائل، لأنها هي التي تتشابه فيها الجاهليات عبر التاريخ، والتي تتشابه فيها «**القلوب**»، كما جاء في القرآن الحكيم: ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾ (سورة البقرة، الاية ١١٨). وإن اختلفت الأجناس واللغات والأمكنة والأزمان.

إن المتاع محبب للإنسان، والعبارة القرآنية الحكيمة تُؤكد هذه الحقيقة: ﴿**زُيِّنَ للناس حبُّ الشّهوات**﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٤). فليس المزين للناس - في الآية القرآنية - هو الشهوات. إنما هو «**حبُّ الشهوات**». وهو تعبير دقيق عن مدى توغل الشهوات في النفس الإنسانية. وكلّ زيادة في المبنى تدلّ على زيادة في المعنى كما يقول البلاغيون. ومن ثمّ فإن تَزْيين «**حبّ الشهوات**» آكد في بيان عمق الشهوات في النفس من تِزيين الشهوات ذاتها، وأدلّ على أن النفس مفطورة على حبّ المتاع. ولحكمة ربانية أراد الله ذلك. ولكنه سبحانه وتعالى أمر الناس أن يضبطوا منطلق الشهوات[1]، وأعطاهم الأداة المعينة على الضبط، والتوجيهات التي تجعله ميسرًا على أصحابه، وفي مقدمة ذلك **الإيمان بالله واليوم الآخر، والتوجه إلى القيم العُليا، والجهاد في سبيلها**.

فحين لا يُؤمن الإنسان باليوم الآخر، تُصبح الحياة في حسّه فرصة واحدة إن ذهبت لا تعود، وهي فرصة محدودة بحدود العمر البشري، بل بحدود الصّحة والقوة والاستطاعة من ذلك العمر، وهي من ثم فرصة قصيرة قصيرة لا تُشْبِع! فيكون هَمُّ

---

(١) الضبط غير الكبت. راجع إن شئت فصل «فرويد» في كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام».

الإنسان في تلك الحالة أن ينكب على المتاع بكل طاقته، ليعب منه ما يستطيع قبل الفوات! **ويكون كذلك كارهًا لكلّ الضوابط ـ أو المشاغل ـ التي تحدّ من ذلك المتاع!**

وليس كذلـك من يؤمن بالله واليوم الآخـر. فالأمـر في حسّـه مختلف. إنـه يستمتع، نعم! ولكن في غير لهفة على المتاع، لأنه يؤمن أن ما يفوته من المتاع في الحياة الـدنيا نتيجة تقيده **بالضوابط الربانية**، أو بأي سبب **كالجهاد في سبيل الله**، ليس ضائعًا، وليس ذاهبًا بلا عودة. بل هو محفوظ له عند الله أولاً، ثم هو معوض عنه ثانيًا بنعيم لا ينفد، في الجنة التي «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1].

ومن ثم «**يضبط**» شهواته، دون أن تتلف نفسه من عملية الضبط.

ثم إنه مشغول بقيم عليا، وجهاد في سبيل هذه القيم، يصرفه عن التعلق بهذه الشهوات حتى تصبح همه المقعد المقيم: ﴿**زُيّن للناس حبُّ الشهوات من النساءِ والبنـينَ والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المُسوّمةِ والأنعامِ والحرثِ، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. قل أؤُنبئكم بخير مّن ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطهرةٌ ورضوانٌ من الله والله بصير بالعباد. الذين يقولون ربَّنا إننا آمنَّا فاغفر لنا ذُنوبنا وقنا عذاب النـار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار**﴾. (سورة آل عمران، الآيات ١٤ ـ ١٧).

﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدُلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذاب أليمٍ. تُؤْمنونَ بالله ورسولِه وتُجاهدون في سبيل الله بأموالِكم وأنفسِكم، ذلكم خيرٌ لّكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبَكم، ويدخِلْكُم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً في جنات عدنٍ، ذلك الفوز العظيم**﴾. (سورة الصف، الايات ١٠ ـ ١٢).

وهـذه نقـطة اختـلاف جوهرية بين «**المنهج الرباني**»، و«المنهج» الذي تختاره الجاهليات ـ كل الجاهليات ـ بما في ذلك الجاهلية المعاصرة.. ومحورها هو الإيمان ـ أو عدم الإيمان ـ بالله واليوم الآخر.

(١) متفق عليه.

وهنا نأتي إلى ميراث من أخطر ما ورثته الجاهلية المعاصرة من الجاهلية الإغريقية بالذات.

إنه الميراث الذي **يُصوّر العلاقة بين البشر وبين «الآلهة»**[1] **علاقة صراع دائم لا يكفّ لحظة**: الآلهة تريد أن تدمر الإنسان، لأنه يُريد أن يُشاركها في ألوهيتها، وهي تُريد أن تتفرد وحدها بالألوهية، والبشر دائمو التمرّد على الآلهة لأنهم يريدون أن يثبتوا ذواتهم، ولا سبيل لهم إلى إثبات ذواتهم إلا بالتمرّد والعصيان!

ولعل أسطورة «بروميثيوس» سارق النار المقدسة هي أوضح تمثيل لهذا المعنى.

تقول الأسطورة - التي تشتمل على بعض الحقائق مشوهة تشويهًا أسطوريًّا، إلى جانب بعض التصورات الجاهلية الوثنية الخاطئة - إن «زيوس» إلـه الآلهة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض، وسواه على النار المقدسة، (**التي ترمز في الأسطورة إلى المعرفة**)، ثم أهبطه إلى الأرض وحده في ظلام دامس، (**يرمز في الأسطورة إلى الجهل**)، فأشفق عليه كائن أسطوري يُسمى «بروميثيوس»، (**قد يكون رمزًا للشيطان والله أعلم**) فسرق له النار المقدسة من الإلـه زيوس وأعطاها له (**رمزًا لبدء تعلم الإنسان**)، فغضب الإلـه من هذا الأمر غضبًا شديدًا، لأن الإنسان قد اكتسب صفة من صفات الإلـه (**وهي العلم**)؛ فصب جام غضبه على الإنسان؛ (**المسمى في الأسطورة «إيبيمثيوس»**)، وعلى «بروميثيوس» معًا، فأما «بروميثيوس» فقد وكل به نسرًا يرعى كبده طوال النهار، وتنبت له كبد جديدة في الليل، فيأتي النسر في النهار ليأكلها من جديد، وهكذا في عذاب أبدي!! أما الإنسان «إيبيمثيوس» فقد أرسل إليه امرأة (**تُسمى في الأسطورة باندورا، وترمز إلى حواء**)، لكي تُؤنسه (في ظاهر الأمر). وأرسل معها هدية صندوقًا مغلقًا، فلما فتحه إذا هو مملوء بالشرور، فتناثرت الشرور من الصندوق وملأت سطح الأرض!

وليس الذي يهمنا من الأسطورة في هذا المقام هو علاقة الكراهية المتبادلة بين

---

(١) في كل الجاهليات الوثنية تتعدد الآلهة كما هو معلوم، ولكن يظل الفرق قائمًا بين الألوهية من جهة، والبشرية من جهة أخرى.

الإنسان وخالقه فحسب - وإن كانت هذه مصيبة من مصائب التصور الجاهلي الإغريقي، لا أظن لها مثيلاً في أساطير الوثنيات الأخرى - إنما هو كذلك شعور «الإنسان» في هذه الأسطورة أنه لا يُحقّق ذاته إلا بمعصية الإله!

كلا الأمرين يخرّب المشاعر الإنسانية..

حقيقة إن التصور الإسلامي يُقرّر أن الإنسان خلق للابتلاء:

﴿**إنّا خلقنا الإنسان من نُطفةٍ أمشاجٍ نّبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا**﴾. (سورة الإنسان، الآية ٢)

ولكن الابتلاء أولاً ليس بالشرّ وحده:

﴿**ونبلوكُم بالشّرّ والخير فتنةً**﴾. (سورة الأنبياء، الآية ٣٥).

والابتلاء ثانيًا انتقامًا إلهيًا يوقعه الخالق بالإنسان الذي خلقه، إنما هو اختبار له، **بعد أن أنعم عليه بشتّى النّعم**، التي تشمل العلم فيما تشمل، هبة ربانية من الله للإنسان.. اختبار له بعد كل النّعم التي أنعم عليه بها: هل يشكر النعمة - بطاعة الله - أم يكفرها بعصيانه؟

ثم إن الحياة الدنيا **ليست نهاية المطاف**، ولا هي أهم مرحلة في حياة الإنسان، إنما هي فقط مرحلة الاختبار من حياته، فإذا اجتاز الاختبار بنجاح - بطاعة الله - فإن له جزاء من النعيم الخالد يجلّ عن الوصف.

فلا كراهية إذن من الخالق للإنسان الذي خلقه وأنعم عليه، ولا كراهية من الإنسان السوي لخالقه، بل شكر للنعمة وإخبات، وتقرب وطاعة لله.

ومن ناحية أخرى فإن الله يدمر على الإنسان الكافر الذي يدعي الألوهية، أو يدعي لنفسه خصيصة من خصائصها، هذا حقّ. ولكن **هل مجرد سعي الإنسان لتحقيق ذاته هو الذي يستوجب غضب الله عليه وتدميره**؟ أليس الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقه ليكون خليفة في الأرض؟

﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾. (سورة البقرة، الآية ٣٠).

أوليس الله سبحانه وتعالى هو الذي سخر له ما في السماوات والأرض؟

﴿**وسخّر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض جميعًا منه**﴾. (سورة الجاثية، الآية ١٣).

أوليس الله هو الذي أتاح له عمارة الأرض؟

﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ . (سورة هود، الآية ٦١).

أوليس الله هو الذي منحه الأدوات المعينة له لعمارة الأرض؟

﴿**ألم نجعل له عينين . ولسانًا وشفتين . وهديناه النجدين**﴾ . (سورة البلد، الآيات ٨ ـ ١٠).

﴿**وعلَّم آدم الأسماءَ كلّها**﴾ . (سورة البقرة، الآية ٣١).

﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**﴾ . (سورة تبارك، الآية ٢٣).

﴿**خلق الإنسان . علمه البيان**﴾ . (سورة الرحمن، الآيتان ٣، ٤).

﴿**إقرأ وربُّك الأكرمُ . الّذي علّم بالقلم . علّم الإنسان مالم يعلم**﴾ . (سورة العلق، الآيات ٣ ـ ٥).

فالله هو الذي قدّر للإنسان أن يكون ذا قُوّة وذا فاعلية، وذا نزعة فطرية لتحقيق ذاته من خلال قوته وفاعليته، ولا يغضب الله عليه حين يُمارس هذه القُوة وهذه الفاعلية في الحدود التي رسمها له، وهي الحدود التي يعلم اللطيف الخبير أنها تُصلح الحياة الدنيا وتمنع عنها الفساد.

إنما يغضب عليه فقط حين **يتمرّد على الله**، ويعصيه عامدًا ليجعل نفسه ـ أو غيره ـ ندًّا لله، فَيُخالف بذلك إرادة الله، ويُخالف الحقّ كذلك، إذ أنه لا ندّ لله في الحقيقة ولا شريك، فمن اتخذ له ندًّا أو شريكًا فقد كذب على الحقّ واتبع الباطل، فاستحق غضب الله.

ولكن العجيب في الأسطورة أنها تجعل هذا السلوك المتمرّد ـ **وحده** ـ هو وسيلة تحقيق الإنسان لذاته، فإذا غضب الله عليه من أجل ذلك قالت الأسطورة: انظروا! ها هوذا الإله ينتقم من الإنسان، لأن الإنسان أراد أن يُحقق ذاته!!

إنه تصوّر مريض. لا ندرك له سببًا ظاهرًا، وليس بين أيدينا من الدراسات في تاريخ تلك الجاهلية ما يُفسّر لنا هذا الانحراف العجيب، اللهم إلا شيئًا واحدًا **نقوله من باب الحدس، لا من باب اليقين ولا حتى الترجيح**: إن الطفل في سن معينة، حين يبدأ يحسّ بذاته، يحب أن يُثبت ذاته بالاعتماد على نفسه ورفض العون

الذي يُقدّمه له الكبار! فإذا مددت إليه يدك مثلاً لتعينه على السير في الطريق المزدحم ـ خوفاً منك عليه ـ سحب يده من يدك ومشى وحده، لِيُثبت لك أنه شبّ عن الطوق، واستطاع الاعتماد على نفسه! هذا يقع من الطفل السويّ، أما الطفل المنحرف فهو يعصى أوامرك عنادًا منه، لِيُثبت لنفسه ولك أنه يستطيع أن يقول لا!

فإذا كانت هذه الحقائق السلوكية تُلقى بعض الضوء على القضية، فهي تُوحي بشيئين معًا بالنسبة للجاهلية الإغريقية: الأول أنها كانت طفلة من الوجهة النفسية، على الرغم من كلّ نُضجها الفكري، والثاني أنها كانت مريضة منحرفة، على الرغم من كل «حكمتها» الفلسفية[1].

وأيًّا كان الأمر بالنسبة للجاهلية الإغريقية، فإن بعثها من جديد على يد الجاهلية المعاصرة يعدُّ **أشدّ انحرافًا وأشدّ** مرضًا، حيث لا عذر فيه من «الطفولة» التي يمكن أن توصف بها الجاهلية الإغريقية، وخاصة من قوم يزعمون أنهم في قمة الرقي البشري .. وقمة النضوج.

لقد ظلت الأسطورة ـ بإيحاءاتها المسمومة ـ كامنة تحت القشرة المسيحية طيلة عصور أوربا الوسطى «**المظلمة**»، وكان المفروض أن يكون «**الدِّين**» قد قضى عليها، وخاصة ذلك الدين الذي يصل إلى حدّ الرهبانية تبتلاً إلى الله، ويصل إلى حدّ إنكار الإنسان لذاته، ولوجوده الإنساني كلّه، تعظيمًا لله وتبجيلاً له. ولكن صدق الله إذ يقول:

﴿ورهبانيّةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم، إلاّ ابتغاء رضوانِ الله، فما رَعَوْهَا حقّ رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد، الآية٢٧).

وكأنما كان ردّ الفعل لتلك الرهبانية الكابتة للوجود الإنساني هو العودة ـ المريضة ـ إلى تلك الأسطورة المنحرفة، التي تزعم أن إثبات الإنسان لذاته لا يكون إلا بمعصية الله!

(١) «الفلسفة» ـ باللغة الإغريقية ـ تعني اتباع الحكمة.

وربما كان طغيان الكنيسة كذلك سببًا من أسباب هذه العودة المريضة . **فالله** في حسّ النّصارى متلبس بعيسى ابن مريم عليه السلام، والبابا متلبس بعيسى ابن مريم من خلال بطرس، كما قال البابا : «نقولا الأول» في بيانه الذي أعلنه على الناس :

«إن ابن الإنسان أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما وَرِثُوا سلطان بطرس في تسلسل مستمر متصل، ولذلك فإن البابا **ممثل الله على الأرض** يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين، حكامًا كانوا أو محكومين»[1].

ومن خلال هذه السيادة طغت الكنيسة طغيانها البشع ، الذي نفّرت فيه الناس في النهاية من الدّين، فرفضوا الخضوع لسلطان البابا، المتلبس في حسّهم بسلطان الله جلّ جلاله (أو بسلطان المسيح الذي ألّهوه وعبدوه)، **وأصبح التمرّد على ذلك السلطان الإلهي هو طريقهم لإثبات الذات!** واستيقظت بذلك الأسطورة الكامنة في حسّهم، التي لم تقض عليها فترة التدين الطويلة، إنما كانت كامنة في ظلمات نفوسهم تنتظر ما يُوقظها!

يقول «جوليان هكسلي» في كتابه «الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World» ما خلاصته : إن أسطورة بروميثيوس ما تزال تعيش في الحسّ الأوربي وتُؤثر على سلوك الناس . والأوربي المعاصر هو «بروميثيوس الحديث» المتمرّد على سلطان الله . لقد خضع الإنسان لله في الماضي بسبب عجزه وجهله، والآن، وقد تعلّم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله ، **ومن ثمّ يُصبح هو الله!**

نستعيذ بالله . .

إن هذه العقدة - أو سَمِّها ما شئت من الأسماء - هي التي تشكل «المنهج» كلّه لدى الجاهلية المعاصرة!!

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة ج ١٤ ص ٣٥٢ من الترجمة العربية .

إن الأوربي يسعى لعمارة الأرض **نعم**، ويتخذ لذلك كل الوسائل التي يراها مُوَصّلة لتحقيق أهدافه، وكثير منها مُوصّل للهدف بالفعل، **ولكن** القضية ليست عمارة الأرض في ذاتها. إنما هي قضية «**المنهج**» **الذي تتم على أساسه عمارة الأرض**.. أهو المنهج الرباني الذي يحقق الفلاح في الدنيا والآخرة؟ أم هو منهج غير الله؟! وحين يكون منهج غير الله فهو منهج الشيطان!! منهج «بروميثيوس»: ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألّا تَعْبُدوا الشيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين. وأن اعبدُوني هذا صراطٌ مُّستقيم**﴾. (سورة يسٓ، الآيتان ٦٠، ٦١).

وهـذا المنهـج - منهج «بروميثيوس» - يُحقّق جوانب من النفع، وجوانب من الخير، ولكنه إلى جانب ذلك يُحقق كثيرًا من الشرّ، ويُؤدي في النهاية إلى الدمار..

لقد مكّن هذا المنهج لأوربا في الأرض، وأعطاها قُوة فائقة في ميادين متعددة: العلم والتكنولوجيا والعمارة المادية للأرض وتيسيرات شتى في حياة الإنسان.. ولكنه في الـوقت ذاته - **لانحراف القاعدة التي يقوم عليها** - قد أدى إلى الفساد الخلقي الذّريع الذي تبدو آثاره واضحة في المجتمع الغربي، والذي يهبط بالإنسان في حمأة الشهوات إلى دَرْك أضلّ من الحيوان: ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ، أُولئكَ هم الغافلون**﴾. (سورة الأعراف، الآية ١٧٩).

وأدى إلى الصراع المـدمّـر بين الـدول التي تملك القوة، **ولا تملك الضوابط «الإنسانية» لاستخدام القوة**. ويكفي من أمر هذا الصراع حربان عالميتان في ربع قرن، والتهديد المستمر بالحرب الثالثة التي يمكن أن تدمّر وجه الأرض.

وأدى إلى **الاستعمار الوحشي**، الذي يُلغي كلّ كرامة للضعيف الذي لا يملك وسائل القوة، ذلك الاستعمار الذي يقع في قبضته ما يُسمى بالعالم الثالث، وهو أكثر من نصف الأرض. لأن القانون السائد في الجاهلية هو قانون الغاب: القوّة هي الحقّ Might is Right والقـوي يأكـل الضعيف. والبقـاء «للأصلح» في عرفهم تعني البقاء «لـلأقـوى»، مهـما يكن ما ينطوي عليه من الشرّ، وهو معنى مستمد من التفسير الحيواني للإنسان.

وأدى إلى إفساد الفطرة البشرية بصرفها عن تَوَجّهها الفطري إلى عبادة الله.

﴿فطرةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها، لا تبديلَ لخلق الله، ذلك الدّينُ القيمُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. (سورة الروم، الآية ٣٠).

ثم أفسد فطرة الرجل وفطرة المرأة كليهما بقضية المساواة، فرَجَّلَ المرأة، ونفّرها من وظيفتها الفطرية، من البيت والأسرة ورعاية النشء، كما نفّرها من قِوَامة الرّجل التي لا يستقيم بدونها حال الأسرة، فتفككت الأسرة، وتشرّد الأطفال، وجنح الأحداث، وانتشر الشذوذ الذي أفسد فطرة الرجل فقتل رجولته، أو صرفها عن ميلها الفطري.. وذلك كلّه إلى جانب الخمر والمخدرات والجريمة، والقلق والانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية.

هذا ولم نتحدث بعد عن **التأثير اليهودي في الجاهلية المعاصرة**، الذي عمّق فيها كلّ معاني الشرّ، وأفسح له المجال في شتى الميادين، فقد أرجأناه إلى فصل مستقل.

وهكذا نصل مع الجاهلية المعاصرة إلى خلاصتها التي بدأنا بها الحديث عنها:

تقدّم هائل في العلوم المادية والتكنولوجيا والعمارة المادية للأرض، وانتكاسة هائلة في الجانب الروحي والقيم المعنوية اللازمة لحياة الإنسان.

رابعا: السنن الربانية التي تحكم أوضاع الجاهلية المعاصرة

يظن «بروميثيوس» الحديث ـ الذي تكلّم عنه جوليان هكسلي، وقال إنه يُمثل الأوربي المعاصر ـ أنه قد تحدّى الله جلّ جلاله، ونجح في تحديه[1]! ومن جهة أخرى يعجب بعض الناس كيف تمكنت أوربا كلّ هذا التّمكين وهي كافرة. ويتساءلون: **أين إذن سنن الله التي توعدت الكفّار بالمحق والتدمير؟!**

والحقيقة أن أحوال الجاهلية المعاصرة وأوضاعها كلّها مذكورة في السنن الربانية الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. بل يعجب الإنسان حين يتلو الآيات كيف انطبقت بحذافيرها على أوضاع الجاهلية المعاصرة كأنما أنزلت بشأنها، مع أنها نزلت قبل أربعة عشر قرنًا.. ذلك أن الجاهليات كلّها متشابهة في جوهرها، وإن اختلفت في تفصيلاتها، وكان لكلٍّ منها خصائصها التي تشكّلها ظروف الزمان والمكان، والسنن الربانية متعلقة بالجوهر وليست متعلقة بالأشكال.

ولكي نفهم أوضاع الجاهلية المعاصرة على ضوء السنن الربانية علينا أن نتدبر مجموع السنن الواردة في الآيات التالية، ذلك أن السنن الربانية لا تعمل في الغالب فرادى، إنما تعمل مجتمعة، وخاصّة في حياة المجتمعات والشّعوب:

١ ـ **﴿وقلنا اهبطُوا بَعْضُكم لبعضٍ عدوٌّ، ولكم في الأرضِ مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين﴾**. (سورة البقرة، الآية ٣٦).

٢ ـ **﴿كُلًّا نُمِدُّ، هؤلاءِ وهؤلاءِ من عطاءِ ربّك، وما كان عطاءُ ربّك محظورًا﴾**. (سورة الإسراء، الآية ٢٠).

٣ ـ **﴿من كان يُريد الحياةَ الدنيَا وزينتَها، نوفِّ إليهم أعمالَهُم فيها، وهم فيها لا يُبْخَسُونَ﴾**. (سورة هود، الآية ١٥).

٤ ـ **﴿فلمّا نَسوُا ما ذُكِّرُوا به فتحنَا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ، حتَّى إذا فَرحُوا بما أُوتوا**

---

(١) مما يثير السخرية أن الصاروخ الذي كان يحمل اسم المتحدّي Challenger قد انفجر بعد ثوان من إطلاقه وقتل كل من كان فيه من البشر.

أخذناهم بغتةً فإذا هم مُّبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا والحمد لله ربِّ العالمين﴾. (سورة الأنعام، الآيتان ٤٤، ٤٥).

٥ - **﴿وكأيِّن من قرية أمْلَيْتُ لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير﴾**. (سورة الحج، الآية ٤٨).

٦ - **﴿ولا يزال الذين كفروا تُصيبهم بما صنعُوا قارعةً أو تحلّ قريبًا من دارِهم حتّى يأتِيَ وعدُ الله، إنّ الله لا يُخلف الميعادَ﴾**. (سورة الرعد، الآية ٣١).

إذا تدبرنا هذه الآيات وهذه السنن تتبين لنا مجموعة من الحقائق حول الجاهلية المعاصرة.

فقدر الله للإنسان أن ينال في الأرض مستقرًّا ومتاعًا إلى حين، هو قدر عام شامل للإنسان كلّه، مؤمنه وكافره، غير متعلّق بالكفر ولا بالإيمان، وإنما متعلّقٌ بنوع الإنسان.

يُؤيد هذا قوله تعالى عن الفريقين اللذين قدّر الله أن ينقسم إليهما البشر نتيجة الحريّة التي وهبها الله للإنسان، وعدم قهره على الهدى كبقية الكائنات: **﴿كُلًّا نُّمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ من عطاءِ ربّك وما كان عطاءُ ربّك محظورًا﴾**. (سورة الإسراء، الآية ٢٠). فعطاء الله ـ من حيث المبدأ ـ مبذول للفريقين: **المؤمنين والكفار**، غير محظور على واحد منهما. والعطاء شامل غير محدّد، فهو يشمل كل ما وهبه الله للإنسان من هواء يتنفسه، وماء يشربه، وطعام يأكله، وخَلْقٍ في أحسن تقويم، وأدوات معينة على مهمة الخلافة في الأرض، وتسخير لما في السمـٰوات والأرض لصالح الإنسان لكي تكون حياته على الأرض ممكنة ومستقرّة ومحتوية على قدر من المتاع..

والتمكين في الأرض لون من ألوان الاستقرار والمتاع الذي وهبه الله للإنسان عامة، وجزء من العطاء الذي تُقرّر الآية الكريمة أنه مبذول لهؤلاء وهؤلاء.. أي للمؤمنين والكفار.

بل إن إحدى الآيات التي استشهدنا بها تُقرّر حقيقة تبدو عجيبة لأول وهلة، لأنها تبدو في الظاهر **مناقضة لما نتصوره نحن** ـ دون تعمق ـ **من أمر السنن الربانية التي يجريها الله في حياة البشر**، إذ تقرر هذه الآية أن الكُفّار حين نَسُوا ما ذُكِّرُوا به ـ

أي نَسُوا ما نُزّل عليهم من الوحي على يد الأنبياء والرسل - فتح الله عليهم أبواب كلّ شيء، ومكّن لهم في الأرض!

﴿فلمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ..﴾. (سورة الأنعام، الآية ٤٤).

نتصور لأول وهلة أن هذا مناقض لوعيد الله للكفار بالتدمير عليهم، ووعده - على العكس من ذلك - بمنح التمكين للمؤمنين الذين يعبدون الله حق عبادته ولا يُشركون به: **﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا منكُم وعملوا الصالحات لَيَستخْلِفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ولَيُبدّلَنَّهم من بعد خوفهم أمنًا، يَعْبدونني لا يُشركون بي شيئًا﴾**. (سورة النور، الآية ٥٥).

ولكن هذا التناقض الظاهري - في تصورنا - يزول حين نُنْعِم النّظر في الآيات، ونزداد تعرفًا على السنن الربانية.

إن الله جلّ وعلا لم يحظر العطاء الدنيوي على الكفار ابتداء، بل بذله - كما رأينا - لكلا الفريقين الكافر والمؤمن سواء، ومن العطاء **التمكين في الأرض** كما سبق القول. وبيان ذلك أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فهو يُعطي منها الكافر، لهوانها عليه سبحانه وتعالى، أما الآخرة فيدخرها للمؤْمنين وحدهم.

يقول صلى الله عليه وسلم: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سَقَى الكافرَ منها شَرْبَةَ ماءٍ**»[1].

ويقول صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يُعطي الدنيا لمن أحبّ ومن لم يُحبّ، ولكنه لا يُعطي الآخرة إلاّ لمن أحبَّ**»[2].

وإلى هنا يزول جزء من العجب الذي يعترينا لأول وهلة، حين نرى الله يبذل للكفار من عطائه، ويفتح عليهم «**أبواب كلِّ شيءٍ**» وهم كفار.

لقد كان السبب في عجبنا هو نظرتنا إلى الدنيا، وإلى التمكين فيها، بعين الإكبار والإعظام، **كأنها غاية الغايات** التي خلق الإنسان لتحصيلها.. فإذا علمنا

(١) صححه الترمذي والحاكم.

(٢) رواه أحمد ١/٣٨٧.

هوانها على الله، وأنها لا تُساوي عَنده جَنَاحَ بَعُوضَة، تطامن إكبارنا وإعظامنا لها، وزال عجبنا ـ أو جزء من عجبنا على الأقلّ ـ من كون الله يفتح أبوابها للكافرين المعاندين الخارجين على طاعة الله.

ثم يزول ما بقي من عجبنا حين نعلم أمرين آخرين يجري بهما قدر الله وسنته، ووعده ووعيده.

الأمر الأول أن من سننه الجارية سبحانه وتعالى أن يملي للكفار في الأرض قبل أن يدمر عليهم. ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة، ثم أخذتها، وإليّ المصير﴾. (سورة الحج، الآية ٤٨).

﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾. (سورة الرعد، الآية ٣٢).

وظاهر من هذه الآيات وأمثالها في القرآن أن الإملاء يجيء «**بالفاء**» والأخذ يأتي مع «**ثم**» أي أن الإملاء يأتي مباشرة بعد التكذيب، وأما الأخذ فيأتي على المدى، بما يشير إلى أن الإملاء **قد يطول** مع الكفر والتكذيب!

فإذا فهمنا أن من معاني الإملاء للكفار **التمكين لهم في الأرض** (إذ أن التكذيب يصدر عادة من الطغاة الممكنين في الأرض، وبسبب من ذلك التمكين)[١].

لم نعد نعجب أن يفتح الله أبواب كل شيء على الذين نسوا ما ذكروا به، فإن هذا هو عين الإملاء، الذي تحدثت به آيات كثيرة في كتاب الله.

والأمر الثاني أن هذا الإملاء للكفار الذي يشمل التمكين لهم في الأرض، وفتح أبواب كل شيء عليهم إلى حين ـ يطول أو يقصر ـ يصحبه ويلازمه حرمانهم من ثواب الآخرة، وصيرورتهم إلى النار:

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل

---

(١) يقول تعالى عن النمرود: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك﴾ أي بسبب أن الله آتاه الملك! (سورة البقرة: ٢٥٨).

ما كانوا يعملون﴾ . (سورة هود، الآيتان : ١٥-١٦).

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تفسقون﴾ . (سورة الأحقاف، الآية ٢٠).

فإذا فُهمت هذه الحقائق كلها، وعُرفت سنن الله في هذا الشأن، لم يعد عجيبًا أن يفتح الله أبواب كل شيء على الكفار كلما أوغلوا في الكفر، استدراجًا لهم لكي يزدادوا إثمًا، وليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة :

﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا، ولهم عذاب مهين﴾ . (سورة آل عمران، الآية ١٧٨).

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم، إن كيدي متين﴾ . (سورة القلم، الآيتان ٤٤ - ٤٥).

﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون﴾ . (سورة النحل، الآية ٢٥).

كما قد يكون من حِكَم الإملاء تحقيق سنن أخرى من سنن الله، من بينها سنة **الابتلاء** للمؤمنين، وتمحيصهم ليمحق بهم الكافرين :

﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ . (سورة العنكبوت، الآيتان ٢ - ٣).

﴿وليمحص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين﴾ . (سورة آل عمران، الآية ١٤١).

وقد يكون السبب غياب أهل الحق عن الساحة، الذين يتم بهم تحقيق سنة **التدافع** التي جعلها الله أداة لإصلاح الأرض :

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ (سورة البقرة، الآية : ٢٥١).

فيملي الله للكفار، إلى أن يظهر أهل الحق، ويصبحوا **أهلاً لأن يرثوا الأرض** لتحقيق وعد الله :

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (الأنبياء ١٠٥)

وهـذا الأمـر الأخـير بالذات قد يكون **أقرب تفسير لأحوال العالم المعاصر، وتمكـين الجـاهليـة المعاصرة، بسبب غياب أهل الحق عن الساحة، وغياب المنهج الرباني عن التطبيق.**

على أن الأمر لا يتم بمجرد الكفر. . أي أنه ليس مجرد كفر الكافرين هو الذي يؤدي إلى تمكينهم في الأرض. فإن التمكين له سننه الخاصة التي لابد أن تتوفر له حتى يوجد. وكل شيء إنما يتم بمشيئة الله. ولكن مشيئة الله هي التي اقتضت أن تكون للتمكين أسباب، وأنه لابد من اتخاذ الأسباب لكي يتم التمكين.

لابد من **إرادة** ومن **جهد يبذل**.

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون﴾. (سورة هود، الآية ١٥).

﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾. (سورة البلد، الآية ٤).

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه﴾. (سورة الانشقاق، الآية ٦).

والأسباب في ذاتها ليست هي التي تؤدي إلى النتائج بطريقة ذاتية، إنما يتم ذلك **بمشيئة من الله**. وإذا لم يشأ الله فإن الأمر لا يتم مهما بذلت فيه الأسباب. . ولكن الجاهليين يجهلون ذلك، ويتكلون على الأسباب وحدها دون التوكل على الله. ومن الاستدراج الذي يفتنهم الله به أن يكلهم إلى الأسباب التي يتخذونها، وينجحها لهم، فيزدادون فتنة بها، واتكالا عليها، وبعدًا عن الله!

ولكي نوضـح هذه الحقيقـة التي تغشى عليها الجاهلية المعاصرة، حقيقة أن الأسباب لا تفعل بذاتها، ولكنها تفعل بمشيئة الله، نضرب بعض الأمثلة:

فهتلر قد اتخذ **كل** ما في وسع البشر من الأسباب لكي ينتصر على الحلفاء. وتحدى بأسبابه قدر الله. وكان يقول إن قواته ستتوغل في روسيا بالسهولة التي تقطع بها السكين قطعة الجبن! وكان يقول إنه لن يخطيء كما أخطأ نابليون، ولن يُستدرج إلى الصقيع الذي أهلك جيش نابليون! ثم شاء قدر الله غير ما أراد هتلر. واستدرجه الروس إلى الصقيع الذي أهلك جيشه كما أهلك جيش نابليون!

ودخل **الروس** أفغانستان وهم واثقون تمامًا من النصر، وأن الأمر لن يستغرق منهم أكثر من شهور، نظرًا لتفوقهم الساحق في العدد والعدة، ولم يحسبوا أي حساب لقدر الله. فهم لا يؤمنون بالله أصلاً، ولا يؤمنون إلا بالأسباب المادية، وفي حساب الأسباب المادية لا تناسب على الإطلاق بين ما يملكون هم وما يملك الأفغان! ثم شاء الله غير ما شاء الروس، فصمد الأفغان عشر سنوات كاملة، واضطر الروس في النهاية إلى الانسحاب دون أن يحققوا النصر. .

وفي هذا وذاك عبرة لمن يعتبر. ولكن الكفار لا يعتبرون!

﴿**قل انظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾. (سورة يونس، الآية ١٠١).

كلا! ليست الأسباب هي التي تؤدي بذاتها إلى النتائج إلا أن يشاء الله. ولكن الله يستدرج الكفار - جزاء كفرهم وإعراضهم - فيكلهم إلى الأسباب التي يتخذونها. . حتى تهلكهم الأسباب في النهاية!

ولكن هناك حقيقة واقعة من الجانب الآخر هي أنه **لا يمكن أن يتم التمكين بغير اتخاذ الأسباب. . لا للكفار ولا للمؤمنين**.

وقد بذلت أوربا كل ما تملك من جهد، وكدحت بكل ما تملك من الكدح، وتوجهت بكل ما تملك من إرادة، فمكن الله لها في الأرض حسب سننه التي قدرها وبينها سبحانه في كتابه المنزل: أنه من أراد الدنيا، وسعى لها سعيها، يوفيهم الله جزاءهم في الدنيا، ولا يبخسهم جهدهم، وكدحهم، وتوجههم:

﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، نوفّ إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون**﴾. (سورة هود، الاية ١٥).

﴿**ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها**﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٤٥)

﴿**ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وما له في الآخرة من نصيب**﴾. (سورة الشورى، الآية ٢٠).

وهكـذا تم لأوربا التمكين - بمشيئة الله وحسب سنته - في حين يظن «بروميثيوس» الحديث أن الأمر تم تحديًا لله! ويظن الذين استعبدت أوربا أرواحهم

أن الأمر كله راجع إلى اتخاذ الأسباب! في حين كان الله يربي الأمة المسلمة على منهج بديع، يوازن ما بين ضرورة اتخاذ الأسباب وبين عدم الاتكال عليها أو الفتنة بها، وضرورة **التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب**.

فحين أخبرهم سبحانه أنه قدر لهذا الدين أن يمكّن في الأرض، وأن الكافرين لن يقدروا على محوه من الأرض كما تمنوا في دخيلة أنفسهم، أمرهم في الوقت ذاته باتخاذ الأسباب لكيلا يتواكلوا اعتمادًا على وعد الله بالتمكين لدينه:

﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا، إنهم لا يعجزون، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾. (سورة الأنفال، الآيتان ٥٩ ـ ٦٠).

وحين خدعتهم الأسباب فقالوا: لن نغلب اليوم من قلة، قدر لهم الهزيمة لينتبهوا إلى أن الأسباب لا تؤدي بذاتها إلى النتائج:

﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم وليتم مدبرين﴾. (سورة التوبة، الآية ٢٥).

إنما وجههم أن يتخذوا الأسباب ويتوكلوا على الله في ذات الوقت، فتتم لهم عدة النصر:

﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٥٩).

والعزيمة تتضمن اتخاذ الأسباب فإنها لا تكون عزيمة صادقة بغير ذلك.

* * *

إذا خلصنا إلى هذه الحقيقة، وهي أن تمكين الجاهلية المعاصرة، وإيتاءها كل أسباب القوة، وفتح «أبواب كل شيء» عليها، إنما يتم حسب **السنن الربانية لا مخالفًا** لها، فيجب أن نعرف بعد ذلك أن هناك **فرقًا** ـ بل فروقًا ـ **بين تمكين الرضا**، الذي يعد الله به عباده المؤمنين، **وتمكين الاستدراج** الذي يعطيه للكافرين حين «يريدون» الدنيا، ويبذلون الجهد المكافىء لتلك الإرادة، فيوفيهم جزاءهم في الحياة الدنيا، ويفتح عليهم «**أبواب كل شيء**» مما يتعلق بذلك التمكين.

الفرق الأول: أن تمكين الاستدراج تمكين مؤقت مهما طالت مدته، وينتهي دائماً **بالدمار**. . بينما تمكين الرضا ممتد حتى يغير الناس ما بأنفسهم، ويحيدوا عن الطريق، فيزيل عنهم التمكين. . فإن لم يغيروا ما بأنفسهم امتد لهم التمكين.

يقول الله عن الكفار:

﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين﴾. (سورة الأنعام، الآيتان ٤٤ ـ ٤٥).

بينما يقول عن المؤمنين:

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. (سورة الأنفال، الآية ٥٣).

والفرق الثاني أن «أبواب كل شيء» المفتوحة على الكفار حين يوغلون في الكفر، هي **أبواب التمكين المادي وحده**، ولكن هناك بابين لا يفتحان على الكفار أبدًا لأن الله حرمهما على الكافرين: باب **البركة**، وباب **الطمأنينة**، وهما بابان يفتحهما الله على المؤمنين فحسب:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾. (سورة الأعراف، الآية ٩٦).

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. (سورة الرعد، الآية ٢٨).

ولفظ البركة لا ينحصر معناه في الرخاء المادي. . إنه أوسع وأشمل. . بل نكاد نقول إنه ليس الرخاء المادي أساسًا ـ وإن شمله ـ إنما هو شيء ما في حياة الناس يجعلها مباركة طيبة وضيئة شفيفة عالية نظيفة تستروحها النفس.

وهناك معانٍ للألفاظ يصعب تحديدها، ولكن من ذاقها عرفها.

فالثقة المتبادلة بين الناس نوع من البركة. **والحب المتبادل** نوع من البركة. **والتعاون على البر والتقوى** نوع من البركة. **وغيرة كل إنسان على عرض أخيه** نوع من البركة. **والحفاظ على القيم العليا في المجتمع** نوع من البركة. **والحرص على**

صلات الـرحم نوع من الـبركة. **وكفالة القادرين لغير القادرين** نوع من البركة. **وطلب العلم لنفع الناس** به نوع من البركة.. ومئات ومئات من المشاعر والأعمال تجمعها هذه اللفظة المفردة، التي يفيض الله عليها من رحمته فيجعلها «**بركات**».

أمـا الطمأنينة، فاسأل عنها الخائفين القلقين الحائرين المضطربين المتوجسين المـرهقي الأعصاب من القلق والخوف والتوجس.. إنهم يعرفون جيدًا ما يبحثون عنه.. **إنهم يبحثون عن الطمأنينة!** والله يبين لهم الباب الذي يؤدي إليها: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾. (سورة الرعد، الآية ٢٨).

ولعلنا لا نحتاج أن نقول إن الجاهلية المعاصرة برغم كل أدوات التمكين المتاحة لها من القوة الحربية والقوة السياسية والقوة المادية والقوة الاقتصادية والقوة العلمية.. **تفتقد الطمأنينة، وتفتقد السعادة التي ينشدها الإنسان في حياته**. والخمر والمخدرات والجريمة وحدها دليل على **فقدان السعادة والطمأنينة**، فضلاً عن القلق والانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية. فالخمر ـ ومثلها المخدرات ـ محاولة للهروب من الواقع. **فلماذا يسعى الناس للهروب من واقعهم لو كانوا سعداء به!!** والجريمة لون من الشعور المرضي نحو المجتمع، يعبر عن عدم الرضا عن هذا المجتمع.. **فلماذا تنتشر الجريمة وتزداد نسبتها؟**

أما المرح المجنون الذي تغرق فيه الجاهلية المعاصرة في لحظات «**الانفلات**».. في المراقص والملاهي والحانات وعلب الليل فليس دليلاً على السعادة، **بل هو أحرى أن يكون دليلاً على فقدانها**، ومحاولة التعويض المفتعل عن الخواء النفسي الناشىء من فقدانها.

وهـذه هي الصـورة الكـالحـة للجـاهلية، التي تعجـز عن إخفائها المصانع الضخمة، والإنتاج المادي الكبير، والصواريخ الذاهبة إلى القمر أو إلى المريخ!

* * *

سنّة أخيرة نشير إليها في حديثنا عن الجاهلية المعاصرة، كانت قمينة أن تكون عبرة لبروميثيوس المعاصر، لولا أن الجاهلية قد أصمت أذنيها وأغلقت أعينها عن كل عبرة من العبر.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل. أولئك هم الغافلون﴾. (سورة الأعراف، الآية ١٧٩).

يقول تعالى: **﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبًا من دارهم، حتى يأتي وعد الله﴾**. (سورة الرعد، الآية ٣١).

إنها نذر ربانية لا تزال تصيب الكفار حتى يأتي التدمير النهائي الذي توعد الله به المعاندين المستكبرين.. وما أكثرها.. وما أقل الاعتبار.

كان يكفي «**الإيدز**» ليوقظ قلوب الغافلين ويفتح بصائرهم.. إنه قارعة بكل ما تحمله اللفظة من معانٍ. وهو ينتشر وينتشر، وهم في هلع منه، ولا يستطيعون وقفه عن الانتشار.

وكان يكفي **الانتشار البشع لأمراض السرطان**..

وكان يكفي **ما يهدد غلاف الأوزون**، وما يهدد به التغير الواقع به من حدوث **طوفان** كطوفان نوح..

وكان يكفي **الفساد ذاته**، الحادث على وجه الأرض في كل اتجاه ليرد الناس إلى ربهم:

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون﴾. (سورة الروم، الآية ٤١).

كان يكفي هذا كله ليوقن الناس أن سنن الله ماضية في حياتهم، وأنهم ليسوا ناجين منها مهما خيل إليهم أنهم ناجون، ومهما ظنوا أنهم قادرون، وأنهم عالمون!

لقد قال قارون من قبل حين عاتبه قومه: «**إنما أوتيته على علم عندي**»! تمامًا كما تقول الجاهلية المعاصرة. وقال الله: **﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا﴾**. (سورة القصص، الآية ٧٨).

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرنا ليلًا أو نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾. (سورة يونس، الآية ١٤).

وقبل عشر سنوات أو عشرين لم يكن الناس يصدقون أن هذه الجاهلية يمكن أن تنهار! وما زال قوم يعتقدون أنها لا يمكن أن تبيد أبدًا. . ولكن قومًا من عقلاء الجاهلية ذاتها بدأوا يرون بوادر الانهيار.

ومهما يكن الانهيار بطيئًا - بسبب ما يبذل أهل الجاهلية من جهد في الحفاظ عليها - فإن الانهيار سنّة حتمية.

﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ . (سورة فاطر، الآية ٤٣).

السيطرة العالمية لليهود

أولا: تمهيد في المخططات اليهودية

لليهود مخططات أصبحت اليوم معروفة مكشوفة، بعد أن كانوا يعتبرونها أسرارًا لا يجوز لأحد أن يطلع عليها، بل أصبحوا اليوم هم الذين يسعون إلى كشفها، والتباهي بقدرتهم على تنفيذها وتحقيقها رغم أنف العالم كله!

والسبب في التستر عليها في الماضي كان خوفهم من أن يؤدي كشفها إلى إحباطها والوقوف في سبيلها. أما اليوم وقد **ملكوا ناصية الأمر، وتمكنوا من التنفيذ**، فلم يعد يضيرهم أن تنكشف مخططاتهم، بل صاروا يستخدمون كشفها أداة لتخذيل «**الأمميين**» عن مقاومتهم، إذ يوحون إليهم أن كل ما خططوه قد نفذوه، فلا يقفن أحد في سبيلهم!! ومن ثم صاروا هم اليوم الذين ينشرون الكتب التي تحوي مخططاتهم، والتي كانوا يخفونها من قبل ويسحبونها من الأسواق كلما نشرت، وبخاصة كتاب «**البروتوكولات**»، وكتاب «**الحكومة الخفية**»، وكتاب «**أحجار على رقعة الشطرنج**»!

وحين نتكلم عن مخططاتهم، فلا نقصد بطبيعة الحال تفاصيل ما يدبرونه ـ كل يوم ـ من مؤامرات و«**عمليات**» لتنفيذ أهدافهم، فمن البديهي أن هذه الأمور يحتفظون بسريتها، كما تفعل كل دولة أو جماعة من البشر لها أهداف تخشى من انكشافها قبل موعدها. إنما نقصد **الأهداف العامة التي يخططون للوصول إليها، والسياسة العامة التي يتبعونها للوصول إلى تلك الأهداف**، والتي أصبحت اليوم من «**المعلوم من الواقع بالضرورة**»!

* * *

لليهود مصدران يوحيان إليهم بأهداف وجودهم، ومنهج وصولهم إلى تحقيق أهدافهم، هما **التوراة والتلمود**.

التوراة هي الكتاب السماوي المنزل إليهم على موسى عليه السلام (**وقد أدخلوا عليه تحريفات عدة**).

والتلمود هو كتاب مؤلف، يجمع حكمة حكمائهم، ووصايا قادتهم وموجهيهم، ومع أنه بشري المصدر إلا أن له **قداسة في نفوسهم أشد من قداسة الكتاب** المنزل، الذي حرفوا فيه ما شاء لهم الهوى أن يحرفوه.

والكتابان معًا لهما تأثير قوي في تشكيل «**النفسية اليهودية**» و«**العقلية اليهودية**» و«**المخططات اليهودية**».

وخلاصة التوجيه المستمد من الكتابين معًا أن **اليهود شعب متميز عن كل أهل الأرض، لأنه شعب الله المختار، الذي اختاره الله لمزايا معينة تتوفر فيه ولا تتوفر في غيره، وأن من حقه ـ إن لم يكن من واجبه ـ أن يسود العالم كله ويسيطر عليه، ويتخذه عبيدًا له، مسخرين لقضاء مصالحه وتحقيق أهدافه.**

وربما كان أبرز عبارتين في التوراة والتلمود، تشكلان الوضع اليهودي ـ أو قل إن شئت «**الأزمـة اليهودية**» ـ هما قول التوراة: «وكلم الرب الإله إسرائيل قائلاً: سأنزل يا إسرائيل، **وأضع السيف في يدك، وأقطع رقاب الأمم وأستذلها لك**». وقول التلمود: «**الأمميون** [1] **هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار، وكلما نفق منهم حمار ركبنا حمارًا آخر**»!

هذا هو التوجيه، وهذه هي أزمة البشرية مع اليهود!

* * *

«**الله أعلم حيث يجعل رسالته**» (سورة الأنعام، الآية ٢٤).

ولقـد اختـار الله بني إسرائيل بالفعل ذات يوم لحمل رسالته، وفضلهم على العالمين، ولم يقل الله لنا في كتابه العزيز ـ ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ـ لماذا اختار بني إسرائيل بالذات لحمل الرسالة، وفضلهم هذا التفضيل، إلا ما يرد من عبارات عامة في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿**والله يؤتي ملكه من يشاء**﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٤٧). أو قوله تعالى: ﴿**والله يختص برحمته من يشاء**﴾ (سورة آل عمران، الآية ٧٤).

---

(١) الأمميون هم كل «الأمم» من غير اليهود، وهي ترجمة للكلمة العبرية «جوييم» وقد نشأت عندهم من تقسيم البشر إلى فئتين، اليهود من جهة، وكل الأمم من غير اليهود من جهة أخرى.

ولا جدال في أن الله قد اختارهم ذات يوم لأداء رسالته، وفضلهم في وقتها على عالمي زمانهم لحكمة معينة ـ علمناها أو جهلناها ـ ولكن مشكلة هذا الشعب أنه يصر على أنه ما زال إلى هذه اللحظة هو «**شعب الله المختار**» الذي من حقه أن يقطع رقاب الأمم ويستذلها، ومن حقه أن «**يستحمرها**» ويسخرها لتنفيذ مآربه، رغم النصوص الكثيرة الواردة في التوراة ذاتها **بلعنهم وإعلان الغضب عليهم**، فضلاً عما ورد في الإنجيل والقرآن. فقد تكرر في التوراة ورود هذا التعبير: «**وحمي غضب الرب على شعبه**»، كما تكرر في الإنجيل قول عيسى عليه السلام لليهود: «يا أولاد الأفاعي!» وقوله لهم: «أنتم شعب صلب الرقبة»!

ولا يفوتنا ونحن نستشهد بكلمات من التوراة أنها قد حرفت تحريفًا كثيرًا، غطّى على الأصل المنزل من عند الله، ولكن الاستشهاد بتلك الكلمات في المجال الذي نحن بصدده أبلغ دلالة. ذلك أنه على الرغم من أنهم حرفوها لتوافق أهواءهم وأمزجتهم فإنهم **لم يستطيعوا أن يحذفوا منها كل ما ورد فيها من أنباء غضب الله عليهم ولعنه لهم**.

أما في القرآن الكريم، كلام الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد جاء الكلام عن بني إسرائيل مفصّلا في مواضع كثيرة، لحكمة يعلمها الله، قد يكون من بين جوانبها أن الله يعرض على المسلمين أنباء الأمة السابقة التي نزل لها كتاب من عند الله، وأعزها الله بالكتاب المنزل، ومكّن لها في الأرض، فلم ترع الكتاب حق رعايته، **فنزع الله السلطان منها وأذلها، وحكّم أعداءها في أمرها**.. لعل الأمة المسلمة ـ وهي الأمة الثانية التي نزل لها كتاب من عند الله، وأعزها الله بالكتاب المنزل، ومكّن لها في الأرض ـ **أن تحذر الوقوع فيما وقعت فيه الأمة الأولى، فينالها ما نال الأمة الأولى من العقاب**[1].

(١) يلاحظ أنه رغم هذا التحذير الواضح وقع المسلمون في كثير مما وقع فيه بنو إسرائيل، وناهم شيء مما ناهم من العقاب، وإن كان الله لم يكتب عليهم اللعنة التي كتبها على بني إسرائيل، لأنهم دائمًا يعودون، ويبعث الله لهم على رأس كل قرن من يجدد لهم أمر دينهم.

في القرآن الكريم نجد قصة بني إسرائيل كاملة ومفصلة، من أول جدهم إبراهيم عليه السلام إلى أبيهم يعقوب (إسرائيل) إلى يوسف إلى موسى - عليهم صلوات الله وسلامه - إلى اضطهادهم في مصر على يد الفرعون، وخلاصهم على يد موسى عليه السلام، ودخولهم الأرض المقدسة من بعد موسى - بعد تقاعسهم وتخاذلهم عن دخولها أيام موسى، وتيههم أربعين سنة في أرض سيناء - ثم التمكين لهم في أيام داود وسليمان عليهما السلام، ثم كفرهم وطردهم من رحمة الله، وتأذن رب العالمين أن يسلط عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.. ثم موقفهم من محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، وإبائهم الإسلام[1]، ووسمهم بالضلال، ولعنهم إلى يوم القيامة، وتوعدهم بالخلود في النار.

وتجيء قصة اختيار بني إسرائيل وتفضيلهم على العالمين في مثل هذه الآيات:

﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين، من فرعون إنه كان عاليًا من المسرفين، ولقد اخترناهم على علم على العالمين، وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ (سورة الدخان، الآيات ٣٠ - ٣٢).

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ (سورة البقرة، الآية ٤٧).

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ (سورة الأعراف، الاية ١٣٧).

كما يجيء ذكر غضب الله عليهم ولعنهم - بسبب كفرهم - في مثل هذه الآيات:

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقًا كذبتم وفريقًا تقتلون، وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين. بئسما

(١) إلا قليلًا منهم.

اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين﴾. (سورة البقرة، الآيات ٨٧ - ٩٠).

﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. (سورة البقرة، الآية ٦١).

﴿كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات، والله لا يهدي القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ (سورة آل عمران، الآيات ٨٦ - ٨٩).

تلك قصة بني إسرائيل من حين اصطفاء الله لهم حين كانوا على الحق، إلى وقوع الكفر من جانبهم واستحقاقهم للغضب واللعنة من الله:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينًا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا، فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيرًا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، واعتدنا للكافرين منهم عذابًا أليمًا﴾. (سورة النساء، الآيات ١٥٥ - ١٦١).

تلك صحيفة جرائمهم، أو تلك أبرز «أعمالهم المجيدة!» التي استحقوا عليها **اللعنة والطرد من رحمة الله**. ولكنهم يتشبثون دائمًا بعهد الاصطفاء الأول ويتشدقون به، ويغضون الطرف عما أحدثوا بعده، مما أدى بهم إلى استحقاق اللعنة إلى يوم القيامة. ويزعمون أنهم ما زالوا «**شعب الله المختار**»، وأن موعوده قائم بالنسبة لهم،

فيا زال من حقهم - إن لم يكن واجبهم - أن يقطعوا رقاب الأمم ويستذلوها لهم، وأن يستحمروا الأميين ويسخروهم لخدمتهم.

وتلك أزمتهم وأزمة البشرية معهم!

فهم من جهة يزعمون أنهم مضطهدون بغير ذنب، وأن من حقهم من أجل ذلك أن ينتقموا من كل البشرية!

ويزعمون من جهة أخرى أنهم - بذواتهم، أو بجنسهم، أو بدمهم، أو بنسبهم - شعب له مميزات خاصة تؤهله لحكم البشرية كلها وإخضاعها!

ومن كلتا «العقدتين» تنطلق مخططاتهم الشريرة لنشر الفساد في الأرض.

فلقد علموا - من خبرتهم الطويلة، ومن تدبر الكتب المنزلة - أن قوة الإنسان الحقيقية هي في عقيدته وأخلاقه. وأن الإنسان صاحب العقيدة والأخلاق الفاضلة لا يمكن أن «**يستحمر**» ولا أن يسخر للفساد. إنما يستحمر إذا تخلى عن عقيدته وأخلاقه، وقد وصف الله اليهود أنفسهم، وغيرهم ممن بدل دينه وكفر، بأنهم حمر ضالة:

﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار﴾. (سورة الجمعة، الآية ٥).

﴿فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة﴾. (سورة المدثر، الآيات ٤٩ - ٥١).

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾. (سورة الأعراف، الآية ١٧٩).

وإذ أدرك اليهود تلك الحقيقة، وكان من هدفهم **استحمار الأميين ليركبوهم**، فقد عملوا جاهدين منذ بدءوا انحرافهم وكفرهم، **إلى إفساد عقائد الناس وإفساد أخلاقهم** بكل الوسائل التي تؤدي إلى الفساد، ليظفروا بهدفهم الشيطاني الشرير، والله يصفهم في كتابه المنزل بالفساد والإفساد، وأن ذلك قد أصبح جبلة فيهم، لا تزول عنهم ولا يعملون على تغييرها.

﴿ويسعون في الأرض فسادًا، والله لا يحب المفسدين﴾. (سورة المائدة، الآية ٦٤).

﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، لبئس ما

كانوا يعملون﴾ . (سورة المائدة، الآية ٦٢).

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون﴾ . (سورة المائدة الأيتان ٧٨ ـ ٧٩).

وما بنا من حاجة إلى مناقشة مزاعمهم التي يبنون عليها وجودهم كله وتخطيطهم كله .

ولكن لابد مع ذلك من كلمات تقال . .

* **فأما أنهم مضطهدون** خلال التاريخ فذلك حق في عمومه[1]، وأما أنهم مضطهدون بغير ذنب فمغالطة لا يسندها التاريخ . إنما يكرههم الناس لسوء خصالهم وسوء أفعالهم . من أكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، ومسارعتهم في الإثم والعدوان، ونشرهم الفاحشة في الأرض، وسعيهم إلى إيذاء الناس ولو أحسنوا إليهم، ونشرهم الاضطراب في كل مكان حلوا فيه، ونكرانهم الجميل . . وخصال أخرى كثيرة منفرة .

ولقد اضطهدهم النصارى في أوربا بسبب اعتقادهم أنهم صلبوا المسيح عليه السلام[2]، ولم يجدوا لهم صدرًا حنونًا إلا في **العالم الإسلامي**، ففروا من الاضطهاد الأوربي إلى الأندلس الإسلامية يحتمون فيها من الظلم، وينعمون بالعدل والحرية والأمن، ويمارسون نشاطهم كله مطمئنين .

ولما قامت الصليبية بمطاردة المسلمين وإخراجهم من الأندلس، هاجروا إلى المغرب، **فهاجر اليهود معهم** فرارًا من الاضطهاد الكنسي، وسعيًا وراء الأمن والطمأنينة في ربوع الإسلام . كذلك أووا إلى الدولة العثمانية، وعاشوا في مختلف البلاد الإسلامية الخاضعة للحكم العثماني آمنين مطمئنين، ناجين من الاضطهاد

---

(١) إلا فيما يتعلق بالعالم الإسلامي، فقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الذميين من أهل الكتاب ونفذ المسلمون الأمر.

(٢) نعلم نحن المسلمين أن المسيح عليه السلام لم يصلب، ولكن هذا لا ينفي عن اليهود جهدهم الذي بذلوه في تحريض الحاكم الروماني على صلبه، حتى أمر بصلبه بالفعل، لولا أن الله رفعه إليه ونجاه من كيد اليهود.

الأوربي . . **فكيف كان عرفانهم بالجميل؟!** لقد سعوا إلى تدمير الدولة العثمانية، والقضاء على الحكم الإسلامي في الأرض، وكان سلوكهم في فلسطين خاصة هو **تذبيح المسلمين**: نسائهم وأطفالهم وشيوخهم، **والإساءة إلى المقدسات الإسلامية** والعدوان على المسجد الأقصى . . وهو أمر واضح الدلالة على عمق الشر في نفوسهم، فهم لا يستطيعون أن يزعموا أن المسلمين قد أساءوا لهم خلال معيشتهم في ظل الحكم الإسلامي، ولا أنهم يثأرون من ظلم وقع عليهم . إنما هم الذين يبدأون بالعدوان الإجرامي، فإذا كرههم الناس من أجل أعمالهم العدوانية، أو قذارة سلوكهم، تصايحوا بأنهم مظلومون مضطهدون بغير ذنب جنوه!

وحادثة اليهود الأربعة الذين ذبحوا أحد «**الأمميين**» في عهد محمد علي، ليعجنوا بدمه فطيرة عيد الفصح، مشهورة معروفة، فقد كان لها دوي في العالم كله، بعد اعتراف المجرمين بجريمتهم، واستنكار العالم كله لها . . ومع ذلك فهم لا يتأثمون!

* **أما زعمهم الآخر** بأنهم - بذواتهم أو بجنسهم أو بدمهم أو بنسبهم - ذوو خصائص معينة تؤهلهم لحكم العالم كله، **فزعم يشتمل على قليل من الحق، وكثير من الباطل**.

فأما أن منهم نابغين في مجالات مختلفة **فصحيح** . . (وصحيح كذلك في المقابل أن في بعضهم بلاهة شديدة معروفة في الطب باسم «العته اليهودي»).

وأما أن نبوغهم راجع إلى امتياز خاص تميزوا به عن العالمين فزعم لا يسنده الواقع!

فدعوى نقاء الدم الإسرائيلي لا تزيد على أن تكون أسطورة! واليهود ذوو العيون الزرق والشعر الأشقر شاهد لا يكذب على أنه ليس كل اليهود من بني إسرائيل، فبنو إسرائيل من الجنس السامي، ولا يعرف عن الجنس السامي زرقة العيون ولا شقرة الشعر! ومعظم يهود أوربا - والبولنديين خاصة - وكثير من يهود أمريكا ليسوا من بني إسرائيل، إنما هم من نسل يهود دولة الخزر التي تهودت بكاملها في القرن الثامن الميلادي، ثم تفرقت في بلاد أوربا إثر عدوان كاسح وقع عليها في القرن الثالث عشر، **وكلهم لم يكونوا من بني إسرائيل، إنما دخلوا في الدين اليهودي في فترة**

كانت الدعوة اليهودية فيها قد نشطت، قبل أن يقرر اليهود وقف الدعوة، واعتزال العالم، والنفي الاختياري في «الجيتو»[1].

إنما يرجع النبوغ في بعض أفرادهم من طبيعة كونهم أقلية مضطهدة، بصرف النظر عن سبب اضطهادهم، فالأقلية المضطهدة في كل مكان في الأرض تكون دائمًا مشحوذة الهمة لمقاومة الضغط الواقع عليها لإفنائها أو سحقها. . فيصل الشحذ عند بعض الأفراد إلى النبوغ، ويكون عند مجموع الناس باعثًا إلى النشاط والحركة والإنتاج. . ولا علاقة لهذا بالدم أو الجنس أو النسب أو غيرها مما يتشدق به بنو إسرائيل!

ولا يجوز أن ننسى عاملاً أساسيًا في القضية لا تفهم القضية بدونه، هو تقدير الله أن يبقى هذا الشعب ولا يفنى تحت الاضطهاد كما فني غيره من الأقليات التاريخية، لحكمة يريدها الله، قد تظهر بعض جوانبها عند استعراض واقعهم المعاصر.

ومن ثم اجتمعت **ثلاثة عوامل** تؤدي في مجموعها إلى نبوغ بعض الأفراد، وبث النشاط الدءوب في المجموع. **فهم أولاً** أقلية لا أمل لها أن تصبح أغلبية عددية في أي يوم من الأيام. **وهم ثانيًا** أقلية مضطهدة لأن الله كتب عليهم هذا الاضطهاد عقابًا لهم على سجاياهم الرديئة وأعمالهم السيئة. **وهم ثالثًا** أقلية قدر الله لها أن تبقى، فأودع في نفسها إرادة قوية للبقاء، وعزيمة قوية لمقاومة عوامل الفناء. . ولا شيء من هذه العوامل الثلاثة يرجع إلى الجنس أو العنصر أو الدم أو النسب. . **إنما هو قدر رباني، وسنن ربانية جارية** كالمعادلات الكيماوية، حيثما وجدت ظروفها أدت إلى نتائجها بقدر من الله.

* * *

ولسنا هنا على أي حال معنيين بتفنيد مزاعم اليهود، بقدر ما نحن معنيون بالتعرف على مخططاتهم، والدوافع التي تدفعهم إليها، والوسائل التي يتخذونها لتحقيقها.

---

(١) راجع كتاب «اليهود ليسوا يهودا» تأليف بنيامين فريدمان وترجمة زهدي الفاتح، طبع دار النفائس ببيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٤م.

وقد خلص لنا من العرض السابق أن المخطط في جملته يسعى **لإفساد عقائد «الأميين» وأخلاقهم**، باعتبار أن هذا أنجع الوسائل وآكدها لاستحمار أولئك الأميين وتسخيرهم لشعب الله المختار!

وفي بحثنا هذا سنحاول ـ بشيء من التفصيل ـ إبراز أهم أعمال الفساد التي قاموا بها **في القرنين الأخيرين بالذات**، باعتبارهما القرنين اللذين برزت فيهما السيطرة الحالية لليهود. ولكن هذا لا يمنعنا من إشارة سريعة إلى أبرز أعمال الفساد التي قاموا بها في التاريخ الماضي لتحقيق ذات الأهداف الشريرة التي يسعون إليها، ونكتفي بنبذة سريعة مختصرة عما قام به **«شاول» لإفساد النصرانية**، وما قام به **«عبدالله بن سبأ»** لمحاولة فتنة المسلمين عن دينهم، ونبذة كذلك سريعة مختصرة عن تبنيهم لأعمال **البغاء وإشاعة الفاحشة في الأرض**.

* فأما شاول ـ الذي سمى بولس فيما بعد ـ فلنستمع فيه إلى قولة الفيلسوف الفرنسي رينان:

«إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي **شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام**. ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذي لم يفهم تعليم المسيح، بل حمله على محمل آخر، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم[١]. وبولس كما لا يخفى كان رسولاً للأمم، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره، فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحي فأفسده[٢]. وفي عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس. وأما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي فخسر صفته الإلهية الكمالية.. وإن أولئك الشراح والمفسرين يدعون المسيح إلهًا دون أن يقيموا على ذلك الحجة،

(١) نشك كثيرًا في أن الإفساد الذي أحدثه بولس في النصرانية كان نتيجة «عدم الفهم» كما يقول رينان!

(٢) لم يكن الفساد الذي أحدثه بولس في النصرانية محصورًا في قضية الختان كما يذكر رينان في هذا الموضع ـ وإن كان هذا من الفساد المتعمد الذي أحدثه في دين الله ـ ولكن الفساد الأكبر كان في تأليه عيسى كما ذكر رينان في نهاية كلامه.

ويستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار: موسى والزبور وأعمال الرسل ورسائلهم وتآليف آباء الكنيسة. مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله[1].

ويقول المؤرخ الانجليزي ويلز:

«وظهر للوقت معلم آخر عظيم[2] يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيقي للمسيحية، **وهو شاول الطرسوسي أو بولس.. والراجح أنه كان يهودي المولد**، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك[3]. ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود، بيد أنه كان متبحرًا في لاهوتيات الاسكندرية الهلينية.. ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنبًا إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعًا بفكرة لا تظهر قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذي يقدم قربانًا لله كفارة عن الخطيئة. فما بشر به يسوع كان ميلادًا جديدًا للروح الإنسانية[4]. أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة: ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء لاسترضاء الإله»[5].

أما شاول هذا ـ أو بولس كما سمي فيما بعد ـ فيروى عنه أنه كان في مبدإ حياته من أشد أعداء النصرانية، ومن أشد العاملين على إيذاء المؤمنين بها، والتنكيل بهم، **كما يروي هو عن نفسه** في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر أعمال الرسل: «كنت غيورًا لله ـ كما أنتم جميعكم اليوم[6] ـ واضطهدت هذا الطريق[7] حتى الموت، مقيدًا

(١) عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة، طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض، سنة ١٤٠٤هـ، ص ٢٣٠.

(٢) وصف ويلز لشاول بالعظمة هو إقرار فقط بقوة تأثيره، وبراعته في نشر دعوته. وإلا فقد أقر صراحة بأنه بدل دين المسيح، ونشر ديانة جديدة من صناعته الخاصة!

(٣) لا قيمة لهذا الإنكار ولدينا اعترافه هو عن نفسه في سفر «أعمال الرسل».

(٤) لأنه كان وحيًا صادقًا عن الله. أما ما علمه بولس فهو الديانة الوثنية القديمة.

(٥) «معالم تاريخ الإنسانية»، سبقت الإشارة إليه جـ ٣، ص ٧٠٥ من الترجمة العربية.

(٦) يخاطب اليهود.

(٧) طريق النصرانية.

ومسلمًا إلى السجون رجالاً ونساء، كما يشهد لي أيضًا رئيس الكهنة وجميع المشيخة، الـذين إذا أخـذت منهم رسـائـل للإخوة في دمشق، ذهبت لآتي بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا»[1].

ولكن سفر الأعمال يروي عنه في الإصحاح التاسع قصة طريفة، مفادها أنه «في ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق، فبغتة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض، وسمع صوتًا قائلًا له: شاول، شاول: لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيدي؟ قال: أنا يسوع الذي تضطهده، صعب عليك أن ترفس مناخس، فقال وهو مرتعد متحير: يا رب! ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة، فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل»[2]!.

ومن لحظتهـا صار مؤمنًا «بالرب» داعية متحمسًا لتأليه عيسى، ونشر دعوى ألوهيته بين الناس!

يقول الله جل شأنه:

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك! ما يكون لي أن أقول ماليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته. تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد﴾ . (سورة المائدة، الآيتان ١١٦ - ١١٧).

ولا ندري نحن ما الذي حدا بالنصارى إلى تصديق تلك القصة المفتعلة التي رواها بولس عن تجلي «الرب» له وهو في طريقه إلى دمشق لإيقاع العذاب بالمؤمنين بالنصرانية. فإن كانت شهادة برنابا له ـ وهو من حواريي المسيح عليه السلام ـ ومحاولة إقناع الحواريين بصدق إيمانه، فإن برنابا قد اختلف معه فيها بعد لما تبين له زيف

---

(١) عن كتاب «محاضرات في النصرانية» ص ٨٨.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

دعواه، وكانت نقطة الافتراق بينهما هي قضية تأليه عيسى كما يتبين من إنجيل برنابا نفسه.

ومهما يكن من أمر النصارى حيال بولس، فالذي نراه نحن - من منظورنا الإسلامي - أنها قصة اخترعها ذلك اليهودي ليغطي على المؤامرة التي اعتزم تنفيذها، وهي **التظاهر بالدخول في الدين الجديد ليكيد له من الداخل**، ويصرفه عن حقيقته الربانية التي نزل بها، إلى دين آخر محرف، في محاولة له لإبطال مفعول هذا الدين في تصحيح عقائد «**الأميين**» وتعبيدهم لله وحده لا شريك له، لما يعلم من مقاومة الدين الحقيقي لمخططات اليهود الشريرة التي يسعون بها إلى نشر الفساد في الأرض.

والذي يشجعنا على هذا الظن أن لهذا اليهودي أخًا آخر في اليهودية، جاء بعده بقرابة سبعة قرون، **يحاول ذات المحاولة مع الإسلام**، فيتظاهر بالدخول في الدين الجديد ليكيد له من الداخل، ويحاول صرفه عن حقيقته الربانية إلى دين آخر محرف، يؤله فيه واحد من البشر هو عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، ليكون إلهًا مع الله!

* **ذلكم هو عبدالله بن سبأ..**

«يرد في تاريخ الطبري ويتابعه ابن الأثير في أحداث سنة **٣٥هـ** أن ابن سبإ كان **يهوديًا من أهل صنعاء**، وأنه أسلم زمن عثمان، وأخذ ينتقل في بلدان المسلمين من قطر لآخر محاولاً ضلالتهم، فابتدأ بالحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على شيء فيها، فأتى مصر واستقر بها، وطابت له أجواؤها»[١].

ولقد كاد اليهود للإسلام منذ مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة - بل قبل ذلك - وحاولوا بكل قوتهم أن يقفوا نموه، ويفتنوا الناس عنه بالتشكيك في صدق نبوته صلى الله عليه وسلم، والتشكيك في صدق الوحي، والتفريق بين المؤمنين، ونشر الأراجيف في المدينة، بل حاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم بدس السم له في ذراع الشاة مرة، ومحاولة إلقا الحجر عليه مرة.. وحالفوا المشركين والمنافقين وألّبوهم على المسلمين.. ونقضوا العهود ليخذلوا

(١) عن كتاب «عبدالله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة في صدر الإسلام» تأليف سليمان بن حمد العودة، دار طيبة، بالرياض، ص ٤٦.

المسلمين . . فلما مكّن الله لدينه على الرغم من كل محاولاتهم، **سكتوا ظاهرًا وهم يضمرون الحقد في قلوبهم، ثم لجأوا إلى التظاهر بالإسلام ليكيدوا له من الداخل . .** وكان عبدالله بن سبأ واحدًا من أولئك الذين تظاهروا بالإسلام من أجل الفتنة والتخريب على المؤمنين.

وقد كان له دور بارز في فتنة عثمان، إذ حرض عليه أهل الأمصار، وزور الكتب، ونشر الأراجيف، وتآمر مع الحاقدين والموتورين **حتى أدت الفتنة إلى مقتل عثمان رضي الله عنه**. ثم نشط في إحداث الفتنة التي أدت إلى الخروج على علي كرّم الله وجهه، وفي وقعة الجمل بصفة خاصة، حيث **تآمر على إحداث البلبلة في صفوف المؤمنين بعد أن كانوا قد اتفقوا على المصالحة وحقن الدماء فما شعروا إلا وبعضهم يباغت بعضًا بالقتال**(١)!

وفي الأخير نجد ابن سبأ يؤله عليًّا ويدعو الناس إلى تأليهه!

ما أشبه ابن سبأ بأخيه شاول! وإن كانت النتائج التي توصل إليها كل منهما تختلف عن الآخر!

ولا يرجع الفارق في النتائج إلى اختلاف الهدف أو اختلاف المنهج!

إنما يرجع إلى أن الدين الذي سعى شاول إلى تزييفه لم يكن له كتاب محفوظ يرجع إليه، بينما الدين الذي حاول ابن سبأ إفساده كان له كتاب محفوظ، تكفل الله بحفظه:

﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. (سورة الحجر، الآية ٩).

ومن ثم لم يستطع ابن سبأ ـ برغم كل الكيد الخبيث الذي قام به ـ أن يفسد **أصل الدين**، وإن كان قد جر إليه عددًا من الفرق الضالة مازالت تتبعه حتى اليوم، ولكنها قلة قليلة بالنسبة لمجموع المسلمين الذين يؤمنون بالتوحيد، بينما استطاع شاول أن ينسي الناس حقيقة التوحيد في دين الله المنزل على عيسى عليه السلام، ويستبدل به دينًا يقبل التعدد في ذات الإله، وإن حاول أن يضفي عليه ثوب التوحيد.

(١) راجع في هذا الشأن المرجع السابق لسليمان العودة وهو من أجود ما كُتب في الموضوع.

* أما دورهم في **نشر الفاحشة في الأرض** فربما كان خير مرجع فيه هو **كتابهم «المقدس!»** الذي حوى من ألوان الفحش ما يتقزز منه الشخص العادي، وما يعاب على الكتاب الهابطين أن يهبطوا لمثله، والأنكى من ذلك **نسبتهم كل ألوان الجرائم الفاحشة إلى أنبيائهم! حتى تكتسب تلك الجرائم صفة «الشرعية» وتصبح جزءًا من منهج حياتهم!**

فإذا أضيف إلى ذلك ما جاء في التلمود من النظر إلى «**الأمميين**» على أنهم دواب في صورة بشرية، وليسوا بشرًا حقيقيين، وأن ارتكاب الفاحشة مع الأممية لا يدخل في باب المحظور أصلاً (!) استطعنا أن نفهم «**مذهبهم**» في نشر الفاحشة وطريقتهم كذلك! فاليهودية يمكن أن تُفْسَدَ إذا كان وراء ذلك «**مصلحة**» لشعب الله المختار، والأممية يمكن أن تفسد بلا حرج لتحقيق «**المصلحة**» كذلك لشعب الله المختار. .

ولفترة طويلة من التاريخ كان اليهود **يتبنون البغاء في المدن الأوربية**، يجتذبون إليه الأغنياء من الريف، سواءً أمراء الإقطاع أو من حولهم، لينفقوا الأموال الحرام فيما حرم الله من الآثام، لتنتقل تلك الأموال من جيوب أولئك الأغنياء الفساق إلى جيوب المرابين اليهود. . حتى إذا احتاجوا إلى مزيد من المال أقرضوهم بالربا، وسلبوهم بذلك أرضهم وأموالهم بالإضافة إلى ما يسلبونه من «**الأخلاق**»!

ومع ذلك كله فقد ظل كيد اليهود قرونًا طويلة محدود الأثر في إفساد «الأمميين» **حتى جاء العصر الحديث!**

ثانيا: كيف سيطر اليهود؟

في القرنين الأخيرين بصفة خاصة برزت **السيطرة العالمية لليهود**. . وقد يكون من الصعب تحديد سنة بعينها أو حدث بعينه لبدء المرحلة الحالية التي سيطر فيها اليهـود على نطاق واسـع من الأرض، ونـطاق واسـع من الأحداث، فالتاريخ نهر مستمر، تجري الأحداث فيه جريانًا متصلاً، يؤثر بعضها في بعض، ويتأثر بعضها ببعض، دون أن تتوقف لحظة ليتم فيها التأثير والتأثر. . إنما يجري كل ذلك في أثناء انسياب التيار في مجرى النهر، وامتزاج منابعه بعضها ببعض.

ومـع ذلـك فإنـه مما لا شك فيه أن هنـاك **أحداثًا بارزة في مجرى التاريخ**، ومنحنيات واضحة يتغير على إثرها اتجاه التيار.

فإذا أردنا أن نحدد تلك الأحداث البارزة والمنحنيات الواضحة بالنسبة لسيطرة اليهود الحالية، فسنجد بادىء ذي بدء حالة **النفور من الدين**، التي أحدثها طغيان الكنيسة ورجال الدين (**مع سد الطريق أمام التأثير الإسلامي الذي كان وشيكًا أن يُدخِـلَ أوربـا في الإسـلام**)، وسنجد بعد ذلك **أحداث الثورة الفرنسية، والثورة الصنـاعية**، وما يمكن أن نطلق عليه **الثورة الداروينية**. . وكلها أحداث استغلها اليهود على نطاق واسع لتنفيذ المخطط الشرير.

إن اليهود يزعمون أنهم هم صانعو أحداث التاريخ! ويكاد «وليم كار» صاحب كتاب «**أحجار على رقعة الشطرنج**» أن يقع في هذا الوهم، من شدة فزعه من التأثير اليهودي والسيطرة اليهودية!

ولكنا نعلم ـ يقينًا ـ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يُجْرِي كل شيء في الكون بقدر منه:

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (سورة القمر، الآية ٤٨).

﴿وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ (سورة الرعد، الآيتان ٨ ـ ٩).

ولا يمنع هذا ـ في التصور الإسلامي ـ أن يكون للإنسان فاعلية، فقدر الله

ذاته هو الذي قضى بأن تكون للإنسان فاعلية في الحياة الدنيا، ليبتليه الله من خلالها:
﴿**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيراً**﴾ (سورة الإنسان، الآية ٢).

﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ (سورة البقرة، الآية ٣٠).
﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ (سورة هود، الآية ٦١).
﴿**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه**﴾ (سورة الجاثية، الآية ١٣).
واليهود بشر من أولئك البشر الذين خلقهم الله، لهم قدر من الفاعلية، يزيد أو ينقص عن غيرهم من البشر، ولكنهم قط لا ينشئون الأحداث إنشاء بقوتهم الذاتية كما يزعمون لأنفسهم، وكما يقع في وهم المفزعين من مخططاتهم الشيطانية في العصر الأخير خاصة.

ولا أدل على هذه الحقيقة من أنهم يخططون ويدبرون منذ أكثر من عشرين قرنًا، ولكن نجاحهم في مخططاتهم كان دائمًا نجاحًا جزئيًا خلال التاريخ، **وكانوا يخرجون من أكثر أعمالهم خاسرين**، كما خرجوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما يرجع نجاحهم الحالي، الذي وصل إلى حد السيطرة العالمية لظروف معينة قدرها الله، سنشرحها في هذا الجزء من الفصل، لم يكن دور اليهود فيها هو الإنشاء، إنما كان هو **استغلالها لصالحهم إلى أقصى حدود الاستغلال**.
إن الحقيقة التي لا شك فيها أن اليهود **يحسنون انتهاز الفرص واستغلال الأحداث**.

ولا يرجع هذا إلى مزية عنصرية اختصوا بها، إنما هو نتيجة المعادلة الثلاثية التي أشرنا إليها من قبل، والتي تشكل حياتهم ودوافعهم ووسائلهم. كونهم **أقلية مقهورة كتب لها أن تبقى ولا تفني تحت الضغط لحكمة ربانية**.
إنهم كالـوحش المحصور داخل الجحر، عيناه دائمًا على الحارس الذي يمنع خروجه من الأسر، فإذا آنس غفلة من الحارس انطلق بكل قوته، منتهزًا فرصة هذه الغفلة، ومستغلاً لها إلى أقصى حد، قبل أن يفيق الحارس من غفلته ويعيده إلى الأسر من جديد.

وهذه خلاصة تاريخهم سواء في الماضي أو في الحاضر. أما المستقبل فغيب لا يعلمه إلا الله، وإن كنا نحاول أن نستكنه ما كشف لنا من ذلك الغيب في كتاب الله المنزل، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

الخلاصة هي **التربص الدائم من جانبهم، والغفلة - أو اليقظة - من جانب «الأميين»**.

والقرنان الأخيران بصفة خاصة كانا فترة **غفلة عظيمة من جانب الأميين، لذلك كانت فترة نجاح هائل من جانب اليهود!**

بدأت الغفلة - في أوربا - بالنفور من الدين بسبب فظائع الكنيسة وجرائمها.

والإنسان إذا تخلى عن دينه فهو في غفلة تسهل على الشيطان وأعوانه أن يستغلوه.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾. (سورة الأعراف، الآية ١٧٩).

﴿إن يدعون من دونه إلا إناثًا، وإن يدعون إلا شيطانًا مريدًا لعنه الله، وقال لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا، ولأضلنهم، ولأمنينهم، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله. ومن يتخذ الشيطان وليًا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا. يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا﴾. (سورة النساء، الآيات ١١٧-١٢٠).

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ (سورة النحل، الايات ٩٨ - ١٠٠)

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى بعض الملابسات التي أحاطت بأوربا فنفرتها من دينها، وسدت الطريق في الوقت ذاته أمام التأثير الإسلامي، ومنعت أوربا من الدخول في الإسلام.

ولسنا نتحدث هنا عن مسئولية الأوربيين إزاء هذه الملابسات، فقد كانوا على

حق كامل في نفورهم من الدين المحرف الذي قدمته لهم الكنيسة، ومن الطغيان البشع الذي مارسته عليهم باسم ذلك الدين. ولكنهم لم يكونوا على حق في نفورهم من الإسلام - وإن كانت الكنيسة قد شوهته في حسهم - فهم يزعمون أن نهضتهم قامت على أساس تحرر «العقل» من القيود التي كبلته بها الكنيسة، والانطلاق إلى البحث المتحرر من القيود. ولو فعلوا ذلك حقًا لكشفوا زيف ما شنعت به الكنيسة على الإسلام، ولعرفوا حقيقته ودخلوا فيه. ولكن «تحررهم» لم يكن تحررًا حقيقيًّا، إنما هو رد فعل متطرف لأعمال الكنيسة، نافر من الدين جملة، غير راغب في التريث لمعرفة الحق.

كذلك لا نتحدث هنا عن **مسئولية المسلمين في هذا الشأن**، فقد أرجأنا الحديث عن المسلمين إلى الفصل القادم. وإن كنا نقول في هذه العجالة إن مسئوليتهم **هي المسئولية الأولى سواء في بروز الجاهلية المعاصرة أو في سيطرة اليهود** العالمية، كما سنبين في الفصل الخاص بواقع المسلمين.

إنما نكتفي هنا بسرد **العوامل التي أدت إلى سيطرة اليهود**.

وأولها - كما قلنا - **هو نفور الناس في أوربا من الدين**.. وأي فرصة يمكن أن تسنح لليهود أكبر من هذه الفرصة؟!

إن أقصى ما يتمناه اليهود - ويسعون إليه - أن يتخلى الأميون عن دينهم! فإذا كان الأميون - لأي سبب من الأسباب - قد تخلوا عن دينهم من ذات أنفسهم، ودون جهد من جانب اليهود، أفلا تكون هذه فرصة عظيمة لهم، يستغلونها - كعادتهم في استغلال الفرص التي يغفل فيها الأميون - فيذهبوا بها إلى أقصى المدى؟!

ولقد حدث ذلك بالفعل..

واستغلوا الفرصة المتاحة، التي أتاحها لهم نفور الأوربيين من دينهم، فأسرعوا بركوب الحمر المستنفرة، التي فرت من قسورة! إن هدفهم الدائم هو استحمار الأميين وتسخيرهم لمصالحهم. وهاهم أولاء الأميون النصارى قد استحمروا أنفسهم بأنفسم، أفلا يركب شعب الله المختار؟!

وسنحت أول فرصة ـ عظيمة ـ للركوب في **الثورة الفرنسية**.

ويزعم اليهود ـ ويطاوعهم في هذا الزعم «وليم كار» في كتاب «أحجار على رقعة الشطرنج» ـ أنهم هم الذين **أشعلوا** الثورة الفرنسية. وهو قول يحمل نصيبًا من الحق، **وقدرًا كبيرًا من المغالطة!** والأصوب أن نقول إنهم **استغلوا** الثورة الفرنسية استغلالاً جيدًا لتنفيذ مخططاتهم وتحقيق مصالحهم.

إنهم هم الذين أشعلوا الثورة الفرنسية ـ بخطبائهم والخلايا الماسونية المنبثة حينئذ في أرجاء فرنسا ـ بمعنى أنهم وضعوا النار في الوقود القابل للاشتعال. ولكنهم ليسوا هم الذين صنعوا الوقود.. إنما الذي صنع الوقود هو الملابسات التي مرت بها فرنسا ـ وغيرها ـ من ظلم الإقطاع وطغيان رجال الدين.. ولولا ذلك ـ لولا وجود الوقود الجاهز للاشتعال ـ ما استطاع اليهود أن يصنعوا شيئًا مهما أشعلوا من النيران! بل كانت النار التي يشعلونها قمينة أن تأكلهم هم أول المأكولين!

كان الإقطاع قد ثقل حمله على الشعب، يتوجه الملك لويس السادس عشر والملكة ماري انطوانيت، ويزيدان من ثقلته وإرهاقه لكاهل الشعب، وكان الطغيان الكنسي قد بلغ مداه، بمساندة الإقطاع ومحاولة ترسيخه من جهة، ونشاط محاكم التفتيش في مطاردة الناس وإرعابهم من جهة أخرى.

ولم يكن العجب أن يثور الناس ضد هذا الطغيان وذاك، إنما كان العجب أن يرضخوا لكلا الطغيانين كل هذه القرون! ومهما يكن من مفاجأة الثورة للطغاة أنفسهم، الذين ظنوا ـ كما يظن الطغاة دائمًا ـ أنهم قابضون على ناصية الأمر، وأن الأمر لا يمكن أن يخرج من أيديهم أبدًا، ومهما يكن كذلك من مفاجأة الثورة لبلاد أوربا الأخرى، فقد كان كل ذي نظر ثاقب **يتوقع أن يحدث الانفجار في أية لحظة**، وكان الانجليز بصفة خاصة يرقبون الأمور في حذر وإشفاق..

وهنا جاء دور اليهود.. بخطبائهم الذين ألهبوا حماسة الجماهير، ونشاطهم السري في الخلايا الماسونية، ليشعلوا النار في ذلك الوقود الجاهز للاشتعال.

وكان لليهود مأرب واضح في إشعال الثورة.

ففضلاً عن حب اليهود للفتن والثورات عامة ـ أي الحالات التي تعم فيها

الفوضى - لسهولة العمل في وسطها، وتدمير ما يريدون تدميره من مبادىء وقيم وعقائد في ظل الاضطراب الموار الذي يصاحب الثورات، بأيسر كثيرًا مما لو كانت الأمور مستقرة وهادئة.

فضلاً عن ذلك، فقد كانت لهم **أهداف مباشرة**، يحققها لهم الانفجار الذي أشعل الثورة.

كانت الثورة موجهة ضد جهتين بالذات، **رجال الدين، ورجال الاقطاع**.

ومصلحة اليهود في إضعاف نفوذ رجال الدين أوضح من أن تحتاج إلى بيان. فزوال الدين - بصفة عامة - ييسر استحمار الأميين، الذي يسعى إليه المخطط اليهودي، وزوال الدين المسيحي بصفة خاصة ييسر التخلص من الاضطهاد الذي يعانيه اليهود من رجال الدين، ومن المتدينين النصارى عمومًا، بسبب اعتقادهم أن اليهود تسببوا في صلب المسيح.

* أما مصلحتهم في تحطيم الإقطاع فربما **تحتاج إلى بيان**.

كانت الثورة الصناعية تدق أبواب أوربا.. بأيد كليلة في مبدإ الأمر! فلم يكن الناس مقبلين ولا مستروحين للثورة الصناعية في مبدإ أمرها! وكانوا يتوجسون منها ويتوقعون من جانبها الشر.. وأقل الشر محق البركة من حياتهم، لأن الآلة بها مس من الشيطان(١)!

ولكن اليهود كانوا مقبلين على تلك الثورة بعيون متطلعة، وقلوب - أو جيوب - تتلمظ لجمع المال! فقد كانوا هم الذين مولوا الثورة الصناعية - كما سيجيء بيانه - وهم الذين يتوقعون الأرباح!

وكان من أكبرالعقبات أمام الثورة الصناعية **نظام الإقطاع**، الذي يحبس «العمال» عن مراكز العمل في المدن، وهم عبيد للأرض في إقطاعيات أمراء الإقطاع.

وكان لابد لليهود من تحطيم الإقطاع أولاً، حتى يتحرر عبيد الأرض، وتجد

---

(١) كان توجس الناس على حق - رغم سذاجته - فقد محقت الثورة الصناعية البركة من حياة الناس، لا بسبب التقدم الصناعي في ذاته، ولكن بسبب قيام هذا التقدم على قاعدة منحرفة من الأصل، هي التمرد على الله، وعبادة الشيطان.

الصناعة حاجتها من العمال، ينزحون إلى المدينة بعد أن يتحرروا من القيود، وينالوا «حق الانتقال»[1].

ولم يكن عجيبًا والحالة هذه أن يضعوا كل ثقلهم في إشعال الوقود الجاهز للاشتعال، الموجه ضد نظام الإقطاع، والذي يؤذن بانهياره إذا نجحت ثورة «الجماهير»!

ومع وضوح هذه الحقائق بالنسبة للثورة الفرنسية، ومصلحة اليهود في إشعالها، فإن بعض المفتونين «بالديمقراطية» عندنا ـ وهي النظام الذي انبثق عن الثورة ـ يستبعدون ـ أو لا يصدقون أصلاً ـ أن يكون لليهود مصلحة في ذلك النظام، الذي حرر العبيد ـ في تصورهم ـ بدافع الإنسانية البحتة، والذي منح الشعوب المستعبدة كرامة الإنسان!

وهؤلاء نقول لهم: إن الديمقراطية أعطت الشعوب بالفعل حقوقًا وضمانات لم تكن لهم من قبل، وإن هذه الحقوق والضمانات تحقق جانبًا من الكرامة الإنسانية، وتعتبر من أفضل ما تشتمل عليه الجاهلية المعاصرة من نواحي الخير[2].

ولكن نقول لهم مع ذلك إننا يجب أن نجعل بالنا إلى **ثلاث حقائق** في هذا الشأن:

الحقيقة الأولى: أن ما نالته الشعوب من حقوق وضمانات قد نالته **بجهدها ودمائها وتضحياتها**، لا بفضل اليهود!

والحقيقة الثانية: أنه لم يكن بدٌّ لليهود من أن يتركوا الشعوب تنال هذه الحقوق والضمانات ـ سواء استراحت نفوسهم إليها أم لم تسترح ـ في مقابل المكاسب الضخمة التي كسبوها من وراء تحطيم نفوذ رجال الدين وتحطيم الإقطاع مما يعد مكسب الشعوب إلى جانبها شيئًا تافهًا لا يذكر!

---

(١) لم يكن لعبيد الأرض حق الانتقال ولا حتى من الإقطاعية إلى الإقطاعية المجاورة لها إلا بإذن من السيد، وإذا انتقل بغير إذن السيد اعتبر عبدًا آبقًا، وأعيد إلى سيده مكبلاً بالأغلال!

(٢) قلنا في الفصل السابق إن الجاهليات لا تخلو من جوانب خيرة، ولكن هذا الخير الجزئي فيها لا ينفي عنها جاهليتها، ولا يحميها من الدمار.

والحقيقة الثالثة: أن هذه الحقوق والضمانات ذاتها - بل مسرحية الديمقراطية كلها بما فيها من حريات وضمانات وتمثيل برلماني.. الخ - **قد ركب اليهود موجتها، ووجهوها في النهاية لحسابهم الخاص،** وجعلوها جزءًا من **مخططهم** الشرير[1]!

❋ ❋ ❋

ركب اليهود الثورة الفرنسية، ورفعوا عليها شعارهم الماسوني: **الحرية والإخاء والمساواة،** ووجهوها الوجهة التي يريدونها هم، بصرف النظر عن كونها تحقق - أو لا تحقق - مصالح الثوار أنفسهم!

كانت الثورة في أصلها قائمة ضد رجال الدين لطغيانهم وإذلالهم لكيان البشر، سواء طغيانهم الروحي أو المالي أو العقلي.. ومساندتهم لمظالم الإقطاع بحكم أنهم هم أنفسهم من كبار الإقطاعيين! وكان تحطيم هذا الطغيان ضروريًا لتنطلق الحياة في مسارها الطبيعي، ولتتقدم الحياة وتترقى حين تفك عنها الأغلال التي فرضتها الكنيسة وقام على حراستها رجال الدين.

وكانت فرصة سانحة **لتصحيح «الدين»** بعد إزاحة رجاله المحترفين من الطريق، وهم الذين يأمرون الناس بالبر **وينسون أنفسهم،** ويدعون الناس للزهد **وهم غارقون في ترف فاجر** يعف عنه الرجل العادي ولو كان من غير المتدينين!

ولكن اليهود ما كانوا يريدون للناس أن يصححوا دينهم! فهم على العكس من ذلك **يكرهون أن يكون للناس دين،** فضلاً عن أن يكون هو الدين الصحيح، الذي يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحرم عليهم الفساد في الأرض. والدين عامة، **والدين الصحيح خاصة،** عدوهم الأول والأكبر، الذي يسعون إلى إفساده وتدميره، لينهار الحاجز الأكبر الذي يحول بينهم وبين تنفيذ **مخططاتهم** الشريرة من أول التاريخ إلى آخر التاريخ!

لذلك أسرع اليهود بركوب موجة الثورة **ليوجهوها حيث يريدون هم، وحيث تقتضي «مصالحهم»..** فوجهوها ضد الدين ذاته لا ضد رجاله فحسب! وقامت في أوربا أول دولة علمانية لا تجعل الدين قاعدة لحياتها.. وكانت خطوة «إلى الأمام» في

(١) راجع - إن شئت - فصل «الديمقراطية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

تنفيذ المخطط الشرير، ما كانوا ليحلموا بها باليسر الذي تمت به في حُمَّى الثورة، والناس مندفعون في حماسة الانتقام، لا يلوون على أحد ولا يبقون على شيء!

وأصبحت فرنسا من بعد نموذجًا يحتذى. . وكسبت اليهودية معركة من معاركها الحاسمة مع «الدين»!

* * *

ثم جاءت الثورة الصناعية بطوفانها. .

وقد أشرنا من قبل إشارة عابرة إلى أن اليهود كانت لهم «مصالح» في الثورة الصناعية، دعتهم إلى المشاركة في تحطيم الإقطاع، لتحرير عبيد الأرض، وتوجيههم إلى العمل في المدن في المصانع.

فالآن نفصل هذه الإشارة شيئًا من التفصيل.

لقد كانت الصناعة في حاجة إلى تمويل. . وكان المال الوفير الذي يمكن أن يموّل الصناعة في يد فئتين رئيسيتين: رجال الإقطاع، **والمرابين اليهود.**

* **فأما رجال الإقطاع فقد رفضوا أن يدخلوا الميدان** الجديد لأسباب عديدة. منها أنهم «**فلاحون**» وإن كانوا لا يعملون بأيديهم! والفلاح لا يحب أن يغامر باستخدام ماله في غير الدورة الزراعية المألوفة عنده، المعلومة لديه بكل تفصيلاتها، وكل خطواتها الرتيبة الموروثة من آلاف السنين. فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيرًا من الصناعات لم يكن يربح في أول الأمر، بل كان كثير منها يخسر ويفلس، لسوء المواصلات وقتئذ، وقلة إقبال الناس على المصنوعات الآلية خوفًا من محق البركة، وعدم وجود أدوات للإعلان ترغب الناس في الشراء. . وغير ذلك من الأسباب. . إذا أضفنا هذه الملابسات فهمنا لماذا أحجم الإقطاعيون عن التحول من الزراعة إلى الصناعة، وبقوا يتفرجون على الثورة الصناعية من بعيد.

* **وأما المرابون اليهود فقد أقبلوا بصدور منشرحة وأيدٍ ممدودة.** . فقد كانت بالنسبة إليهم فرصة مواتية، لا يغيرون فيها شيئًا من ديدنهم الذي اعتادوا عليه، بل تتسع دائرة أعمالهم اتساعًا هائلاً على نفس المحور الذي يدورون حوله، وهو **الإقراض بالربا!**

إنهم لم يشاركوا بأنفسهم ولا بأموالهم الخاصة (**في مبدإ الأمر**) إنما اشتركوا بالتمويل في صورة قروض ربوية يقرضونها للراغبين مقابل ضمانات، فأما المقترض فهو الذي يواجه المغامرة وحده.. يكسب أو يخسر، أو حتى يفلس. **وأما اليهودي فلا يخسر شيئًا!** فبالضمانات التي أخذها على المقترض يسترد أمواله كاملة، مضافًا إليها المال الحرام الذي يجنيه بالفوائد الربوية.. وذلك فضلاً عن أن المال الذي أقرضه **لم يكن ماله في الحقيقة!** إنما هو مال المودعين الذين أودعوا عنده المال مقابل شيء من الربح. فهو يقرضه للمحتاجين، ويفرض عليهم ما شاء من الربا، فيعطي صاحب الوديعة جانبًا منه ويضع الباقي في جيبه وهو القسم الأكبر، وهو لم يصنع شيئًا في الحقيقة أكثر من نقل المال من مكان إلى مكان، وهو جالس آمن مستريح!

﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابًا أليمًا﴾ (سورة النساء، الآية ١٦١).

أقبل اليهود المرابون على تمويل الثورة الصناعية كما قلنا بصدور منشرحة وأيدٍ ممدودة، تحسبًا للأرباح الضخمة التي سيدرها الربا الصناعي عليهم بعد أن كان الربا في المحيط الفردي هو سندهم الأكبر. وبالفعل انهالت الأموال وتضخمت الجيوب وسعى اليهود إلى جمع الذهب، **معبودهم القديم المتجدد**[1]، وسيطروا من ثم سيطرة واسعة على الحياة الاقتصادية في الغرب، مما أتاح لهم **السيطرة على وسائل الإعلام العالمية، وعلى السياسة العالمية كذلك!**

ولسنا هنا بصدد ذكر التفاصيل، بل نكتفي برءوس المسائل التي توضح لنا أحوال العالم المعاصر، ومن بينها ـ أو قل من أبرزها ـ **السيطرة العالمية لليهود**.

لقد تضخمت ثرواتهم عن طريق الربا المحرم.. ولما تصايحت الكنيسة بأن الربا حرام، صاح اليهود في وجهها ـ ومعهم «**الأمميون**» المستحمرون الذين بدأوا يدورون مغمضي الأعين في دوامة اليهود ـ **إن الصناعة لا تسير إلا بهذه الطريقة، وتلك مسألة اقتصادية، ولا علاقة للدين بالاقتصاد!**

---

(١) عبد اليهود العجل الذهب الذي صنعه لهم السامري، ثم تاب من تاب منهم في حينها، وبقيت عبادة الذهب لا تبارح أجيالهم المتعاقبة!

وأصبح من البديهيات - في حس هؤلاء «الأميين» - أن **الربا هو عماد الحياة الاقتصادية الذي لا يمكن أن تسير بغيره، ولا يتصور أن يكون له بديل!** وأن من يعترض على الربا - الذي هو أساس التقدم الاقتصادي كله في وهمهم - فهو يريد أن يعطل دورة الإنتاج، ويحطم التقدم الاقتصادي، ويقعد بالناس عند حدود العصر الزراعي المتأخر، ويريد لنفسه وبلاده الفقر. وذلك فوق ارتكابه جريمة أصلية، هي انطلاقه في تفكيره من منطلق «الدين».. الدين المنبوذ الذي ثرنا عليه وحطمناه، وانفلتنا من أغلاله الجائرة!!

وانفتحت لليهود - من خلال الثورة الصناعية - أبواب جديدة للشر، لم يتوانوا في استغلالها، وقد اطمأنوا إلى «الغفلة» التي وقع فيها الحراس، حين ألقوا الدين جانبًا، بل فروا منه فرارًا ﴿**كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة**﴾ (سورة المدثر، الآيتان ٥٠ - ٥١).

سهل عليهم **أولاً السيطرة على وسائل الإعلام، والصحافة بصفة خاصة**.

فالصحيفة تتكلف كثيرًا في ورقها وطباعتها والأجور التي تدفعها لتكوين مادتها الصحفية سواء كانت إخبارية أو أدبية أو علمية أو ترفيهية.. الخ. ولو بيعت بالسعر الذي يغطي تكاليفها، ويوفر بعد ذلك ربحًا لأصحابها، لغلا ثمنها وقل توزيعها وضعف أثرها. إنما تستمد تأثيرها الواسع من رخص ثمنها، وقدرة جمهور عريض من الناس على شرائها وقراءتها. والباب الوحيد الذي يغطي هذه النفقات، ويوفر بعدها أرباحًا طائلة، **هو الإعلانات**..

وأيًّا كان المفكر الذي فكر في هذا الباب، يهوديًا أو أميًّا، فقد أتاح للرأسمالية - التي يديرها اليهود مباشرة أو من طريق غير مباشر[1] - أن تسيطر على الصحافة، وتحيطها بأغلال لا قبل لها بها.. فإما **أن «تستقيم» على الدرب المراد لها، وإما أن تمنع عنها الإعلانات فتسقط على الفور!**

وفي لعبة الديمقراطية - التي انبثقت عن الثورة الفرنسية، والتي يعجب

(١) عن طريق «البنوك» التي تقرض المؤسسات الصناعية قروضا ربوية.

المستعبـدون للغـرب حين نقول إن اليهود لهم فيها مآرب متعددة ـ في تلك اللعبة تستخدم «**الجماهير**» أداة سياسية تنفذ عن طريقها مصالح الرأسمالية[1] دون وعي من تلك «**الجماهير**» التي لا تملك من الثقافة ولا من الخبرة ولا من القدرة على التحليل والتقـويم ولا من النظر الثاقب ما تؤدى به المهمة الحقيقية المنوطة بها ـ نظريًّا ـ في الـديمقراطية، وهي «**حكم الشعب بواسطة الشعب**» أو «من الشعب إلى الشعب بواسطة الشعب» كما يعبر أصحاب الديمقراطية أحيانًا! ومن ثم فعمادهم الأول في تكوين أفكارهم ومواقفهم هو **وسائل الإعلام المختلفة، والصحافة في أولها**..

وإذ كان اليهود هم الذين يسيطرون على وسائل الإعلام بطريق مباشر أو غير مباشر، فهم ـ من ثم ـ الذين **يصنعون فكر** «**الجماهير**» أو فكر ذلك الذي يسمونه «**رجل الشارع**» ـ عماد الديمقراطية! ـ وهي تسمية واقعية جدًّا ودقيقة جدًّا.. فهو شخص ليس له موقف ذاتي، ولا عقيدة تبصره بحقائق الأمور. يأخذ فكره وموقفه من «**الشارع**» الذي تصنعه وتسيطر عليه **وسائل الإعلام**..

وعن طريق لعبة «**الجماهير**» تجري لعبة «**السياسة**».. ويديرها اليهود!

إن الـديمقـراطية ـ كما قلت في كتـاب «**مذاهب فكرية معاصرة**» ـ مسرحية جميلة، تتوهم الجماهير من خلالها أنها ذات وزن حقيقي، وأنها هي التي تسند هذا الحزب أو ذاك ليصل إلى الحكم. بينما الأحزاب كلها ـ راضية أو كارهة ـ تدور في رحى الـرأسمالية، وتنفذ لها أغراضها، وتحقق لها مصالحها، ولا يختلف حزب عن حزب إلا في طريقة التنفيذ!

وليست «**الجماهير**» وحدها بطبيعة الحال هي الوسيلة الوحيدة التي يستخدمها اليهـود لتـوجيه «**لعبة السياسة**»، إنما قد تكون هي «**أشرف**» **الوسائل المستخدمة! فالذهب** ـ لشراء الضمائر ـ وسيلة، **والنساء** وسيلة، **والتهديد الخفي والعلني** وسيلة، **واستغلال الشهوات المريضة** ـ ومنها شهوة السلطة ـ وسيلة.. وكلها في النهاية خيوط تمسك بها اليد الشريرة، لتحرك بها سياسة الأرض.. **أرض** «**الأمميين**» المستغفلين!

* * *

(١) راجع إن شئت فصل «الديمقراطية» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

ومن خلال الثورة الصناعية انفتح باب كبير للشر، أطلق عليه اسم **«قضية المرأة»!**

وقد قصصت قصة هذه القضية في أكثر من كتاب، ولكن لابد هنا من تلخيصها في سطور لتكتمل في ذهن القارىء صورة السيطرة الحالية لليهود في كل الأرض.. إلا ما رحم ربك..

حين «*تحرر*» عبيد الأرض بتحطيم الإقطاع، واجتذبتهم الثورة الصناعية إلى المدينة، فرحوا في مبدإ الأمر بالحرية والانطلاق، ولكنهم وجدوا أنفسهم في عبودية جديدة لأصحاب رؤوس الأموال، يشغّلونهم فوق طاقتهم، ويعطونهم من الأجور مالا يقوم بأودهم، فضلاً عن أن يكوّنوا به أسرة، أو ينفقوا على أسرهم التي تركوها في الريف، ومن ثم وجدت نساء في الريف بلا عائل، في مجتمع جاهلي لا يحكم بما أنزل الله، وليس فيه ـ شرعًا ـ من يكفل المرأة في جميع أحوالها، أما أو أختًا أو بنتًا أو زوجة[1].

واضطرت المرأة المتروكة بلا عائل أن تقتفي خطى الرجل إلى المدينة، **لتحصل على لقمة العيش، وإلا تعرضت لأن تموت جوعًا!**

وهناك استغلها الرجل الجاهلي الموجود في المدينة أسوأ استغلال، فشغّلها نفس ساعات العمل وأعطاها نصف الأجر! **فضلاً عن مساومتها على شرفها لتحصل على العمل الذي يوصلها إلى لقمة الخبز.**

وصارت قضية! قضية المساواة بين المرأة والرجل **في الأجر** ما داما يشتغلان معًا في نفس العمل ونفس القدر من الساعات.

وكان هذا مطلبًا عادلاً ولا شك، وإن كانت القضية كلها إفرازًا جاهليًا لا يمكن أن ينبثق من نظام رباني يطبق شريعة الله، ففي الشريعة الربانية المنزلة من عند العليم الحكيم، يوجد دائمًا **علاج للأزمات لا يؤدي إلى الظلم، ولا يؤدي إلى فساد الأخلاق.**

(١) في النظام الرباني يوجد دائمًا كفيل يكفل المرأة في جميع أحوالها لكي لا تتعرض لما تعرضت له المرأة الأوروبية «المتحررة»! وحين لا يوجد كافل من أقربائها يكفلها بيت المال.

ولم يستجب الرجل الجاهلي لصراخ المرأة بطلب المساواة في الأجر، فانتدب أنْفُسَهم لها محامون يدافعون عن «**قضية المرأة**» من الكتاب والخطباء والصحفيين وغيرهم. . بعضهم حسن النية بلا شك، لا يرضى ضميره بالظلم، وبعضهم **يصطاد في الماء العكر**. . لأمرٍ يراد.

ونصحت المرأة أن الظلم الواقع عليها سببه **جهلها وجلوسها في بيتها، وخضوعها لقوامة الرجل، وعدم اشتغالها بالقضايا العامة، وعدم مشاركتها في أمور المجتمع**. . فلا بد من إزالة هذه الأسباب كلها لرفع ذلك الظلم.

وتوسعت القضية وتعددت أبعادها. . وطولب لها - على التوالي - **بحقها في التعليم، وحقها في وظائف الدولة، وحقها في الانتخاب، وحقها في الترشيح للبرلمان، وحقها في «الولاية» العامة**.

ومن خلال التعليم - **التعليم الجامعي بصفة خاصة** - ولدت قضية **الاختلاط**.

وسواء أكانت داخلة في التخطيط في أذهان المخططين من مبدإ الأمر أم جاءت في الطريق، فقد استغلها المخططون **أسوأ استغلال ممكن**، وجعلوها الأداة الكبرى لإفساد المجتمع كله من أيسر سبيل!

الإفساد هو المطلوب. .

وقد تحول مجتمع الثورة الصناعية إلى طبقات ثلاث، بعد أن كان المجتمع الزراعي طبقتين اثنتين[1] - فكان هناك طبقة الرأسماليين (**الطبقة الأرستقراطية**) وطبقة العمال، وطبقة جديدة تولدت من الظروف الجديدة أطلق عليها اسم **الطبقة الوسطى**، تتكون أساسًا من أصحاب الحرف وخريجي المدارس والجامعات وموظفي الدولة، الذين لا تصل دخولهم أن ترفعهم إلى مستوى الأرستقراطية، ولا هم في الوقت ذاته من الفقراء الكادحين الذين يعملون بأيديهم.

وكان المطلوب هو إفساد الطبقات جميعًا، لإفساد المجتمع كله. .

* **فأما الطبقة الرأسمالية** - التي ورثت الإقطاع - **فهي فاسدة بحكم الترف**

(١) هما طبقة رجال الإقطاع (ومعها رجال الدين) وطبقة الشعب.

والترهل وسهولة الحصول على المال الوفير، وقد أعد اليهود لها ما يلزمها من **فنون البغاء** «**الأرستقراطي**» الذي يصل معظم ماله في النهاية إلى جيوبهم، كما أعدوا لها من أدوات الترف والزينة **و«الاستمتاع»**، ما يمتص أموالهم ويحولها إلى جيوب اليهود من جهة، ويمتص آدميتهم من جهة أخرى، ويجعلهم حميراً طيعة لشعب الشيطان.

* **وأما طبقة العمال** - الذين كانوا في أصلهم فلاحين محافظين شديدي المحافظة - فقد أفسدوا في المدينة **بحرمانهم من فرص الزواج النظيف من جهة**، لقلة أجورهم، وعجزهم عن إعالة أسرة في المدينة الغالية التكاليف، **وبتيسير البغاء الرخيص من جهة أخرى**، من بين العاملات اللواتي سقطن في حبائل الرجل الجاهلي ليحصلن على لقمة العيش..

* وبقيت الطبقة الوسطى، وهي أحد أعمدة «**السياسة**» في لعبة الديمقراطية. ولم يكن بد من إفسادها هي الأخرى لكي يتم للشيطان ما يريد.

ووجد الشيطان وسيلته السهلة الميسرة لإفساد هذه الطبقة على مبدإ **التدرج البطيء الأكيد المفعول**: Slow but sure وكانت تلك الوسيلة الميسرة هي **الاختلاط في معاهد التعليم، الذي يؤدي بدوره إلى الاختلاط في المجتمع الكبير**.

وما بنا أن نعيد الكلام في قصة الاختلاط فهي معروفة[1] **اختلاط** «**بريء**» في مبدإ الأمر، ينقلب مع الزمن إلى فساد غير بريء.. وينظر المجتمع إلى الفساد بعين الاستنكار في مبدإ الأمر، **وخاصة فساد المرأة**، ولكن الأعصاب بعد حين تتبلد، وتلاحق المرأة الرجل في كل شيء، بدعوى «**المساواة**»، فإذا تم فساد الرجل وأصبح أمرًا متعارفًا عليه، طالبت المرأة بحق الفساد مثله تحت عناوين متدرجة، تبدأ بحق لا غبار عليه، هو حق **اختيار الزوج**، وتنتهي بحق **اختيار العشيق**[2]، أو «حق المرأة **في أن تهب نفسها لمن تشاء**».. وتصبح «الأخلاق» التي كانت من قبل مبدأ متفقًا عليه، أمرًا مستهجنًا من الجميع، لا ينادي به إلا الرجعيون المتزمتون، وتذهب

---

(١) إقرأ إن شئت عن هذه القصة فصل «دور اليهود في إفساد أوربا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢) هذا هو المعنى الحقيقي من وراء ما يسمونه «الصداقة» و«الصديق» و«الصديقة».. ولفظه الصحيح في اللغة هو «المخادنة» كما في قوله تعالى: ﴿غير مسفحين ولا متخذي أخدان﴾. (سورة المائدة، الآية ٥).

صيحاتهم - إن فكروا أن يصيحوا - أدراج الرياح!

ومن خلال قضية «**الاختلاط**»، وقضية «**تحرير المرأة**» وقضية «**المساواة**»، وقضايا أخرى مماثلة، انفتحت أمام المخططين أبواب كثيرة من الشر، تولت **وسائل الإعلام** - التي يملكها اليهود - الترويج لها، والدفاع عنها، وتقديمها للناس على أنها «**أخلاقيات**» **العصر الصناعي** «**المتطور**».

ولا نريد أن نسبق الحديث عن «الثورة الداروينية» واستغلال اليهود لها في إفساد المجتمع الأوربي، فسيأتي الكلام عنها بعد قليل، ولكنا نريد هنا فقط أن نثبت **دور وسائل الإعلام - والصحافة خاصة - في الترويج لأبواب الشر التي انبثقت عن الاختلاط وتحرير المرأة**، وتقديمها للناس لا على أنها شرور وافدة، بل على أنها «تطور حضاري» و«حسنات» ينبغي الحرص عليها والاستزادة منها!

لقد تحول المجتمع إلى فتنة موارة.. كل إنسان فيها يبحث عن «**المتاع**»! Enjoy yourself

والرغبة في المتاع الزائد عن الحد كما أشرنا من قبل ميراث كريه ورثته الجاهلية المعاصرة من كلتا الجاهليتين الإغريقية والرومانية، والرومانية خاصة، ولكن اليهود عمقوا هذه الرغبة لحسابهم الخاص، حتى حولوا المجتمع إلى **ماخور كبير يعج بالفساد**، تفوح منه رائحة الدنس المنتن، ومع ذلك تظل «الديدان البشرية» تسرح فيه وتروح، غير شاعرة بالنتن، بل مستعذبة إياه!

وكان لليهود **مأربان مباشران** على الأقل من هذا الدنس الذي تحول إليه المجتمع الغربي.

الأول تحطيم حاجز «**الأخلاق**» وهو أحد الحواجز الواقية للإنسان من أن «يُسْتَحْمر» ويركبه الشيطان. وكان تحطيمه - بعد تحطيم الدين - من أعز الأماني التي يسعى إليها «شعب الله المختار».

والثاني ترويج «**الأزياء**» **وأدوات الزينة للمرأة المتبرجة** التي تريد أن تتجمل لتلفت أنظار الرجل الباحث عن المتعة، ليغرقا معًا في المتاع الدنس، ويذهب المال إلى اليهود، فهم أصحاب بيوت الزينة الكبرى وبيوت الأزياء!

ولكن الشر الذي نتج عن هذه الفتنة كان أوسع بكثير مما يخطر على البال لأول وهلة.

فمن عادة الحس البشري أن يتبلد على أنواع المتاع التي يعتادها، فيبحث دائمًا عن الجديد.

وحين يكون الإنسان كما خلقه الله «**في أحسن تقويم**» يكون مشغولاً - إلى جانب المتاع الحسي - **بقيم عليا تستنفد الطاقة الفائضة** وتستعلي بها إلى آفاق رحبة، تغني نفسه عن طلب التنويع في متع الحس القريبة، وتجعله يقنع منها بالضرورات. أما حين ينسى قيمه العليا، ويستغرق في متاع الحس، ويوجه إليه همه كله أو جله، فإنه يصبح **منهومًا لا يشبع**، ويحتاج في الوقت نفسه إلى التنويع المستمر ليذهب عن نفسه ملال التكرار!

وحين هبط اليهود بالأمميين إلى هذا الدرك - أو في القليل عمقوا فيهم ما كانوا قد ورثوه من استعدادات - فقد أسرعوا يلبون «**حاجتهم**» إلى التنويع.. وهم الكاسبون دائمًا من وراء كل تنويع! وتحول المجتمع - على أيديهم - إلى **ملهاة كبرى، إلى جانب تحوله إلى ماخور كبير**.. فإلى جانب جنون «المودة» **(جنون الأزياء)** وجنون الزينة **(التبرج)** أوجدوا **جنون السينما وجنون التليفزيون، وجنون الفيديو، وجنون الكرة، وجنون العري، ومسابقات الجمال**.. ومئات أخرى من فنون اللهو العابث التي لا تليق بالبشر الأسوياء، ولا ينغمس فيها «**إنسان**» يعي حقيقة إنسانيته، ويدرك غاية الوجود البشري في الأرض.

وصحيح أن هؤلاء القوم يبذلون في ساعات العمل **جهدًا جادًا لا هزل فيه**، وينتجون إنتاجًا ضخمًا بذلك الجهد، ولكن لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنه إنتاج مادي في معظمه، لا يقيم - وحده - حضارة، ولا يلبي - وحده - حاجات الإنسان الفطرية، المكون من جسد وعقل وروح، لكل منها متطلباتها، ولكل منها غذاؤها الذي يجب أن يقدم لها لتنمو وترتقي.

ولا يغيب عن بالنا كذلك أن المخططين الأشرار **لا مصلحة لهم** - حتى الآن - في تدمير **ذلك الإنتاج**، ولا تدمير الجهد الجاد الذي يبذل فيه، لأن جزءًا كبيرًا من

أرباحه يدخل في النهاية في جيوبهم، ولأن جزءًا غير قليل منه ينفق في إنتاج الملهيات التي يلهّون بها الأمميين!

إنما نحن ننظر إلى «الإنسان» في النهاية.. أين هو؟

يعمل في جد صارم سحابة يومه في الإنتاج المادي، وينفلت بعد ساعات العمل إلى الملهاة الكبرى والماخور الكبير، فلاهو يحقق إنسانيته وهو يعمل في الصباح كالآلة، ولا هو يحققها حين ينفلت إلى اللهو والفجور في الليل أو في أيام العطلة.. إنما هو في مجموعه **آلة حيوانية**، **أو حيوان آلي**.. سهل التسخير للشعب الشرير!

* * *

وكان من أعقاب تلك الفتنة كذلك **تحطيم الأسرة**..

والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي أوجده الله في الفطرة لتنشئة أطفال أسوياء يعمر بهم وجه الأرض. وهي ذات تكاليف: نفسية وعصبية ومالية واجتماعية.. ولكن الناس يُقْبِلون ـ بالفطرة ـ على أداء هذه التكاليف **حين يكونون على فطرتهم السوية**، لأن الله الخالق المبدع أودع ذلك في فطرتهم.

أما حين تنتكس تلك الفطرة، ويكون «**الاستمتاع**» هو همها الأكبر، فإنها **تستثقل هذه التكاليف** لأنها تحد من الاستمتاع أو تقلص حجمه، فينفر الناس من الزواج والأسرة ويفضلون عليها الدنس المنتن الذي يسمونه «**الصداقة**».. وحتى إذا تزوجوا ـ بعد فترة غير قصيرة من الدنس واللهو ـ فإنه لا يكون ذلك الزواج الهادىء المستقر المأنوس الدافىء بالعواطف، الذي يتعلم فيه الطفل البشري معنى بشريته[1]!

وبالنسبة **للمرأة بالذات** تكالبت عدة عوامل **لتنفيرها من البيت**، ومن وظيفتها الفطرية التي هيأها الله لها جسدًا وقلبًا وعقلاً وروحًا وكيانًا شاملاً.. وكانت تلك العوامل إما من تخطيط الشعب الشرير، وإما مما استغله الشريرون لإفساد البشرية.

---

(١) سبق أن أشرنا في الفصل السابق إلى منهج التربية الذي تمارسه الجاهلية المعاصرة، وأنه يخرج إنسانًا مجدًا عاملاً مثابرًا جلدًا ذا طبيعة عملية ورؤية واقعية.. الخ. ولكنه يقف عند حدود الحياة الدنيا فيختل توازنه، ثم يضاف إليه حرية اللهو والمجون وحرية الإلحاد فتفسد بشريته.

لقد كان مما نفرها من البيت تعيير الجاهلية لها ـ في فترة الظلم الذي كان واقعًا عليها ـ بأنها **قعيدة البيت**، تحمل وتلد وترضع، ولا شأن لها ولا دراية بالحياة العامة التي يختص بها الرجل. وكان رد الفعل ـ الجاهلي ـ في نفسها هو **كراهية البيت والنفور من البقاء فيه!**

وكلا الوضعين **إفراز جاهلي مختل**، سواء تعيير الرجل للمرأة بوظيفتها، أو رد الفعل النافر من الوظيفة الفطرية.

وتصحيح الاختلال الأول ـ الذي أفرزته الجاهلية ـ لم يكن يقتضي بالضرورة إيجاد اختلال مقابل! ولكن **هكذا تصنع الجاهلية دائمًا في غيبة المنهج الرباني**: تصحح اختلالاً باختلال مقابل، وتنتقل من طرف إلى الطرف الآخر، دون أن تتوقف عند نقطة الوسط الموزونة التي يتوازن عندها كيان الإنسان. **ويجيء دور اليهود دائمًا** بتعميق الخلل الذي تفرزه الجاهلية، وإبعاد الناس عن الرؤية الصحيحة والمنهج الصحيح[1]، لئلا يسترد البشر بشريتهم، فيتمردوا على «شعب الله المختار»!

وكان من أدوات التعميق التي استخدمها المخططون **«ترجيل المرأة»** من خلال مناهج التعليم، التي تعلم المرأة على منهج الرجل، المعد أصلاً ليناسب احتياجاته ووظيفته، لا احتياجات المرأة ووظيفتها. وكذلك من خلال **تشغيل المرأة في جميع المجالات التي يعمل فيها الرجل** بحجة المساواة التامة في كل شيء. وحين تسترجل المرأة فإنها تصبح مثله، لا تطيق البقاء في البيت إلا ريثما تستريح وتستعد لجولة جديدة من العمل والإنتاج.

وكان من أدوات التعميق كذلك **بث روح «الزمالة»** في أثناء الدراسة ـ والدراسة الجامعية خاصة ـ **بين الفتى والفتاة** على أساس فكرة المساواة التامة **في كل شيء**. فإذا قضت سنوات الدراسة «زميلة» للفتى «وصديقة له» أو «خدينة».. ثم جاء يتزوجها ـ إن عنّ لهما أن يتزوجا ـ فأي مفاجأة «سخيفة» يفاجئها بها حين يطلب منها ـ فجأة ـ أن يكون **قيمًا عليها**، وقد قضت معه تلك السنوات كلها بلا قوامة؟!

(١) لما كتب ألكسيس كاريل كتابه الجيد «الإنسان، ذلك المجهول» وتحدث فيه عن أنوثة المرأة ووظيفتها الفطرية، قالت الجاهلية عنه إنه مجنون!! ونبذت دعوته.

وما الفرق بين ما كان من علاقة بينهما[١]، وبين تلك العلاقة الجديدة التي يطلق عليها اسم «الزواج»؟ كلا! إنه لا قوامة للرجل عليها، ولا ميل في نفسها للبيت، إذا كان معنى البيت هو قوامة الرجل عليها!

ثم إنها لم تكن زميلته في الدراسة وصديقته وخدينته فحسب، بل إنها تتكسب كذلك، وتنفق من كسبها على البيت «المشترك». . فليكن البيت الحديث إذًا **بلا قوامة، وإلا فلا ضرورة للبيت على الإطلاق!**

وانصب ذلك كله على الأسرة فحطمها. ونسب الأمر إلى الثورة الصناعية! والحق أنه من نتاج المخطط الشرير!

وحين كسب اليهود معركتهم ضد «**الأسرة**» - وهي كالدين والأخلاق من ألد أعدائهم، لأنها من الحواجز التي تمنع استحمار البشر وتسخيرهم - امتد الشر إلى جوانب جديدة، ربما لم تكن في ذهن المخططين من أول الأمر، ولكنها جاءت في الطريق. .

فظاهرة تشرد الأطفال، وجنوح الأحداث، وانتشار المخدرات بين الأطفال والمراهقين، جاءت كلها نتيجة غياب «**الأم المتفرغة**» من البيت، وغياب سيطرة الأب على الأسرة (**أي غياب قوامة الرجل**) كما تقول دراساتهم هم أنفسهم بعبارات مباشرة أو ملفوفة. فإذا أضيف إليها تزايد ظاهرة الشذوذ - وهي إفراز جاهلي تتسبب فيه عدة عوامل، من أبرزها ترجيل المرأة وإلغاء قوامة الرجل وتمييع رجولته[٢] - فقد ارتسمت صورة كئيبة للمجتمع، مآلها الحتمي إلى الدمار!

* * *

وليس الصغار وحدهم بطبيعة الحال هم الذين أصابهم ما أصابهم بسبب تفكك الأسرة، وفقدان السكن والسكينة التي منّ الله بها على عباده:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم

(١) لا نقصد هنا علاقة فرد معين من الرجال بفرد معين من النساء. إنما نقصد علاقة جنس الرجال بجنس النساء.

(٢) من العوامل الأخرى الترف والترهل والرغبة في «التنويع». . ولكن العامل الرئيسي هو ترجيل المرأة واستئناث الرجل.

مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (سورة الروم، الآية ٢١).

فالحالات التي أشرنا إليها في الفصل السابق: حالات القلق والانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة، التي تؤكد إحصاءاتهم أنها تتزايد باستمرار، هي نتاج مشترك لعدة عوامل في وقت واحد، ولكنها متأثرة ابتداء **بفقدان السكينة** في داخل الأسرة، **والشقاء** الذي يحسه الرجل والمرأة كلاهما سواء بقيا في علاقات «**حرة**» بغير زواج، أو تزوجا ودارت بينهما المعارك الخفية أو المعلنة على «**السيادة**»، أو تزوجا وأحسا بالملال في بيت الزوجية بعد الحياة الصاخبة التي عاشها كل منهما وهو «**يستمتع**» بلا حدود، فيحن كل منهما إلى هجر البيت والعودة إلى حياة المتاع![1].

* * *

ولا تكتمل صورة الإفساد الذي بثه المخططون الأشرار دون أن نضيف إليه عاملاً قد يبدو اقتصاديًا بحتًا في ظاهر الأمر، ولكنه ـ ككل شيء ـ **اقتصادي اجتماعي أخلاقي نفسي فكري في ذات الوقت!**

ذلك هو **الهبوط المستمر في أسعار العملة والغلاء المتزايد في أسعار الأشياء**، والتزايد المستمر في الأشياء التي تبدأ كماليات، ثم تتحول مع الزمن إلى ضروريات.

إن هذا لا يحدث بصورة تلقائية.. **إنما هو مخطط**.. ومخطط على يد الأشرار! ولهم فيه مآرب شتى!

* فمن مآربهم **شغل الناس مشغلة دائمة بأمور الحياة اليومية**، وبالجانب المادي من حياتهم بصفة خاصة بحيث لا يفيقون من الدوامة، ولا يتنبهون لما يجري حولهم ولا ما يراد بهم، «**فالغفلة**» هي الحالة المطلوبة في الأمميين، لكي ينفذ «شعب الله المختار» مخططه وهو آمن. وجزء من الغفلة المطلوبة يتم في الحانات والمواخير وعلب الليل ووسائل «الترفيه» ووسائل اللهو العابث، **وجزء آخر يتم في ساعات «اليقظة»!** حين تصحو عقولهم فتفكر، فيشغلونها بالتفكير **في مطالب الحياة وغلاء**

---

(١) اقرأ وصفًا دقيقًا لهذه الأحوال في كتاب «مباهج الفلسفة» للكاتب الأمريكي «ول ديورانت» ص ١٢٦ ـ ص ٢٣٦ من الترجمة العربية.

الأسعار وانخفاض القوة الشرائية للعملة، والبحث الدائم عن موارد جديدة لزيادة الدخل. . فإذا ارتفع الدخل - مع الكد المتواصل - التهمت الزيادةَ مستحدثاتٌ جديدة مما ينزل في السوق، مما يبدو كماليًّا في مبدإ الأمر ثم يتحول إلى أمر ضروري! ويعمل «**الإعلان**» عمله في إغراء الناس بالشراء، وإيهامهم أن راحتهم لن تتم حتى يشتروا هذا أو ذاك:

والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع!

والقناعة في الأمميين ليست من مصلحة الشعب المختار. لذلك لابد من الترغيب الذي يصل إلى درجة الهم المقعد المقيم!

* ومن مآربهم كذلك **تشغيل المرأة لكي تنصرف عن الأسرة والبيت!**

فإنه كلما ارتفعت تكاليف الحياة أصبح دخل الرجل وحده غير كافٍ، وأصبح من الضروري أن تعاونه المرأة لسد العجز. فكيف تستطيع معاونته إلا بالعمل؟!

وهكذا يبدو عمل المرأة «**ضرورة**»! ويبدو عدم قيامها بهذه الضرورة نكولاً عن واجب!! ويتجه بحث الرجل - حين يريد أن يتزوج - إلى **المرأة العاملة ذات الدخل**، ومن جانبها تجد فرصة الزواج أيسر حين تكون عاملة! فإن لم تكن عاملة فقد لا تجد الزوج أبدًا. . وعندئذ يتعين عليها أن تعمل لكي تعيش، لأنه لا عائل لها ولا كفيل!

وحين تعمل المرأة، ويصبح عملها في نظرها ونظر المجتمع كله ضرورة، تنفتح أبواب الشر التي ألمحنا إليها من قبل: تترك التفرغ للأمومة ورعاية النشء، فيتشرد الأطفال نفسيًّا مهما أغدق عليهم من المال، ومهما وضعوا في المحاضن للرعاية نيابة عن الأم[1]، وينفق مزيد من المال لشراء الأدوات التي تعوض عدم وجود الأم العاملة في البيت، وقد كان وجودها في البيت قمينًا أن يوفر جانبًا من هذا المال، كما ينفق جانب منه في أدوات الزينة وشراء الملابس المتمشية مع «**المودة**»، وهي دائمة التغير، بحجة أن المرأة تشتري من كدّها الخاص، فمن حقها أن تشتري كما تشاء. . **فينفق المال، وتتبرج المرأة، ويربح اليهود!**

---

(١) اقرأ في هذا الشأن كتاب «أطفال بلا أسر» من تأليف أنّا فرويد.

وإذا كان هذا القدر كله من الشر قد «كسبه» اليهود من استغلال الثورة الصناعية، فنحن لم نتحدث بعد عن «مكاسبهم» من استغلال «**الثورة الداروينية**»!

وإذا كانت الحركة الصناعية قد سميت «ثورة» بسبب عنف التغييرات التي أحدثتها في حياة البشر، وهي لم تسفك دمًا ولم تطلق طلقة، فأحرى بالنظرية الداروينية أن تسمى **ثورة** كذلك، لأن آثارها في الفكر الأوربي والحياة الأوربية **أشد من أي ثورة حقيقية** بما في ذلك الثورة الفرنسية.

بل إن أعنف ثورة في التاريخ الحديث ـ وهي الثورة الشيوعية في روسيا ـ **إن هي إلا واحدة من آثار الثورة الداروينية** بعد أن استغلها اليهود، وصنعوا منها مادة متفجرة قادرة على تحطيم كل شيء.

ولقد تحدثنا في غير هذا الكتاب عن الداروينية وإيحاءاتها وآثارها، واستغلال اليهود لها[1]، ولكنا مضطرون إلى ذكرها هنا مرة أخرى ملخصة، لكي لا نشغل القاريء عن متابعة البحث الحاضر بإرجاعه إلى بحث آخر سابق.

* نشر دارون نظريته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخلاصتها أن الكائنات الحية تدرجت من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان، عبر مراحل «**تطورية**» متعددة، فكانت طحالب ثم نباتات، ثم نباتات شبيهة بالحيوان (كالهيدرا) ثم حيوانات شبيهة بالنبات كالمرجان، ثم حيوانات لا فقارية (كالديدان والحشرات) ثم فقاريات دنيا (كالأسماك والطيور والزواحف) ثم ثدييات دنيا ثم ثدييات عليا، ثم قردة، ثم قردة عليا، ثم تأتي حلقة مفقودة (هي الإنسان القرد) **ثم يجيء الإنسان**..

وتشتمل النظرية ـ وهي في الحقيقة **مجرد فرض** لم يرتق لأن يكون نظرية ـ على مجموعة من المقررات، كالقول بأن «**الطبيعة**» تخلق كل شيء و لا حد لقدرتها على الخلق، وأنها مع ذلك تخبط خبط عشواء، وأن خلق الخلية الحية من الجماد تم بطريق «**الخلق الذاتي**» دون تدخل من الإرادة الإلهية، وأن التطور يهدف دائمًا إلى ترقية الكائن الحي، وأن الحياة كلها **صراع بين الكائنات، وأن البقاء في هذا الصراع للأصلح**، بمعنى الأنسب للظروف القائمة من حوله، أي للبيئة المادية التي تقرر

(١) راجع إن شئت كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» فصل «دور اليهود في إفساد أوربا».

وحدها شكل التطور وحجمه ووجهته، بطريقة حتمية لا إرادة فيها للكائن الحي.

وما بنا هنا أن نناقش شيئًا من مقررات النظرية ولا حتى إيحاءاتها. إنما نحن هنا معنيون بشيء واحد: هو **استغلال اليهود لهذه النظرية على نطاق واسع لتنفيذ مخططاتهم الخاصة**.

تقول البروتوكولات: «نحن رتبنا نجاح دارون ونيتشه. وإن تأثير أفكارهما على عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد»[1].

وبصرف النظر عن مدى حجية كتاب البروتوكولات من الناحية الوثائقية، وهل هو بالفعل يحتوي على أقوال اليهود بنصها، أم إنه ترجمة لأفكار اليهود ومخططاتهم كتبها أحد العالمين بأحوالهم ونسبها إليهم.. بصرف النظر عن ذلك فنحن نعتبره معبّرا بصدق عن المخططات اليهودية، **لأن كل ما جاء فيه بلسان المستقبل**: سنفعل كذا ونفعل كذا، قد فعلوه بالفعل وتم تنفيذه![2]

قالوا: **سننشر الإلحاد**، ونشروه. وقالوا: **سننشر الفساد الخلقي** ونشروه. وقالوا **سنستولي على الصحافة العالمية** ونوجهها كما نشاء وفعلوا.. الخ.

ومن هنا ننظر إلى ترويجهم لأفكار دارون على أنه حقيقة. ويكفي أن تكون نظريته تدرس في كل بلاد العالم لا على أنها فرض علمي - كما هي في الحقيقة - ولا حتى على أنها نظرية تحتمل الخطأ والصواب، ولكن على أنها **حقيقة علمية**، على الرغم من كل الآراء المعارضة لها على ألسنة علماء متخصصين في علوم الحياة!

لقد وجد فيها **اليهود** سندًا ضخمًا لكل ما يريدون تحقيقه من الشر!

وجدوا فيها - ببساطة - سندًا لتثبيت **كل ما أحدثوا من الفساد في المجتمع الأوربي**، لا على أنه «فساد» ولكنه على أنه «**تطور**»! تطور «**حتمي**» كان لابد أن يقع، ولا قبل لأحد بوقفه أو تغيير وجهته!

---

(١) البروتوكول رقم (٢) من بروتوكولات حكماء صهيون. راجع الترجمة العربية لمحمد خليفة التونسي ص ١١٣.

(٢) صدرت أول طبعة من البروتوكولات سنة ١٩٠٢م وكل ما جاء فيها بصيغة المستقبل تم تنفيذه خلال السنوات التالية.

كما وجدوا فيها ـ بنفس البساطة ـ سندًا لكل ما يمكن أن يحدثوه من **الفساد في المستقبل**، على نفس القاعدة: أنه تطور حتمي!

ولا شك أنها عملية بارعة.. ولكنها براعة شريرة!

مما يتندر به أن رجلاً جاء يعرض على أحد الخلفاء العباسيين لعبة بارعة، أن يثبت إبرة في الأرض، ثم يرمي وهو واقف إبرة أخرى فيدخل سنها في فتحة الإبرة المثبتة في الأرض، ثم يرمي أخرى وثانية وثالثة حتى المائة، كل إبرة تدخل في فتحة سابقتها! فلما قام بالتجربة بنجاح أمر له الخليفة بمائة دينار ومائة جلدة! فلما سأل مفزوعًا عن السبب، قال له: مائة دينار **لبراعتك**، ومائة جلدة **لاستخدام هذه البراعة فيما لا طائل وراءه!**

فإذا كان ذلك الرجل قد استحق مائة جلدة على استخدام براعته في أمر لا طائل وراءه ولكن لا ضرر منه.. **فكم جلدة يستحق اليهود على استخدام براعتهم في نشر الشر وتثبيته على أوسع نطاق في الأرض؟!**

لقد برز ثلاثة من «**عباقرتهم**» كل واحد **ينهش نهشة من الداروينية** ويكون منها في مجال بحثه نظرية خاصة، والنظريات الثلاث كلها موجهة **لهدم الدين والأخلاق، والتقاليد المستمدة من الدين**، الأعداء الثلاثة الألداء لشعب الله المختار!

ماركس.. وفرويد.. ودوركايم..

الأول أحدث نظرية اقتصادية اجتماعية سياسية فلسفية هي **المادية الجدلية** التي انبثق عنها التفسير المادي للتاريخ، وانبثقت عنها **الشيوعية**.

والثاني أحدث **نظرية نفسية** يمكن أن نطلق عليها: «**التفسير الجنسي للسوك البشري**».

والثالث أحدث نظرية في علم الاجتماع أبرز ما فيها «**العقل الجمعي**» الذي يحرك الأفراد من خارج كيانهم بصورة حتمية، والذي هو في الوقت ذاته دائم التقلب لا يثبت على حال.

ولن نناقش هنا نظرياتهم، فقد ناقشناها في كتب أخرى[1].

(١) انظر إن شئت كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» فصل «دور اليهود في إفساد أروبا» أو كتاب «التطور والثبات في حياة البشرية» فصل «اليهود الثلاثة».

إنما نجتزىء هنا بنقطة واحدة معينة تجمّع عليها «**العباقرة**» الثلاثة، كلٌّ من موقعه، كأنه مدفعية ضاربة، يدق تلك القلاع الثلاث: الدين، والأخلاق، والتقاليد المستمدة من الدين.

قال فرويد إن الطاقة الحيوية في الإنسان هي **طاقة جنسية بصفة رئيسية**، تولد مع الطفل، فيرضع بلذة جنسية، ويمص إبهامه بلذة جنسية، ويحرك أعضاءه بلذة جنسية، ويتبول ويتبرز بلذة جنسية، ويحس الولد ـ الذكر ـ بعشق جنسي نحو الأم، ثم «يكبته» بسبب الخوف من الأب، فتنشأ في نفسه «عقدة» تسمى عقدة أوديب، هي منشأ الدين والأخلاق والتقاليد، ومنشأ الضمير (وتقابلها عقدة «إليكترا» عند الطفلة)[1] وأن هذه العقدة تسبب عند المراهقين والشباب أمراضًا نفسية وعصبية منشؤها الكبت الجنسي، **وعلاجها الانفلات من قيود الدين والأخلاق والتقاليد والضمير!**

والهدف واضح من هذه «النظرية» التي لا تعتمد على أساس علمي على الإطلاق! فإن لم يكن الهدف واضحًا فلنرجع إلى البروتوكولات!

يقول البروتوكول الرابع: إن فرويد منا، **وسيظل يعرض أمور الجنس في وضح الشمس حتى لا يخجل الشباب من نشاطه الجنسي**.

مفهوم..؟

وهنا قد يقول قائل «رجعي» إن هذا فساد لا يليق بالكائن الإنساني..

عندئذ يسرع إليه **ماركس** فيقول: إن هذا ليس فسادًا ولكنه تطور. **تطور حتمي!**

ويزيد الأمر شرحًا فيقول: إن «البناء الفوقي» من عقائد وأفكار ونظم ومؤسسات إن هو إلا انعكاس للطور المادي الذي يكون فيه الإنسان. والطور المادي يتطور بصورة حتمية، ومن ثم يتغير البناء الفوقي تبعًا لذلك. فتتغير العقائد والأفكار والأخلاقيات والتقاليد ويستبدل بها غيرها مما يكون مناسبًا للطور الجديد. **ولا يمكن من ثم أن يكون هناك ثبات في العقائد ولا الأفكار ولا الأخلاق**.

(١) عقدة عشق الأب.

ثم يركز على أخلاقيات الجنس بالذات، فيقول إن العصر الزراعي ـ المتأخر ـ كانت قضية العفة فيه ذات شأن كبير، لأنه كان عصر سيطرة الرجل، بوصفه هو المتكسب الذي ينفق. أما الآن فقد تحررت المرأة اقتصاديًا **ففقدت قضية العفة قيمتها التي كانت لها في العصر الزراعي**، إذ لم يصبح للرجل سيطرة على المرأة، وأصبح من حقها ـ بعد التحرر الاقتصادي ـ أن تهب نفسها لمن تشاء.. فنشأت «أخلاقيات» جديدة تناسب العصر الصناعي المتطور.. قائمة على «العلاقات الحرة» بين الرجل والمرأة![1]

أرأيت..؟!

ثم يأتي **دوركايم** فيساند القضية من جانب آخر.

يقول في كتابه «**قواعد المنهج في علم الاجتماع**»: «ومن هذا القبيل (أي من قبيل تفسير السلوك البشري بأنه فطري) أن بعض العلماء يقول بوجود **عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان**، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء، وغير ذلك من العواطف. وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من **الدين والزواج والأسرة** على هذا النحو. ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات **ليست فطرية في الإنسان**»[2]!!

وهكذا تلتقي النظريات الثلاث وتتساند.. تلتقي كلها عند ضرب الأعداء الألداء للمخطط اليهودي: الدين، والأخلاق، والتقاليد المستمدة من الدين، وهي تشمل فيما تشمل: الزواج والأسرة وأخلاقيات الجنس!

* * *

لقد كان استغلال اليهود لقضية التطور، وقضية التفسير الحيواني للإنسان، الذي تضمنته نظرية دارون، **بارعًا** إلى أقصى حد، **وماكرًا** كذلك إلى أقصى حد.

لقد استغلوا كلتا القضيتين في هدم كل المعاني «الإنسانية»، وهدم كل القيم

---

(١) راجع فصل «الشيوعية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢) إميل دور كايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي، القاهرة، الطبعة الثانية ص ٣.

«الثابتة» في حياة البشرية، كما استغلوها في تثبيت الواقع الفاسد الذي أحدثوه من خلال الثورة الصناعية، وسنده بنظريات «علمية» لا تجعله مستساغًا فحسب، بل تجعله هو الشيء الواجب الوجود، وغيره - مما يحمل شيئًا من القيم الإنسانية أو الأخلاقية - أمرًا مستنكرًا، رجعيًّا، واجب الزوال!!

أي براعة في الشر! وأي غفلة من جانب الأمميين؟!

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فكيف بك إذا أصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا؟!**»[1].

لقد كان الفكر الكنسي السائد في أوربا من قبل يميل إلى تثبيت كل شيء: القيم والنظم والأخلاق والتقاليد والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وكان هذا خطأ ولا شك. ففي الحياة دائمًا ثوابت ومتغيرات. أو قل إن شئت أصول ثابتة تدور حولها صور متغيرة[2].

وجاء اليهود - مستغلين الفكر الداروينى - لينقلوا كل شيء على الخط المتغير.. لا الصور وحدها، ولكن الأصول كذلك. **وكان هذا خطأ أخطر من الأول**.. ففي الأول تَجْمُدُ الحياة وتأْسَن ولكنها في الثاني - حين تفقد أصولها الثابتة - تنهار! وهل في أماني الشعب المختار أمنية أعزّ من هدم حياة الأمميين من أساسها، وهدم إنسانيتهم التي تقف حاجزًا أمام الاستحمار؟!

* * *

بهذه الوسائل مجتمعة.. **باستغلال الثورات الثلاث**: الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، والثورة الداروينية، سيطر اليهود سيطرتهم العالمية التي يمارسونها اليوم.

فأما السيطرة العالمية فواقع مشهود. فهم الذين يقررون من يفوز برئاسة الولايات المتحدة، وهم الذين يدفعون أعضاء اللجنة المركزية العليا في الحزب الشيوعي الروسي إلى السلطة. ومن خلال أمريكا وروسيا يحكم اليهود الأرض. هذا في عالم السياسة.

---

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده ٦٣٨٩ - جـ ٦ ص ٥٠.

(٢) إقرأ إن شئت فصل «الثابت والمتطور في حياة البشرية» من كتاب «حول التفسير الإسلامي للتاريخ».

أما في عالم الاقتصاد فهم أصحاب رءوس الأموال الضخمة، وهم أصحاب البنوك الكبرى، وهم الذين في حوزتهم الذهب الذي يتحكمون به في أسعار العملات العالمية.

وفي دنيا الإعلام هم الذين يسيطرون على وسائل الإعلام العالمية فيبثون من خلالها ما يريدون من أفكار وأخبار، وعقائد ومناهج حياة، كلها تعمل في النهاية على إفساد الأمميين وتسخيرهم لمصالح اليهود.

وهم تجار السلاح العالميون ومثيرو الحروب كذلك لاستهلاك السلاح الذي يصنعونه ويبيعونه للأمميين ليقتل بعضهم بعضًا.

وهم صانعو أزياء المرأة، وهم تجار أدوات الزينة التي تتبرج بها النساء.

وهم تجار البغاء العالميون الذين يصطادون به من لم تكفه كل وسائل الدنس المعروضة في الأسواق.

باختصار، **هم الذين يصوغون للأمميين عقائدهم، وأفكارهم، وأنماط حياتهم، وأساليب جدهم ولهوهم.. وكل شيء في حياتهم**.. إلا من رحم ربك.. من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وفي عام ١٧٨٩م ألقى الرئيس بنجامين فرنكلين خطابًا عند وضع دستور الولايات المتحدة جاء فيه ما يلي:

«هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود.

أيها السادة: في كل أرض حلَّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقي وأفسدوا الذمة التجارية فيها، ولم يزالوا منعزلين لا يندمجون بغيرهم، وقد أدى بهم الاضطهاد إلى العمل على خنق الشعوب ماليًا، كما هو الحال في البرتغال وأسبانيا.

منذ أكثر من ١٧٠٠ عام وهم يندبون حظهم الأسيف، ويعنون بذلك أنهم قد طردوا من ديار آبائهم ولكنهم أيهاد السادة، لن يلبثوا إذا ردَّت إليهم الدول اليوم فلسطين، أن يجدوا أسبابًا تحملهم على ألا يعودوا إليها، لماذ؟ لأنهم طفيليات لا يعيش

بعضهم على بعض، ولا بد لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى عرقهم.

إذا لم يُبْعَد هؤلاء عن الولايات المتحدة (بنص دستورها) فإن سيلهم سيتدفق إلى الولايات المتحدة في غضون مائة سنة إلى حدّ يقدرون معه على أن يحكموا شعبنا ويدمروه ويغيّروا شكل الحكم الذي بذلنا في سبيله دماءنا وضحّينا له بأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا الفردية.

ولن تمضي مئتا سنة حتى يكون مصير أحفادنا أن يعملوا في الحقول لإطعام اليهود، على حين يظل اليهود في البيوتات المالية يفركون أيديهم مغتبطين.

وإنني أحذركم أيها السادة، أنكم إلا تبعدوا اليهود نهائيًا، فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم، إن اليهود لن يتخذوا مُثُلَنا العليا ولو عاشوا بين ظهرانينا عشرة أجيال، فإن الفهد لا يستطيع إبدال جلده الأرقط.

إن اليهود خطر على هذه البلاد إذا ما سمح لهم بحرية الدخول، إنهم سيقضون على مؤسساتنا، وعلى ذلك لابد من أن يُستَبْعَدُوا بنص الدستور» اهـ[1].

ولقد بذل اليهود دون شك جهودًا جبارة مكثفة للوصول إلى هذه السيطرة العالمية.. ولكن جهدهم كله، ومكرهم كله، **لم يكن ليفعل شيئًا لولا غفلة الأمميين**.

ولننظر في بعض الظروف التي مكنت لليهود، ولنتصور أن حال الأمميين فيها كان غير الحال.. فهل كان اليهود يسيطرون!

لو كانت أوربا لم تنفر من دينها بسبب حماقات الكنيسة، هل كان اليهود يجدون الفرصة السانحة لنشر الإلحاد في الأرض؟

وهل كانوا يجدون الفرصة السانحة لتفكيك المجتمع الأوربي ونشر الفساد الخلقي فيه؟

---

(١) عن كتاب «غزوة بني قريظة» تأليف محمد أحمد باشميل، ص ٣٠ - ٣٢ جدة، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

لو كانت أوربا موَّلت الثورة الصناعية عن غير طريق المرابين اليهود . .

لو كانت أوربا تطبق شريعة ربانية تكفل المرأة ولا تحوجها إلى العمل لتأكل . .

وقبل كل شيء، وفوق كل شيء، **لو أن الأمة المسلمة لم تكن تقاعست ونكلت عن رسالتها . . هل كان اليهود يصلون إلى سيطرتهم الحالية مهما بذلوا من جهد، ومهما كان لديهم من عبقرية الشر؟!**

ونترك الإجابة عن السؤال الأخير خاصة حتى نعرض لواقع المسلمين . .

ثالثا: أحوال اليهود بين الكتاب والسنة ووعد الله ووعيده

يعجب كثير من الناس، ممن يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويؤمنون بالكتاب المنزّل على رسوله صلى الله عليه وسلم، كيف وصل اليهود إلى هذه السيطرة العجيبة بينما كتب الله عليهم الذل والمسكنة والغضب واللعنة الأبدية.

﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (سورة البقرة، الآية ٦١).

﴿كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات، والله لا يهدي القوم الفاسقين، أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾. (سورة آل عمران، الآيات ٨٦ ـ ٨٨).

ويقف بعضهم خاصة عند قوله تعالى:

﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾.

(سورة الأعراف، الآية ١٦٧).

ويهجس في نفوس بعضهم خاطر، ولو لم يعلنوه: **هل توقف وعد الله ووعيده؟ هل تغيرت السنن الربانية؟ هل كانت كلها خاصة بالماضي الذي حكى عنه القرآن، ولكنها لا تشمل الحاضر ولا المستقبل؟!**

ونقول: حاشا لله أن يقع شيء في هذا الكون كله مخالفًا للسنن الربانية، أو خارجًا عن وعد الله ووعيده. ولكن الناس قد ينظرون إلى بعض السنن **ويغفلون عن بعضها الآخر**، أو ينظرون إلى بعض الوعد والوعيد ويُغْفِلُون سائره.

لقد ضرب الله الذلة والمسكنة على اليهود، وتوعدهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. ولكنه استثنى من ذلك فترة من الزمن أو فترات، بعبارة صريحة لا تحتمل اللبس:

﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾. (سورة آل عمران، الآية ١١٢).

ومعنى ذلك أن الأصل الدائم بالنسبة لهم هو **ضرب الذلة عليهم في كل أرجاء الأرض**، والاستثناء - المنصوص عليه نصًا صريحًا في الآية - **أن يمكنوا في الأرض ويكونوا مسيطرين**: **﴿بحبل من الله وحبل من الناس﴾**.

وهم الآن في قمة الاستثناء!

وبصرف النظر عن كون هذا الاستثناء يحدث مرة واحدة أو يتكرر - وذلك غيب لا يعلمه إلا الله - فلننظر في الأسباب التي تم من خلالها الاستثناء، والوسائل التي حققت وقوعه، فإن الله الذي يقدر المقادير قد جعل لقدره أسبابًا، وجعل أعمال البشر من بين تلك الأسباب[1].

لقد كلف الله فئتين من البشر أن يكونوا حراسًا على اليهود، يمنعونهم من أن يعيثوا فسادًا في الأرض، ويحققوا مخططاتهم الشريرة في إضلال البشرية.

فأما الفئة الأولى فهي النصارى.

يقول تعالى: **﴿وإذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي، ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾** (سورة آل عمران، الآية ٥٥).

ومعنى ذلك أن النصارى مكلفون بالحراسة الدائمة على اليهود إلى يوم القيامة، يمنعونهم من الخروج من قبضة أيديهم، بما أنهم «فوقهم» أي مسيطرون عليهم.

وأما الفئة الثانية فقد كلفت بالحراسة على الفريقين معًا: اليهود والنصارى.. وتلك هي **الأمة المسلمة**: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾**. (سورة البقرة، الآية ١٤٣).

فكيف صنع الحراس في ذلك التكليف.. وهو تكليف رباني؟!

فأما الحارس الأول فقد نكل عن الحراسة منذ خرج من دينه **ولم يدخل في دين الله الصحيح.**

(١) راجع إن شئت فصل «الإنسان وقدر الله» من كتاب «حول التفسير الإسلامي للتاريخ».

وأما **الحارس الثاني** ـ المكلف بالحراسة على الفريقين معًا ـ **فقد نسي رسالته للبشرية ونكل عنها**، ثم لم يقف به الأمر عند هذا الحد، فنسي رسالته نحو نفسه، وفرط فيها أي تفريط[1]!

فماذا يتوقع من الوحش المحصور في داخل الجحر حين يغيب الحراس؟!

هل يتوقع منه إلا أن ينفلت من الجحر مستغلاً غفلة الحراس؟!

وهكذا تم الأمر.. ﴿**بحبل من الله وحبل من الناس**﴾.

فأما حبل الله فهو قدره ومشيئته، ومدده وإرادته، فإنه لا شيء يحدث في الكون كله إلا بقدر من الله ومشيئة، وإرادة من الله وإمداد.

وأما الحبل من الناس فلننظر في تفاصيله القائمة اليوم.

إنه ليس فقط **أمريكا وما تمد به إسرائيل من العون**: المالي والسياسي والعسكري والأدبي، وكل أنواع العون.. وليس فقط **روسيا، وما تمد به إسرائيل من العون السياسي**، بمسرحية التصايح الفارغ كلما ارتكبت إسرائيل جريمة من جرائمها الوحشية البشعة، دون أن تفعل شيئًا لمنع العدوان أو رده.. **والعون التكنولوجي** بسماحها بهجرة اليهود التكنولوجيين إلى إسرائيل. والعون الأدبي بتصريحاتها الدائمة بأنها تعترف بالوجود الإسرائيلي في المنطقة ولكن بشرط الاعتراف بحقوق العرب (وهو نفس الكلام الذي صدر به وعد بلفور سنة ١٩١٧م!) وهي ترى جيدًا أن هذا الشرط لا يتحقق أبدًا، ومع ذلك لا تسحب اعترافها بإسرائيل ولا حتى تهدد بسحبه مجرد تهديد!

إن الحبل من الناس لا يقتصر على هذا المدد من «**هؤلاء الناس**»: **الروس والأمريكان!**

إنه يأتي من **كل الناس**.. كل سكان الأرض.. إلا من رحم ربك!

ولنضرب بعض الأمثلة التي توضح ما نقول:

السينما مؤسسة يهودية مالاً وفكرًا وتخطيطًا وتنفيذًا.. وهدفها الأول هو إفساد الأولاد والبنات بما تعرض من صور الحياة العابثة اللاهية، القائمة على العلاقات التي

(١) انظر الفصل التالي.

حرمها الله ورسله، في أوضاع جذابة خلابة مؤثرة بالصوت والصورة والحركة، فتفتن ألبـاب الأولاد والبنـات، حين يتصورون أنفسهم في مكان «البطل!» والبطلة!»[1] يمارسون ما يرون هؤلاء يمارسونه أمامهم على الشاشة. . فيفسدون![2].

وكل ولد أو بنت في الأرض كلها أصابه «جنون السينما» فهو حبل من الناس يمد اليهود! يمدهم بالمال الذي ينفقه في السينما من جهة، وبالفساد في ذات نفسه من جهة أخرى، لأنه يحقق في ذات نفسه جزءًا من المخطط اليهودي الذي يهدف إلى إفساد أخلاق الأميين لتيسير استحمارهم، واستغلالهم لتنفيذ مصالح الشعب الشيطان!

وكذلك جنون **التليفزيون والفيديو**، فهما يسيران على ذات الدرب، أيًّا كان المخرج والمنتج و«الفنان»!

وبيوت الأزياء الكبرى يهودية، وكذلك بيوت الزينة[3].

وكـل بنت في الأرض أصـابهـا جنون «المودة» وجنون الزينة فهي حبل من الناس: تمد اليهود بالمال، وتمدهم بالفساد في ذات نفسها وفي المجتمع كله، حين يتحول المجتمع إلى فتنة هائجة تجتاح الأولاد والبنات على السواء وتقرب الأشرار من تحقيق هدفهم الشرير.

وجنـون الرياضة عامة وجنون الكرة خاصة، لون من الجنون يبثه اليهود في الأرض من خلال وسائل الإعلام التي يسيطرون عليها ويوجهونها[4].

(١) من شر البلية الذي يضحك أن يسمَّى الولد التافه الذي يقوم بالتمثيل في الفيلم «بطلًا»! والفتاة التي تتمايل يمنـة ويسارًا في تكسر وتخلع «بطلة»! فتهبط «البطولة» في حس الأولاد والبنات إلى هذا المستوى الدنس، وينسون صور البطولة الحقة التي ترفع البشر من حمأة الطين وترتقي بهم في الآفاق!

(٢) هناك ولا شك أفلام تمثل معاني عالية، ومواقف إنسانية حقيقية، ولكنها قلة نادرة بين ألوف الأفلام التافهة المنحلة التي تملأ السـاحـة. والعبرة بالفسـاد الـذي تحدثه الكثرة الكاثرة، لا بتلك الفلتات العابرة بين الحين والحين.

(٣) يكاد اليهود يحتكرون ثلاث صناعات عالمية: صناعة الأسلحة، وصناعة الأدوية، وصناعة أدوات الزينة، لأنها تدر أرباحًا خيالية بالنسبة لتكاليفها الحقيقية، فضلًا عن أهداف أخرى يحققها الشيطان.

(٤) لا يحرم الإسلام الرياضة ولا الكرة، بل يدعو دعوة صريحة إلى تقوية الأجسام بالرياضة، ولكنه ينكر الجنون الذي أصاب الناس في متابعة المسابقات الرياضية والكروية، فلا هم أنفسهم مارسوا الرياضة، ولا صانوا وقتهم وعقولهم!

وكل فتى - أو فتاة - أصابه جنون الرياضة أو جنون الكرة[1]، فهو حبل من الناس يمد اليهود بتفاهة اهتماماته، والوقت الحي الذي يقتله في الاهتمامات الفارغة، بعيدًا عن الرشد، بعيدًا عن الوعي، بعيدًا عن رحمة الله.

وجنون.. وجنون.. وجنون..

وترجيل المرأة - بقضية المساواة وغيرها من الوسائل - هدف يهودي تحدثنا عنه من قبل.. **وكل فتاة أصابتها حمّى المساواة، وطلب الاختلاط الحر، وغشيان «المجتمع»، وهجرت بيتها ووظيفتها الطبيعية، واستنكرت أنوثتها، واعتقدت أن وظيفتها الأولى أن تعمل خارج البيت.. هي حبل من الناس، يحقق أمنية من أعز أماني الشعب الشيطان!**

هذا، ولم نتحدث عن **كل سياسي خضع لتوجيهات اليهود وأوامرهم**.

وكل اقتصادي أدار الأموال بالربا.

وكل «كاتب» أو «مفكر» أو «فنان» دعا إلى تحطيم المقدسات، وسمّى الدين رجعية، والأخلاق الفاضلة تزمتًا، والقيم الإنسانية مثالية جوفاء[2].

لم نتحدث عن هؤلاء وأمثالهم، لأنهم لا يحتاجون إلى حديث.. وكلهم حبل من الناس يمد اليهود!

نعم.. هكذا تم التمكين لليهود في الأرض استثناء من القاعدة العامة بشأنهم. ولم يكن ذلك بسبب من عبقريتهم الفذة، ولا بتراكم التخطيط كما يزعمون لأنفسهم، ولا كما يزعم لهم المفزعون من الأمميين منهم، كما يزعم «وليم كار» وغيره من الذين يكتبون أحيانًا عن المخططات اليهودية. إنما كان ذلك أساسًا بسبب غفلة الأمميين، أو بعبارة أخرى بسبب **غفلة الحراس الذين كلفهم الله أن يكونوا يقظين دائمًا في مراقبتهم لليهود، لمنعهم من الإفساد في الأرض..**

بل لم يقف الأمر عند حد الغفلة من جانب الحراس. فقد تمكن الشعب الشرير

(١) من البلاء فتنة البنات أيضًا بالكرة وهن لا يمارسنها!

(٢) يستخدم «المثقفون» كلمة المثالية للذم لا للمدح! بمعنى القيم النظرية التي لا تتحقق في عالم الواقع، ومن ثم لا تستحق بذل الجهد فيها ولا التعب.

- حين اطمأن تمامًا إلى غفلة الحراس - أن ينوّمهم، ثم **يسخرهم خدمًا لمصالحه**، بوعي منهم أو بغير وعي.. فصاروا يدورون في الحلقة التي رسمها لهم الشياطين، ويظلون يدورون ويدورون حتى يستنفدوا جهدهم، ويتساقطوا لاهثين عند أرجلهم في نهاية المطاف!

وقديمًا قال الشيطان كما حكى عنه رب العالمين: ﴿**ولأضلنهم، ولأمنينهم، ولآمرنهم**..﴾ (سورة النساء، الآية ١١٩).

فهو يبدأ بإضلالهم، ثم يمنيهم بأن طريق الضلال الذي سلكوه هو الذي سيوصلهم لتحقيق مآربهم، فإذا وقع منهم هذا وذاك ركب الشيطان ظهورهم وأصبح هو الآمر المطاع!

وهم المسئولون عما يحدث لهم!

فلو أن النصارى كانوا نصارى - على كل ما في دينهم من انحرافات أحدثها اليهودي شاول فيما مضى من الزمان - ما قبلوا أن يكونوا عبيدًا لليهود يجثون عند أقدامهم - سواء في ذلك أمريكا أو روسيا أو دول أوربا - ولكانت لهم اليد العليا عليهم، كما كان الأمر خلال أربعة عشر قرنًا من القرن الرابع إلى القرن الثامن عشر الميلادي.

ولو أن المسلمين كانوا على إسلام صحيح، ما تجرأ اليهود عليهم هذه الجرأة، حتى ينهشوا جزءًا من جسدهم الحي - فلسطين - ثم يرهبوهم بكل وسائل الإرهاب حتى يكمنوا ويستكينوا!

كلا! إن المسئول عن خروج الوحش من جحره، وعيثه فسادًا في الأرض، إنما هم أولئك الحراس الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. والمسئول الأول والأكبر في هذا الشأن هو **الأمة الإسلامية**، لأنها هي المكلفة بالشهادة على كل البشرية بما فيها من اليهود.. فلما نكلت أصابها ما أصابها بقدر من الله، وحسب سنة الله.

* * *

ويتساءل بعض الناس: ما الحكمة من تمكين اليهود اليوم، وهم يحملون في قلوبهم هذا الشر كله، ويسعون إلى هذا الفساد كله؟!

﴿ويسعون في الأرض فسادًا، والله لا يحب المفسدين﴾. (سورة المائدة ٦٤).

﴿وقالوا قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم، فقليلاً ما يؤمنون﴾. (سورة البقرة، الآية ٨٨).

وما نزعم أننا ـ ولا غيرنا من البشر ـ نلم بحكمة الله على سبيل القطع، حين لا يرد ذكر الحكمة في كتاب الله أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم على سبيل القطع.

ولم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بيان عن حكمة الاستثناء الوارد في آية سورة آل عمران: **﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾**. (سورة آل عمران، الآية ١١٢).

فكل ما نقوله عنه ظن لا يبلغ اليقين.. ومما نظنه في هذا الشأن **أن الله يعاقب البشرية على كفرها اليوم بتسليط اليهود عليها**.

إن الله قد توعد الكافرين حين يصرون على الكفر بقوله تعالى: **﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾**. (سورة الأنعام، الآية ٦٥).

وقد كفرت البشرية اليوم كفرًا لم تكفره في تاريخها كله، وتبجحت بالكفر كما لم تتبجح به في تاريخها كله، فأنكرت الله جهرة، ونفت هيمنته وسيطرته وتدبيره. فقال قائل منهم: «**لا إله. والكون مادة**»[1]. وقال قائل منهم: «**الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق**»[2]. وقال قائل منهم: «**لقد خضع الإنسان لله في الماضي بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله**»[3].

ولم تعد تلك عقيدة فرد أو أفراد، إنما أصبحت عقائد الكثرة من البشر، سواء قهروا عليها بالحديد والنار والجاسوسية كما كان الأمر في **العالم الشيوعي**، أو «هُدُوا»

(١) هذه قولة الشيوعيين.

(٢) هذه قولة دارون.

(٣) هذه قولة جوليان هكسلي.

إليها بفعل مناهج التعليم ووسائل الإعلام في العالم «الحر!».

وحقق الله وعيده، **فلبسهم شيعًا وأذاق بعضهم بأس بعض..**

واقتضت حكمته سبحانه أن يذيق البشرية الكافرة المتبجحة بالكفر بأس شر الخلق الذين خلقهم الله، وهم أولئك اليهود.. جزاء وفاقًا على ذلك الكفر الذي هو أسوأ كفر مر بالناس.

ولقائل أن يقول: ولكن «المسلمين» لم يصلوا إلى ما وصل إليه الغرب الكافر الملحد، إلا أقلية منهم لا تكاد تُذكر، وما زال القوم يؤمنون بوجود الله!

نعم! ولكنهم فرطوا في مقتضيات **لا إله إلا الله**[1] وفرطوا في رسالتهم التي ندبهم الله لها، وهي **الشهادة على البشرية**، وفرطوا في أمر الله لهم **أن يعدوا ما استطاعوا من قوة**:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم﴾ (سورة الأنفال، الآية ٦٠).

فرطوا فأصابهم النذير:

«**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت**»[2].

وكان من بين الأمم التي تداعت على الأمة المسلمة شر أمة في الأرض، **أمة اليهود..**

ثم تحقق في الأرض كلها نذير آخر من نذر الله:

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون﴾ (سورة الروم، الآية ٤١).

---

(١) انظر الفصل التالي.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح.

واختار الله شر المفسدين من الخلق، ليظهر على أيديهم الفساد في الأرض.. لعل الناس يرجعون!

* * *

ويتساءل بعض الناس ـ ولهم الحق ـ أوليس اليهود هم أفسد أهل الأرض، لا في الحاضر وحده ولكن في التاريخ كله؟!

فكيف لا تصيبهم سيئات ما عملوا، وكيف لا يدمر الله عليهم بفسادهم؟!

ونقول: بلى ولا شك!.. إنهم اليوم أشد الناس فسادًا في الأرض.. **وما هم بناجين من سنة الله التي كتبت الدمار على المفسدين..**

ولكن تظل حكمة الله قائمة في التمكين لهم اليوم **﴿بحبل من الله وحبل من الناس﴾**.

فمع كونهم فاسدين إلى أقصى حد يتصوره العقل، فهم أشد من في الأرض اليوم تجمعًا لهدف محدد يصبون إلى تحقيقه، ويحتشدون لبلوغه، بينما «**الأمميون**» ـ مهما تكن درجة تجمعهم، وبذلهم للجهد في سبيل تحقيق أهدافهم ـ هم أقل من اليهود احتشادًا وتجمعًا وعزيمة، وتجنيدًا لأنفسهم من أجل تحقيق تلك الأهداف.

ثم هناك جانب آخر من القضية.. فاليهود فاسدون، وفي رأسهم هدف معين هو إفساد الأمميين. بينما الأمميون فاسدون من أجل الفساد فحسب!

فالفتاة اليهودية تفسد، والفتاة الأممية تفسد، **ولكن تختلف النتائج!**

تفسد **الأممية** من أجل الفساد وحده، الذي يسمونه «**الاستمتاع**».

أما **اليهودية فهي** تفسد، وتغوي بفسادها رجلًا من الأمميين، فينتفع بفساده الشعب الشيطان. سواء كان الانتفاع مالًا يكتسب، أو مصلحة سياسية تتحقق، أو فسادًا عامًا يسهل «استحمار» الأمميين.

ومن أجل ذلك ـ بسنن ربانية ـ يتفوق صاحب الهدف على الذين لا أهداف لهم، ويتفوق صاحب الهدف الأبعد على صاحب الهدف القريب.. وإن كانوا كلهم فاسدين..

وكل ذلك إلى حين. . ثم تأتي سنة الدمار.

﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة، ثم أخذتها، وإليّ المصير﴾. (سورة الحج، الآية ٤٨).

وظاهر كذلك من آية آل عمران أنه تمكين إلى حين. . لأنه استثناء من القاعدة، وليس هو أصل القاعدة، والاستثناء - بطبيعته - ينتهي، والأصل يدوم.

أما المدى المحدد لذلك الاستثناء فهو غيب لا يعلمه إلا الله.

ولكنا نقول - حسب سنة الله - إنه يزول حين تزول الأسباب التي أدت إليه في تقدير الله. أي حين يستيقظ الأمميون من غفلتهم ويعودون إلى الله.

وتظل الأمة الإسلامية هي المسئولة عن كل ما يجري في الأرض من الأحداث، لأن الله نصبها لتكون مسئولة عن إزالة المنكر في كل الأرض:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾. (سورة البقرة، الآية ١٤٣).

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾. (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

أمة التوحيد
بين الماضي والحاضر

حين تحدثنا في الفصلين السابقين عن الواقع المعاصر للأمة النصرانية والأمة اليهودية، احتجنا أن نتعرف على الجذور التاريخية لكل منهما، لكي نقرأ الحاضر على ضوء تلك الجذور، ونعرف من خلال المسيرة التاريخية لكل منهما أي عوامل أثرت في كيانها حتى وصلت بها إلى واقعها المعاصر، ثم بينا أثر هذا الحاضر في أحوال العالم المعاصرة.

ونحن مع الأمة الإسلامية كذلك..

لا نستطيع أن نقرأ حاضرها حتى نتعرف **أولاً** على رسالتها التي أُخرجت من أجلها، والصورة الصحيحة لأداء هذه الرسالة في عالم الواقع، كما بدت من خلال فترة غير قصيرة من المسيرة التاريخية؛ **ثم** نتعرف على العوامل التي أثرت فيها فحوّلت مسيرتها، وأوصلتها إلى واقعها المعاصر؛ **ثم** نستعرض أثر هذا الحاضر في أحوال البشرية المعاصرة..

أولا: تمهيد في رسالة الأمة المسلمة

لقد أخرج الله هذه الأمة لتؤدي رسالة خاصة لم تُكلَّف بها أمة من قبل، ولم تتهيأ لها أمة في التاريخ.

فأما الأمم السابقة كلها فقد كُلفت أن تستقيم لله في ذات نفسها فحسب:

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة ويؤتُوا الزكاة، وذلك دين القيمة﴾. (سورة البينة، الآية ٥).

وكذلك كلفت هذه الأمة ذات التكليف:

﴿واعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا﴾. (سورة النساء، الآية ٣٦).

﴿فادعوا الله مُخلصين له الدين﴾. (سورة غافر، الآية ١٤).

﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير﴾. (سورة الحج، الآية ٧٨).

ولكنها ـ إلى جانب هذا التكليف الأساسي الذي لا يقوم بغيره بناء إنساني صحيح ـ كُلِّفت أن تكون هادية لكل البشرية، وشاهدة على كل البشرية:

﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾. (سورة البقرة، الآية ١٤٣).

وهذا هو التكليف الخاص الذي من أجله أُخرجت هذه الأمة للناس:

﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتَنْهون عن المنكر وتُؤمنون بالله﴾. (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

وواضح من كلتا الآيتين اللتين تصفان هذه الأمة وتحددان مهمتها أن هناك تكليفًا خاصًّا كُلفت به هذه الأمة لا من أجل نفسها ولكن للناس..

* * *

كان التكليف الأول لكل الأمم ـ كما أسلفنا ـ هو «التوحيد». هو عبادة الله وحده بلا شريك:

﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إني لكم نذير مبين. ألّا تعبدوا إلا الله، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾. (سورة هود، الآيتان، ٢٥، ٢٦).

﴿وإلى عاد أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾(سورة هود، الآية ٥٠).

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلـه غيره﴾. (سورة هود، الآية ٦١).

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلـه غيره﴾. (سورة هود، الآية ٨٤).

كذلك جاء الأمر لهذه الأمة:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا﴾. (سورة النساء، الآية ٣٦).

فما حقيقة التوحيد الذي بُعث به الرسل جميعًا، وعلى رأسهم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم؟

أهو **كلمة** ينطقها الناس بأفواههم فَيُصبحوا بمجرد نطقها مؤمنين؟

أهو **مجرد الاعتقاد** بأن الله واحد في ذاته وصفاته؟

أهو وجدان مستسر في الضمير؟!

كلا! إنما هو الكلمة التي تنطق بالأفواه، والاعتقاد الراسخ في القلوب، والوجدان المستسر في الضمائر، **مترجمًا ذلك كله إلى واقع شعوري وواقع سلوكي**، يتوجه بالعبادة إلى الله وحده بلا شريك، ويلتزم بشريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع، وإلا فهو الشرك الذي روى الله عنه على لسان المشركين:

﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾. (سورة النحل، الآية ٣٥).

والذي قال الله عنه: **﴿وما يُؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مُشركون﴾**. (سورة يوسف، الآية ١٠٦).

إن المطلوب من الناس لكي يُصبحوا مؤمنين، أن يعبدوا الله «**مخلصين له الدين**» وليس مجرد أن يعرفوا أن لهم ربًّا، أو أن ربهم واحد، فقد كان الشيطان يعرف ذلك!

﴿قال رب بما أغويتني لأزَيِّننَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين﴾. (سورة الحجر، الايتان ٣٩، ٤٠).

والإخلاص ـ الذي هو الشرط المطلوب لكي تصح العبادة وتُصبح مقبولة عند الله ـ تشتمل على **أمور ثلاثة**، بينها الله في كتابه المنزل، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

الاعتقاد الراسخ بأن الله واحد متفرد في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، لا شريك له في شيء من ذلك.

والتوجه بالعبادة إليه وحده دون شريك.

والتحاكم إلى شريعته وحدها دون غيرها من الشرائع.

والثلاثة كلها هي **المقتضى المباشر للا إله إلا الله**، ونقض أي واحد منها هو نقض «**للإخلاص**» الذي لا تقبل بدونه عبادة، ولا يُعتبر أحد بدونه مؤمنًا، وإن صلّى وصام وزعم أنه مسلم!

والإخلاص محله القلب، **نعم**، ولكن له شواهد تدل عليه، أو تدل على نقضه حين ينتقض. فمن اعتقد أن مع الله من يخلق أو يرزق، أو يُحيي أو يُميت، أو يضر أو ينفع، أو يُدبر الأمر **فقد أشرك**.

ومن توجه بشيء من شعائر العبادة لغير الله ـ معه أو من دونه ـ **فقد أشرك**.

ومن تحاكم راضيًا مريدًا عالمًا إلى شريعة غير شريعة الله **فقد أشرك**.

وقضية التشريع بالذات، وكونها متضمنة تضمنًا مباشرًا في لا إلـه إلا الله ـ بالنسبة للأمم المؤمنة جميعًا ـ قد تحتاج إلى شيء من البيان، إذا اعتبرنا أن قضية الاعتقاد وقضية العبادة من المسلمات التي لا يجادل فيها إنسان.

لقد أمر الله اليهود والنصارى بتطبيق ما أنزل إليهم من الشرائع، وشدد في ذلك الأمر حتى ربط ذلك التطبيق بالإيمان، وجعل عدم الحكم بما أنزل الله ناقضًا للا إلـه إلا الله، ومخرجًا لأصحابه من دائرة الإيمان.

يقول تعالى في شأن اليهود:

﴿إنا أنـزلنا التوراة فيها هُدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والـربّانيون والأحبار بما استُحْفظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، فلا تخشَوُا الناس واخشونِ، ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. (سورة المائدة، الآية ٤٤).

ويقول جل شأنه عن النصارى:

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾. (سورة المائدة، الآية ٤٧).

فبين تعالى بذلك أنه أمرهم أمرًا صريحًا ـ بل شدد عليهم ـ **في التحاكم إلى الشريعة الربانية المنزلة إليهم في حينها**، وجعل ذلك محكًا لإيمانهم. ومع ذلك فحين حدد الله ما أمرهم به فقد حصر الأمر حصرًا في هذه الأمور الثلاثة:

﴿وما أُمِروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيمة﴾. (سورة البينة، الآية ٥).

ونفى الله في تلك الآية المحكمة أنه أمرهم بشيء خلاف ذلك، فدل ذلك ـ بالضرورة ـ على أن كل ما أمرهم به من التكاليف ـ ومن بينها تحكيم شريعة الله ـ **لابد أن يكون داخلاً في واحد من هذه الثلاثة ومتضمنًا فيه**. فأين يا ترى يدخل الأمر بتحكيم الشريعة؟ أيدخل في إقامة الصلاة؟ أم في إيتاء الزكاة؟ أم إنه ـ بداهة ـ **لابد أن يكون متضمنًا في أصل العبادة**، أي في أمر الله لهم **أن يعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء**؟! ومن أجل ارتباطه المباشر بأمر العبادة ـ بأمر الإيمان ـ قال سبحانه: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. ﴿فأولئك هم الظالمون﴾. ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾**[1].

وكذلك الحال بالنسبة للأمة الأخيرة.. فقد قال أناس بأفواههم **لا إله إلا الله محمد رسول الله**، بل زعموا فوق ذلك أنهم مطيعون لله ورسوله، ثم دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فأعرضوا عن شريعة الله، فنفى الله عنهم الإيمان.

﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولّى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحْكُم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾.
(سورة النور، الآيتان ٤٧، ٤٨).

وبيّن تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يُحكّموا شريعة الله.

﴿فلا وربك لا يُؤمِنون حتى يُحكّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يَجِدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويُسلّموا تسليمًا﴾. (سورة النساء، الآية ٦٥).

وهكذا تتبين طبيعة التكليف العام الذي كلفه الله للمؤمنين جميعًا من كل الأمم، بما فيهم الأمة الأخيرة، وأنه يشمل **العقيدة والشعيرة والشريعة** كلها في آن واحد. كلها هي «**العبادة**» المطلوبة من المؤمنين. لا يجزىء بعضها عن بعض، ولا يؤدي واحد منها بمفرده إلى اتصاف الإنسان بالإيمان، ونقض أيٍّ منها نقص لجملة الإيمان.

---

(١) الكافرون والظالمون والفاسقون في الآيات الثلاث من سورة المائدة (٤٤، ٤٥، ٤٧) كلها وصف لمن لم يحكم بما أنزل الله، فهم كافرون، وهم في الوقت نفسه ظالمون وفاسقون. وهذا أولى من القول بأنها درجات مختلفة في الحكم على العمل الواحد.

أما التكليف الذي اختصت به الأمة الأخيرة، التي أرسل إليها الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، فله حكمته عند الله.

لقد كان الرسل السابقون صلوات الله وسلامه عليهم، يُرسل كل واحد منهم لقوم معينين ولفترة من الزمن محدودة، حتى كان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، الذي أرسل إلى **البشر كافة إلى قيام الساعة**، بالرسالة التي **اكتمل بها الدين، وتمت بها النعمة الربانية**:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضِيتُ لكم الإسلام دينًا﴾. (سورة المائدة، الآية ٣).

اللبنة التي اكتمل بها البناء..

«مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وضعت اللبنة؟! فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء»[1].

وإذا كانت أمة كل رسول قد كُلّفت أن تحمل رسالة رسولها من بعده حتى يأتيها رسول آخر مصدق للا إلـه إلا الله، فتتبعه وتؤازره: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مُصدِّق لما معكم لتُؤمِنُنَّ به ولتنصرُنّه﴾**.

(سورة آل عمران، الآية ٨١).

فقد كلفت الأمة الأخيرة كذلك **أن تحمل رسالة رسولها من بعده**، ولكن مع فارق أساسي، **أو فارقين في الحقيقة**.

الفارق الأول: أن هذه الأمة تحمل رسالة رسولها من بعده **حتى يَرِثَ الله الأرض ومن عليها**، لأنه لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم، ولا رسالة بعد رسالته.

والفارق الثاني: أن رسالة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، **هي للناس كافة، وليست لقوم معينين**، ومن ثم حُمِّلَتْ أمته رسالته من بعده للناس كافة، وجاء النص على الناس صريحًا سواء في وصف الأمة أو تحديد رسالتها:

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس﴾. (سورة البقرة، الآية ١٤٣).

* * *

ما طبيعة هذا التكليف الخاص؟

أشرنا فيما سبق إلى أن الخصوصية في التكليف ناشئة من أن هذه الأمة هي أمة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، الذي اكتمل به الدين، والذي أرسل إلى البشرية كافة، والذي لا نبي بعده.

ومن ثم تتحدد مهمة هذه الأمة بأن توصل الرسالة إلى كل فجاج الأرض المعمورة، **وأن تبلغها** للناس كما تلقتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، وبالطريقة التي تلقتها بها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، **وتتحمل ما يقتضيه التبليغ** من جهاد في سبيل الله كما جاهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أن تكون **شاهدة على كل البشرية**.

* وقبل أن نشرح حدود هذا **التكليف** ووسيلته، نُحبّ أن نُكرر الإشارة إلى أن رسالة الأمة الإسلامية وتكاليفها هي رسالة نبيها صلى الله عليه وسلمذاتها، وما كُلف من التكاليف.

فالرسول صلى الله عليه وسلم، أمر **بالدعوة والتبليغ**.

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾. (سورة النحل، الآية ١٢٥).

﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾. (سورة المائدة، الاية ٦٧).

وأمر بالجهاد..

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغْلُظْ عليهم، ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ (سورة التحريم، الآية ٩).

---

(١) أي دون تحريف فيها ولا زيادة ولا نقص.

(٢) أي بالقدوة العملية أساسًا كما سيأتي بيانه.

وأُرسل شاهدًا على الناس . .

﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا﴾ . (سورة الأحزاب، الآية ٤٥).

والأمة كلفت التكاليف ذاتها :

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ . (سورة آل عمران، الآية ١٠٤).

«بلغوا عني ولو آية»[1] .

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ . (سورة الحج، الآية ٧٨).

﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس﴾ . (سورة البقرة، الآية ١٤٣).

وتلك الأهداف المنصوص عليها في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، هي أهداف ذات اعتبار، سواء في حكمة «إخراج» هذه الأمة، أو في تقرير خيريتها كذلك .

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ . (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

* ونقف قليلاً عند قضية «الخيرية» التي وصفت بها هذه الأمة .

ما الفرق بينها وبين دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار إلى هذه اللحظة، المفضل على العالمين إلى الأبد، ودعوى كل قومية أنها أفضل الأمم جميعًا وأرقاها؟

هناك عدة فوارق، تنطلق كلها من فارق أساسي : أن خيرية هذه الأمة ليست خيرية عنصرية ولا عرقية كدعوى بني إسرائيل، وليست منبثقة من عصبية جنس ولا انتماء لأرض معينة كعصبية القومية الحمقاء .

إنها خيرية أعمال . . خيرية مبادىء . . خيرية قيم . . خيرية سلوك، ناشئة من الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك فهي ليست حكرًا على شعب معين ولا عنصر معين ولا دم معين، إنما هي ملك لكل مسلم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل بمقتضى إيمانه، أيًّا كان جنسه أو لغته

---

(١) أخرجه البخاري .

أو أرضه أو منشؤه، كما كانت ملكًا لبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، على المستوى نفسه الذي كانت فيه ملكًا للمؤمنين من قريش. وإنما يتفاضل الناس فيما بينهم بالتقوى:

«**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى**»[1].

ولذلك أيضًا لم تكن صفة لاصقة بشخص معين ولا شعب معين ولا عنصر معين، مهما يعمل من السيئات، ومهما يقع منه من انحرافات، كدعوى بني إسرائيل أنهم ما زالوا شعب الله المختار، وقد كفروا بالله ورسله، وارتكبوا من الموبقات ما ارتكبوا، وكدعوى كل قومية أنها أفضل الأمم، مهما ارتكبت من الجرائم، ومارست من الحماقات. **بل تذهب الخيرية عن الأمة - كما هو حال الأمة المسلمة اليوم - إن هي نكلت عن رسالتها ولم تقم بتكاليفها، ولا تسترد استحقاقها لها حتى تعود إلى العمل بمقتضياتها.**

تلك هي الفوارق..

فهي ليست «عصبية» لقوم ولا لجنس ولا لأرض ولا لشعار..

«**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**»[2].

وليست كذلك دعوى بلا دليل. إنما هي قيم ومبادىء وعمل وسلوك، إن وجدت وجدت معها الخيرية، وإن زالت زالت الخيرية، وإن بقي الناس الذين يحملون أسماء إسلامية، ويقولون بأفواههم لا إله إلا الله، محمد رسول الله!

وما أعظم الفارق في واقع الأرض، وعند الله في اليوم الآخر، بين دعوى لا تحمل رصيدًا من الحق، ودعوى تحمل الرصيد: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءًا يُجز به ولا يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرًا**﴾. (سورة النساء، الآيتان ١٢٣ - ١٢٤).

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

(٢) رواه أبو داود.

ونعود إلى رسالة الأمة المسلمة..

إن لا إلـه إلا الله، التي جاء بها كل رسول من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، **هي الأســاس** الذي يقوم عليه البناء الإيماني، الملبي للفطرة، والذي يصبح به الإنسان في أحسن تقويم كما خلقه الله:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾. (سورة التين، الآية ٤).

﴿فـطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾. (سورة الروم، الآية ٣٠).

«كل مولود يولد على الفطرة»(١).

ولكن نوع الأساس وحجمه وطبيعته تتناسب دائمًا مع حجم البناء المقام فوقه ونوعه وطبيعته.

والبناء الذي أخرجت هذه الأمة لتقيمه هو أعظم بناء في تاريخ البشرية: هو تحقيق المنهج الرباني في عالم الواقع، في مواجهة الجاهلية العالمية في كل الأرض.. لذلك حُقّ للأساس الذي يقوم عليه ذلك البناء أن يكون أمتن أساس وضع في تاريخ البشرية.

لقد ظل القرآن الكريم يتنزل ثلاثة عشر عامًا في مكة في موضوع واحد، هو **العقيدة ومقتضياتها**، لأنها هي الأساس الذي سيقوم عليه ذلك البناء الضخم. وأنفق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثلاثة عشر عامًا في مكة، همه الأول تأسيس الأساس وتمكينه وترسيخه ليحمل البناء من بعد.. ولما بدأ البناء بالفعل - في المدينة - فإنه شمخ في سنوات قلائل، بسرعة وتمكُّن، **لأنه كان راسخ الأساس.**

كان أساسه في النفوس. في قلوب تلك العصبة المؤمنة، القليلة العدد، نعم، ولكنها تمثل أضعاف أضعاف حجمها العددي، **لأنها تحمل طاقة مركزة من الإيمان الصــافي المتجـرد لله**، تكفي لإضاءة الساحة الواسعة بإشعاعها.. لا ساحة المدينة المنورة وحدها، ولا ساحة الجزيرة العربية وحدها، ولكن ساحة البشرية.

---

(١) متفق عليه، البخاري ١٣٨٥، مسلم ٢٦٥٨.

إن أصفى بيان للتوحيد، وأكمل بيان وأشمل بيان، هو الذي نزل به القرآن الكريم وبينته السنة النبوية المطهرة، لأن الله كان يُعِدُّ بهذا البيان، «**خير أمة أخرجت للناس**». الأمة التي كُلّفت أن تكون شاهدة على كل البشرية.

وما نقول إنها الأمة الوحيدة التي تجردت لله، أو تجرد «الحواريون» الذين تجمعوا حول نبيها لله.. كلا! فحول كل نبي أرسل إلى الناس تجمعت قلوب صافية، باعت الدنيا، وتجردت للحق الذي آمنت به، ورضيت بالله ربًا، وبنبيها رسولاً، وبالآخرة عوضًا عن الدنيا..

ولكنّا نضع في حسابنا أمرًا آخر..

إن الحركة بالإيمان ليست كمجرد الإيمان مهما كان راسخًا.. فمن شأن الحركة أن تحدث اهتزازات في الكيان المتحرك، **فيحتاج إلى تمكين الأساس أكثر، لكي لا تؤثر الحركة في ثباته واستقراره**. وكلما كانت الحركة أوسع مدى وأشد مَوْرًا احتاج الأمر إلى تمكين الأساس أكثر، لكي يظل متماسكًا على الرغم من الحركة الموارة..

ولقد كانت حركة هذه الأمة بإيمانها في مجالات الحياة المختلفة أعظم حركة في التاريخ، فلزم ـ في علم الله ـ أن يكون الأساس الذي يقوم عليه بناؤها أرسخ أساس وأعمق أساس.. فنزل القرآن ثلاثة عشر عامًا كاملة، يبين حقيقة التوحيد الشاملة، ويدخل بها كل مسارب النفس البشرية ومنحنياتها، ليستقر هناك عميقًا في حنايا النفوس. وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثلاثة عشر عامًا كاملةً يركز جهده الأعظم في تربية هاتيك النفوس، لتحمل أكبر طاقة إيمانية يتسع لها القلب البشري. وكان هذا كله عنصرًا ملحوظًا من عناصر خيرية هذا الأمة.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾. (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

ولو كان الأمر مجرد الإيمان فلا وجه لخيرية هذه الأمة فيه، **فقد آمنت قبلها أمم**.. ولكنها الحركة الواسعة بالإيمان، المتمثلة **في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نطاق شامل**، هي التي جعلت لهذه الأمة الخيرية في مجال الإيمان ذاته، كما نصت الآية الكريمة..

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وحين قام بناء الأمة في المدينة المنورة ـ بالمهاجرين والأنصار ـ تتابعت التكاليف واتسع نطاقها حتى شملت الحياة كلها في كل جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأخلاقية.. التصورية والسلوكية، الداخلية والخارجية.. حتى اكتمل الدين وتمت النعمة:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾. (سورة المائدة، الآية ٣).

وكانت هذه التكاليف تُعِدُّ الأمة لهدفين في آن واحد:

الهدف الأول أن **تستقيم هذه الأمة لربها في ذات نفسها** ـ وهو الهدف المشترك بينها وبين الأمم المؤمنة السابقة كلها ـ **ولكن على أوسع مساحة عرفتها البشرية**: تشمل الفرد والجماعة، الرجل والمرأة. الصغار والكبار. التعامل مع الأصدقاء والأعداء. المؤمنين وغير المؤمنين، المحاربين والمسالمين، كما تشمل كل تصرف سلوكي، وكل تصرف فكري، وكل هاجسة تخطر في داخل النفس لا يراها الناس، ولكن يطلع عليها من يعلم خائنة الأعين وما تُخْفِي الصُّدور.

والهدف الثاني: أن تقوم هذه الأمة بالشهادة على كل البشرية..

وإنها لتقوم بالتكليفين معًا على أساس واحد، **هو لا إله إلا الله، محمد رسول الله.**

إنها لا تصطنع شيئًا خاصًّا من أجل الشهادة على البشرية غير الذي تقوم به لذات نفسها.. **اللهم إلا الدعوة وتكاليفها**.. ولكنه الأساس ذاته، والمنهج ذاته، والتوجه ذاته..

إنها تتحرك ـ بما استقامت لربها في ذات نفسها ـ لتعرض على الناس الإسلام من خلال سلوكها العملي بالمنهج الرباني، وتدعوهم **ـ من خلال القدوة العملية ـ** للدخول فيه. ثم تبلغهم أن هذا الدين هو المعتمد عند الله، الناسخ لكل ما سواه، وأنها مكلفة من قبل ربها أن تدعوهم إليه، وأن تزيل كل الحواجز التي تحجب الحق

عن النفوس، وتحجز النفوس عن الحق، ليختار الناس لأنفسهم ما يختارون غير مضغوط عليهم ولا مضللين[1].

وهكذا نجد أن الأساس الحقيقي للتكليف الخاص الذي كلفت به هذه الأمة من دعوة وشهادة وجهاد، **هو الأساس ذاته** الذي يقوم به إسلامها. **فهي تتحرك** حركتها الطبيعية الذاتية بهذا الدين، ومن خلال حركتها **تدعو**، ومن خلال حركتها **تشهد**، ومن خلال حركتها تقوم بما تستلزمه الدعوة والشهادة من **الجهاد**.

فما هي الحركة الذاتية لهذه الأمة بهذا الدين؟ وكيف قام بها الجيل الأول الفريد؟

ليس هنا مجال التفصيل..

إنما نجتزىء هنا بالخطوط العريضة جدًّا لهذه الحركة.

إنها صدق **الإيمان** بالله واليوم الآخر، **وجدية الأخذ من الكتاب والسنة** في كل أمر يعرض في حياة الناس، وصدق الجهاد في سبيل الله.

وهي تحقيق معنى «**الأمة**» بالمعنى الإسلامي الصحيح القائم على العقيدة، لا تدخل فيه عصبية الجنس ولا اللون ولا اللغة ولا الأرض.. إنما هي الأخوة في الإسلام.

وهي تحقيق **التكافل** الذي يربط بناء الأمة، ويجعل القادرين يحملون غير القادرين بما أفاء الله عليهم من فضله.

وهي تحقيق **العدل الرباني** في واقع الأرض.

وهي تحقيق **أخلاقيات لا إله إلا الله**.

وهي **الوفاء بالمواثيق**[2].

ثم هي حركة علمية منبثقة من العقيدة.

---

(١) سنتكلم فيما بعد عن مهمة الجهاد الإسلامي في حياة الأمة وفي حياة البشرية.

(٢) الوفاء بالمواثيق هو من أخلاقيات لا إله إلا الله، ولكنا أفردناه لأهميته الخاصة في التوجيه الرباني لهذه الأمة.

وحركة حضارية منبثقة من هذا الدين[١].

* * *

إن هذه - كما قلت في فصل «نظرة إلى الجيل الفريد» من كتاب «واقعنا المعاصر» - ليست مثاليات طُولِبَ بها الجيل الأول وحده، وقام بها على الوجه الأكمل. إنما هي **السمات الدائمة للأمة المسلمة**، المكلف بها كل جيل من أجيالها إلى قيام الساعة، والتي تعتبر الأمة مُقصّرة في الدنيا والآخرة إن هي نَكَلَتْ عن القيام بها في حدها الأدنى المفروض.

إنما كان الذي تفرد به الجيل الأول هو **الدرجة العجيبة التي وصل إليها في تحقيق تلك السمات في أعلى آفاقها**، وتجاوز بها الحد الأدنى المفروض، إلى الحد الأعلى المرغوب، تطوعًا منه، ورغبة في مرضاة الله.

أما تلك السمات ذاتها فهي هي كيان الأمة الأصيل، من أجلها أخرجت هذه الأمة، ومن أجلها كانت خيريتها. ولن يتحقق لها كيانها الإسلامي الحقيقي - فضلاً عن الخيرية المنوطة بها - حتى تقوم بها، وتجاهد في سبيلها، وتمنحها عزيمتها الصادقة. ولا تكون قد أدت رسالتها سواء لنفسها أو للناس، إن هي اكتفت من كل ذلك بالأماني الفارغة والأحلام الجميلة.

إن هذه السمات - بالنسبة لهذه الأمة - **هي مقتضيات لا إله إلا الله**، ذلك أنها - كلها - تكليف رباني، وكل تكليف رباني داخل - بالضرورة - في مقتضيات لا إله إلا الله.

ومن ثم كانت لا إله إلا الله في حياة هذه الأمة أمتن أساس قام عليه بناء في تاريخ أية أمة، وأوسع أساس، وأشمل أساس.

إنها منهج حياة كامل، يشمل كل جزئيات الحياة، ويربطها بعضها ببعض برباط الإيمان[٢].

---

(١) تحدثت عن هذه السمات بتفصيل كاف في فصل «نظرة إلى الجيل الفريد» من كتاب «واقعنا المعاصر».

(٢) تختلف مواضع التكاليف من قضية الإيمان، فبعضها إن نقض ينقض أصل الإيمان، وبعضها إن نقض ينقص من الإيمان ولا ينقض أصله، ولكنها كلها مرتبطة بلا إله إلا الله.

ثانيا: لمحات من التاريخ

ليس القصد هنا هو استعراض تاريخ الأمة الإسلامية، ولا حتى أبرز ملامحها، فذلك أمر يطول، وتختص به الدراسات التاريخية المتخصصة. إنما القصد هو إعطاء لمحات ـ **مجرد لمحات** ـ من ذلك التاريخ، تبرز شيئًا مما منحته للبشرية تلك الأمة التي أخرجت **للناس**، في الفترة التي كانت قائمة فيها برسالتها على استقامة كاملة، أو حتى على استقامة نسبية مشوبة بشيء من الانحراف، فقد مضت عليها فترة غير قصيرة كانت فيها **دائمة العطاء للبشرية**، حتى وهي واقعة في شيء من الانحراف!

ولم نقصد من هذه اللمحات أن تغطي كل جوانب العطاء الذي قدمته هذه الأمة للبشرية، فهذا أيضًا أمر يطول، وتختص به الدراسات التاريخية المتخصصة. . إنما هي مجرد لقطات متفرقة، بقدر ما يسمح به المقام في كتيب كهذا يحاول أن يُعطي صورة سريعة **لأحوال العالم المعاصر من زاوية الرصد الإسلامية**. ومن أمانينا أن يتفرغ لبحث هذه الجوانب باحثون متخصصون، يتوفرون على دراسة ذلك العطاء الضخم الذي تتنكر له البشرية اليوم، بدافع الغفلة من جانب الأمة، ودافع التعصب المقيت من جانب الأعداء!

(١)

كانت الهداية إلى التوحيد هي قمة العطاء الرباني لهذه الأمة. وهي كذلك قمة العطاء الذي قدمته هذه الأمة للبشرية:

﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته، ويُزكيهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٦٤).

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾. (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٠٤).

وإذا كانت الجاهلية المعاصرة بالذات تصغر من قيمة الإيمان، ومن قيمة التوحيد، حتى تجعله مزاجًا شخصيًّا يتخذ كل إنسان موقفه منه على هواه بلا فارق، وتستوي الحياة بالإيمان كما تستوي بالكفر، سواء الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية.. الخ، ويظل الدين صلة شخصية بين العبد والرب، محلها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة..

إذا كان هذا موقف الجاهلية المعاصرة بالذات، فإن قيمة التوحيد، وضرورته للحياة الإنسانية، **مستمدة من طبيعة الإنسان ذاته، لا من طبيعة البيئة ولا من طبيعة الظروف**..

فالإنسان عابد بفطرته. ولا يوجد في الحقيقة من لا يَعْبُد!

وليس الفارق بين إنسان وإنسان أن هذا يعبد وذاك لا يعبد. إنما يفترق إنسان عن إنسان في «**المعبود**»، الذي يتوجه إليه بالعبادة، لا في مبدأ التوجه بالعبادة إلى معبود ما.

والفارق الرئيسي بين الناس على نطاق البشرية كلها، أن هناك من يعبد الله وحده بلا شريك، وهناك من يعبد غير الله، معه أو من دونه. ومن ثم ينقسم الناس كما أخبر عنهم خالقهم إلى **فريقين اثنين**:

﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾. (سورة التغابن، الآية ٢).

وتنقسم العبادة إلى **عبادتين اثنتين**: إما عبادة الله وإما **عبادة الشيطان**:

﴿أَلَمْ أعْهد إليكم يا بني آدم ألاَّ تَعْبُدوا الشيطان إنه لكم عدوٌّ مُّبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾. (سورة يسٓ الآيتان ٦٠، ٦١).

أما الذي يحسب أنه لا يعبد شيئًا على الإطلاق فذلك من الذين قال الله عنهم:

﴿أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه﴾. (سورة الجاثية، الآية ٢٣).

وعبادة الهوى لا تخرج في النهاية عن كونها عبادة للشيطان، لأنه هو الذي يحركها في النفوس.

﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا﴾. (سورة مريم، الآية ٨٣).

والقضية الكبرى في حياة الإنسان: القضية التي تقرر مصيره في الدنيا والآخرة، والتي تقرر له منهج حياته، وتصوراته وسلوكه، هي هذه القضية: **أيهما أولى بالعبادة؟ آلله أم ما يشركون؟** وأي الوضعين أكرم للإنسان وأليق بكيانه: حين يكون عابدًا لله الحق؟ أم حين يكون عابدًا للآلهة المزيفة فيكون عابدًا للشيطان؟

﴿آلله خير أم ما يشركون﴾؟! (سورة النمل، الآية ٥٩).

﴿أفمن يمشي مُكبًّا على وجهه أهدى أمَّن يمشي سويًّا على صراط مستقيم﴾. (سورة الملك، الآية ٢٢).

* * *

التوحيد هو رسالة الرسل جميعًا، ولكنه جاء أصفى ما يكون، وآكد ما يكون في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

وكل الأمم التي آمنت برسلها آمنت بالتوحيد، ولكن ما من أمة حافظت على التوحيد أطول مدى ولا أشد صفاء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد جاء كل الرسل ليقولوا لأقوامهم: **﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾.** (سورة هود، الآية ٥٠).

قالها نوح لقومه، وقالها هود وصالح وشعيب لأقوامهم، وقالها إبراهيم عليه السلام، وقالها موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا.

﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ (سورة النساء، الآية ١٦٤).

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾. (سورة الأنبياء، الآية ٢٥).

ولكن الحجم الذي استغرقته قضية التوحيد في الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، واضح الدلالة.. لقد كان مقصودًا تأصيل هذه القضية بكل أبعادها في حِسِّ الأمة التي ستحمل الهدى للبشرية كلها على مدى الزمان.

وفرق - في الإعداد والتوجيه - بين من يُراد له أن يتعلم لذات نفسه فحسب، ومن يراد له أن يتعلم ليكون معلمًا لغيره.

ثم فرق آخر - في الإعداد والتوجيه كذلك - بين من يراد له أن يكون معلمًا

لقوم محدودي العدد في بقعة معينة من الأرض وظرف معين من الزمان، وبين من يراد له أن يكون معلمًا **للناس كافة على مدى الزمان كله** . .

وقد كان ذلك كله منظورًا إليه في خيرية هذه الأمة!

﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

ونظرة واحدة في كتاب الله ترينا كم كانت قضية التوحيد هي القضية الأولى والكبرى في ذلك الكتاب، وكم تناولت من آفاق، وكم وُثِّقت توثيقًا عميقًا مع كل خطرة نفس تخطر في قلوب البشر، ومع كل حدث من أحداث الكون المادي، وكل حدث في حياة البشر في دنياهم وآخرتهم سواء.

لم يكن السبب ـ كما ألمحت إلى ذلك في كتاب «**دراسات قرآنية**» ـ أن المخاطبين الأول بهذا الكتاب كانوا مشركين، فلزم في تقدير الله أن توثق القضية لهم ليخرجوا من شركهم ويؤمنوا. . فقد خوطبوا بالخطاب ذاته ـ خطاب التوحيد ـ وهم مؤمنون مجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم:

﴿يـا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله، والكتاب الذي نزّل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل﴾. (سورة النساء، الآية ١٣٦).

ولعمق التوجيه الرباني في كتابه المنزل ـ مع تكفل رب العالمين بحفظ كتابه ـ بقيت **هذه الأمـة** ـ بقَـدرِ الله ومشيئته ـ تحافظ على صفاء توحيدها فترة طويلة من الوقت، وتنشره في الآفاق، بينما **الأمة اليهودية** التي نزل لها كتاب توحيد من قبل حرفته بتصـوراتهـا الـوثنية الهـابـطة[1]، **والأمـة النصرانية** تقبلت تحريف شاول اليهودي،

---

(١) تصور التوراة الإلـه جل وعلا في صور زرية لا تليق حتى بإنسان عادي. انظر على سبيل المثال في سفر التكوين قصة الإلـه مع آدم وحواء بعد أن ذاقا الشجرة فبدت لهما سوآتهما. إذ شعرا بأن الإلـه قادم فاختبآ منه. فظل يبحث عنهما ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ حتى وجدهما! وفي قصة إسرائيل مع الله إذ تشاجر إسرائيل مع الله المتخفي في صورة إنسان فكسر إسرائيل حقوه ـ نستغفر الله ـ وأمسك به لا يريد أن يفلته من قبضته حتى تعهد له الله أن يمنحه العهد فأطلق سراحه!!

وتمسكت من بعده بعقيدة أبعد ما تكون عن التوحيد![1].

* * *

ولم تكن قضية التوحيد مجرد تصديق عقلي بأن الله واحد لا شريك له في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا مجرد وجدان مستسر في الضمير. فقد صحب هذا التصديق العقلي وهذا الوجدان القلبي منذ البدء «**أعمال**» معينة، سواء كانت من أعمال **القلب** أو من أعمال **الجوارح**، شكلت في مجموعها «**منهج حياة**» كامل، يشمل كل مناحي الحياة.

لقد كان **المقتضى الأول للتوحيد في حسّ الأمة المسلمة هو التلقي من عند الله، لا من أي مصدر سواه. ومنهج التلقي هو مفرق الطريق بين الجاهلية وبين الإسلام. وفي الإسلام يتلقى الناس من ربهم، وهذا معنى إسلام وجههم لله، وفي الجاهلية يتلقى الناس من عند غير الله ـ معه أو من دونه.**

ومما يحسب **لهذه الأمة** ـ في التاريخ ـ أنها رسّخت معنى التوحيد في صورته الحقيقية ـ صورة التلقي من عند الله ـ وأنشأت على أساسه حضارة هائلة متشعبة ألوان النشاط، وحركة علمية في شتى فروع العلم[2]، فكانت الأمة الفريدة في التاريخ التي طبقت المنهج الرباني في واقع الأرض، وعرضته للبشرية رائقًا صافيًا، تسري فيه أعمال البشر مصبوغة بصبغة الله:

﴿صِبغَةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغةً، ونحن له عابدون﴾. (سورة البقرة، الآية ١٣٨).

بينما **الأمة اليهودية** غيرت صبغة الله الرائقة الصافية ـ بتحريفها للتوراة ـ إلى أنانية وصَلَف وجحود وعدوان وجشع مادي وبلادة روحية وقسوة قلب، كما خاطبهم الله تعالى في كتابه المنزل:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً، وإنّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإنّ منها لما يَشّقّق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يَهبط

(١) لا يستحي المستشرقون بعد ذلك أن يزعموا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم، قد أخذ فكرة التوحيد عن اليهود والنصارى!!

(٢) سنتكلم فيما يلي من الفصل عن الحركة العلمية الإسلامية والحركة الحضارية الإسلامية.

من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾. (سورة البقرة، الآية ٧٤).

وبينما **الأمة النصرانية** انصرفت ـ منذ البدء ـ عن محاولة تطبيق المنهج الرباني في واقع الأرض، اعتقادًا خاطئًا ـ محرّفًا ـ من جهةٍ أنه يكفي البشر أن يُكَفّر الله عنهم سيئاتهم بصلب ولده الوحيد ـ عيسى عليه السلام ـ فيعفيهم بذلك من العمل الذاتي لتحقيق المنهج الرباني في الحياة الدنيا، واعتقادًا خاطئًا كذلك أنه لا فائدة ترجى من محاولة تطبيق المنهج الرباني في واقع الأرض لأن الإنسان خاطىء بطبعه، ولا طريق للخلاص من الخطيئة إلا بكبت الجسد وإهماله، والزهد في متاع الحياة الدنيا جملة، وإهمال واقع الأرض[1]!

﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم، إلا ابتغاء رضوان الله، فما رَعَوْها حقّ رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون﴾. (سورة الحديد، الآية ٢٧).

ومنذ البدء اقترن بالإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، سواء في حالة النفي أو في حالة الإثبات.

فالمؤمنون يوصفون بأنهم، **﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾**. (سورة آل عمران، الاية ١١٤). والكافرون يوصفون بأنهم، **﴿لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾**. (سورة التوبة، الآية ٢٩). وصار الإيمان باليوم الآخر جزءًا لا يتجزأ من عقيدة التوحيد.

ولم يكن الإيمان باليوم الآخر مجرد **معرفة ذهنية** بأن هناك يومًا يبعث فيه الناس من أجداثهم لِيُحَاسبوا، ولا مجرد وجدان مستسر في الضمير. فهذا كله لا يكوّن إيمانًا باليوم الآخر. وقد روى التاريخ أن المصريين القدامى، كانوا يعرفون تفاصيل كثيرة عن اليوم الآخر ـ كما وردت عندهم في «**كتاب الموتى**»، الذي عثر عليه مكتوبًا على أوراق البردى[2] ـ ومع ذلك فإن نبي الله يوسف يقول عنهم ـ بما علمه الله ـ **﴿إني**

---

(١) انظر في هذا المعنى ولفرد كانتول سميث ـ المستشرق الكندي المعاصر ـ في مقدمة كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» الطبعة الأولى. مطبعة جامعة اكسفورد، ص ٢١ من الأصل الإنجليزي.

(٢) ترجح هذه التفاصيل أن المصريين القدامى قد بعث إليهم رسول من عند الله، فبقيت من تعاليمه هذه المعلومات، ثم حرفت كما حرفت كل جاهلية تعاليم رسولها من بعده.

تركت ملّة قوم لا يُؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتبعت مِلّة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾. (سورة يوسف، الآيتان ٣٧، ٣٨). وذلك لأنهم - مع **«علمهم»** بهذا - كانـوا يعتقدون أن هناك إجابة محفوظة يمكن أن تنجي الإنسان من الحساب مهما كانت أعماله في الحياة الدنيا!

إنما الإيمان - سواء الإيمان بالله أو الإيمان باليوم الآخر - هو التصديق، والعمل بمقتضى التصديق.. وهذا الذي آمنت به أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ونشرت الإيمان به في ربوع الأرض.

ولقد آمنت كل من الأمتين السابقتين باليوم الآخر، **ولكن ما أبعد الفرق بين إيمان كل منهما وإيمان الأمة الإسلامية!**

فأما اليهود فقد قالوا: **﴿لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة﴾**. (سورة البقرة، الآية ٨١). وبذلك خف وزن اليوم الآخر في حسهم كثيرًا ولم يعد رادعًا لهم عن شيء.. وارتكبوا موبقاتهم كلها باستخفاف استنادًا إلى ذلك الوهم!

﴿فخلف من بعدهم خلف وَرِثُوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغْفَرُ لنا وإن يأتهم عَرَض مثله يأخذوه. ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحقّ ودرسوا ما فيه؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾.

(سورة الأعراف، الآية ١٦٩).

وأمـا النصارى فقد خيلوا لأنفسهم، أو خيل لهم شاول اليهودي، أن مجرد الإيمان بالرب - أي عيسى عليه السلام في وهمهم - كفيل بأن يجعل الإنسان يجلس عن يمين الرب يوم القيامة، وتغفر له ذنوبه، خاصة وأن الأب قد ضحى بابنه الوحيد تكفيرًا عن خطيئة آدم، فأصبح الناس مغفوري الخطيئة بمجرد الإيمان بتلك القصة المزعومة!

ولا شك أن أتقياءهم كانوا يخافون الله، ويقومون بأعمال الخير ابتغاء مرضاته - وهذا فرق واضح بينهم وبين اليهود - ولكن العدوى ذاتها سرت إليهم:

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فَلِم يعذبكم بذنوبكم﴾.

(سورة المائدة، الآية ١٨).

إن العقيدة الصحيحة في اليوم الآخر مبنية على أن الله لا يظلم أحدًا ولا يحابي أحدًا كذلك:

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئًا، وإن كان مثقال حبة من خَرْدَلٍ أتينا بها، وكفى بنا حاسبين﴾. (سورة الأنبياء، الآية ٤٧).

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره﴾. (سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨).

ومن هنا تكون فعاليتها في النفس المؤمنة..

فقد خلق الله في الإنسان دوافع عميقة لحكمة يريدها:

﴿زُيّن للناس حُبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضـة والخيل المُسوّمة والأنعام والحرثِ، ذلك متاعُ الحياة الدنيا﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٤).

بعض الحكمة أن تكون هذه الدوافع محركات تدفع الإنسان للعمل، للقيام بمهمة الخلافة وعمارة الأرض..

وبعض الحكمة أن تكون موضع ابتلاء للإنسان: هل يقف في تناول هذا المتاع عند الحدود التي رسمها الله؟ أم يتجاوزها طمعًا في مزيد من متاع الحياة الدنيا فتفسد حياته في الدنيا ويذوق العذاب في الآخرة؟

ولا شيء يقنع الإنسان أن يقف عند الحدود التي رسمها الله إلا إيمانه بأن ما يفتقده في الحياة الدنيا ـ طاعة لله واحتسابًا ـ **ليس ضائعًا في الحقيقة**، إنما هو رصيد مذخور، يتسلمه أضعافًا مضاعفة يوم القيامة، يهنأ به ويستمتع، بينما الذين غرقوا في المتاع الحرام محرومون!

بل ترتقي نفسه درجات فوق ذلك.. فلا يعود حدّ المباح هو الذي يحجزه عن التجاوز. إنما يشعر ـ قانعًا ـ أنه لا يحتاج لأن يصل إلى آخر الحد المباح! فقبلَه ـ بقليل أو كثير ـ تنتهي رغباته، **ويزهد حتى في المتاع المباح!** لا لأن نفسه قد ماتت ولم تعد ترغب! **كلا!** فما يريد الإسـلام أن يقتـل رغـائب النفس، وقـد خلقها الله لعمارة الأرض. ولكن لأن رغباته قد اتجهت وجهة أخرى أرحب وأعمق، وأعلى وأشف:

﴿**زين للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرةٌ ورضوان من الله، والله بصير بالعباد. الذين يقولون ربّنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار**﴾. (سورة آل عمران، الآيات ١٤ ـ ١٧).

وهكذا تتوجه الطاقة الحية إلى عالم أرفع من عالم الحس، إلى «**عالم القيم**»، التي تجعل حياة الإنسان كريمة عالية رفيعة، لائقة «بالإنسان»، الذي أسجد الله له الملائكة وكرّمه وفضله على كثير ممن خلق:

﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً**﴾. (سورة الإسراء، الآية ٧٠).

ذلك أثر الإيمان باليوم الآخر حين يصدق الإيمان. ولكن **الأمم السابقة لم تثبت على الإيمان**..

فأما اليهود ـ كما قلنا ـ فقد استخفوا باليوم الآخر أيّما استخفاف، فغرقت حياتهم في ألوان من الجرائم لا يحصيها العدّ، وفسدوا وأفسدوا، حتى صاروا عنوانًا على الفساد، **وانحطوا بالبشرية كلها إلى الدّرْكِ الأسفل**.. إلا من رحم ربك.

وأما النصارى فقد زاولوا الخوف من اليوم الآخر زمنًا لم يطل كثيرًا، ثم بدأوا يتكلون على أنهم أبناء الله وأحباؤه.. ثم جاءت مهزلة **صكوك الغفران** التي ذهبت بكل الجدية التي يحملها الإيمان بالآخرة، والجنة والنار[1].. ثم جاءت الفترة التي أنكروا فيها عالم الغيب كله، وأخلدوا إلى الأرض وغرقوا في الشهوات.

وظلت الأمة الإسلامية أطول فترة تؤمن بالله واليوم الآخر، وترسخ الإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء، وتترجم إيمانها بذلك كله أعمالاً مشهودة في واقع الأرض.

---

(١) راجع في مهزلة صكوك الغفران «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهره، إصدار الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض، ط ٤ سنة ١٤٠٤هـ، ص ٢١٠.

ولعل من أبرز هذه الأعمال الجهاد في سبيل الله . فقد اقترن الجهاد في حس هذه الأمة بالشهادة :

﴿قل هل تَربّصُون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ . (سورة التوبة، الآية ٥٢)، الشهادة أو النصر!

﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يَشْرُون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ . (سورة النساء، الآية ٧٤).

﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ . (سورة آل عمران، الآيات ١٦٩ ـ ١٧١).

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾ . (سورة التوبة، الآية ١١١).

وجاهدت هذه الأمة جهادًا متواصلًا لقرون عدة متوالية من أجل نشر الدعوة، وصد العدوان عن الإسلام، وتوغلت بالإسلام في قارات الدنيا الثلاث التي كانت معروفة يومئذ، يحدوها الإيمان بالله واليوم الآخر، والرغبة في الجنة، وحب الشهادة في سبيل الله .

وما زالت جذوة الجهاد تشتعل بعدما خمدت فترة من الزمن، فرأيناها في **الجهاد الأفغاني** حيث استشهد مليون ونصف مليون شهيد، وهزوا بجهادهم أعتى نظام وحشي عرفه الناس في العصر الحديث[1]، ورأيناها في **الجهاد الفلسطيني** الذي يجاهد تحت راية لا إلـه إلا الله، **والجهاد الفلبيني، والجهاد في جامو وكشمير. . وغدًا تتوهج الشعلة** لإنقاذ العالم الإسلامي مما هو واقع فيه . .

(١) إقرأ ـ إن شئت ـ فصل «الجهاد الأفغاني»، في كتاب «الجهاد الأفغاني ودلالاته».

ولم يكن الجهاد في سبيل الله هو الميدان الوحيد الذي حداهم إلى خوضه الإيمان باليوم الآخر والرغبة في جنة الخلد. فكثير من أعمال البرّ كان الدافع إليها هو الدافع ذاته..

من ذلك «**الأوقاف**» التي وقفها المسلمون لأعمال الخير، زهدًا في متاع الحياة الدنيا، أو رغبة في بذل شيء من مالهم «**للصالح العام**» ابتغاء مرضاة الله.

ومن هذه الأوقاف أنشئت المدارس لتعليم الطلاب بالمجان من أول مكاتب تحفيظ القرآن الكريم إلى آخر درجات التخصص العلمي، بل لم يقتصر الأمر على تعليمهم بالمجان، وإنما شمل كفالتهم طيلة فترة الدراسة ليتفرغوا لطلب العلم غير مشغولين بطلب المعاش. **فعرفت الأمة الإسلامية التعليم المجاني قبل أن تعرفه البشرية بعدة قرون.**

ومنها أنشئت المستشفيات (البيمارستانات) لعلاج المرضى بالمجان **فعرفت الأمة الإسلامية العلاج المجاني قبل أن تعرفه البشرية بعدة قرون.**

ومنها أنشئت دور رعاية الأيتام والعجزة والمنقطعين.. ودور للعناية بالحيوانات المحتاجة إلى الرعاية.. **قبل أن تعرف البشرية شيئًا من ذلك بعدة قرون.**

وفوق ذلك كله كانت روح من **التقوى ومخافة الله** تظلل حياة الناس، وتمنحها من البركة والطمأنينة ما تفتقده الجاهليات التي لا تؤمن بعالم الغيب، ولا تؤمن إلا بما تدركه الحواس.

* * *

وارتبطت قضية التوحيد كذلك بتطبيق شريعة الله، فأصبح محك الإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله، ومن آيات الكفر الحكم بغير ما أنزل الله، والمنافقون - الذين هم في الدرك الأسفل من النار - هم الذين يتظاهرون بالإسلام ثم يعرضون عن التحاكم إلى شريعة الله، يريدون التحاكم إلى الطاغوت.

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمِرُوا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يُضلّهم ضلالاً بعيدًا﴾. (سورة النساء، الآية ٦٠). **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك**

فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويُسلّموا تسليمًا﴾. (سورة النساء، الآية ٦٥).

﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾. (سورة النور، الآيتان ٤٧، ٤٨). **﴿إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون﴾**. (سورة النور، الآية ٥١).

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. (سورة المائدة، الآية ٤٤).

ذلك هو ارتباط قضية التشريع بأصل الإيمان.

وقد ظل تحكيم شريعة الله في حس هذه الأمة مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بقضية التوحيد ثلاثة عشر قرنًا متوالية من تاريخها، لا يخالجها شك في أمره، ولا ترضى بديلًا عنه، **حتى غلبتها الجاهلية المعاصرة على دينها في القرن الأخير**.

وحين حدث ـ مرة واحدة ـ في تاريخها الماضي أن حكم التتار أجزاء من العالم الإسلامي بغير شريعة الله، فحكموا «**بالياسق**» الذي كان يشمل أحكامًا من التوراة وأحكامًا من الإنجيل وأحكامًا من القرآن بالإضافة إلى أعراف التتار المنتشرة بينهم يومئذ، أجمع علماء الأمة على أنه **كفر بواح**، يقاتلون عليه حتى يعودوا إلى شريعة الله، لا يُحَكِّمُون غيرها في كثير ولا قليل[1].

وما أبعد الفرق بين تحكيم شريعة الله وتحكيم شرائع الجاهلية:

---

(١) قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون﴾: «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع عن أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا، يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فمن فعل ذلك منهم فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير» تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٨.

﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون**﴾. (سورة المائدة، الآية ٥٠).

وحينما كان يحكم الأرض طغاة «مقدسون»، يحكمون بأهوائهم، على أساس «الحق الإلـهي المقدس» أو غيره من الأسس الفاسدة، كانت الأرض الإسلامية محكومة بشريعة الله ـ على الرغم من الانحرافات التي لحقت بالتطبيق من جور الحكام فيما يختص بمصالحهم ـ فعرفت الأمة الإسلامية معنى التحاكم إلى شريعة موحدة، لم يصنعها الأغنياء لصالحهم[1]، ولا صاغها الفقراء انتقامًا لأنفسهم من ظلم الأغنياء[2]، إنما أنزلها الله رب الأغنياء والفقراء ﴿**ليقوم الناس بالقسط**﴾. (سورة الحديد، الاية ٢٥). ويتحاكموا بينهم بالعدل، وحال تحكيم شريعة الله دون كثير من الشر الذي وقع في الجاهليات عن شمال وعن يمين.

ولقد كان تطبيق الشريعة الإسلامية في مساحة واسعة من الأرض، ومساحة واسعة من التاريخ، هو ذاته من **العطاء الذي منّ الله به على هذه الأمة**، وجاهدت الأمة لتوصيله إلى الناس في ربوع الأرض الواسعة، فحقق الله على يديها ذلك الخير. لأول مرة في التاريخ.

فقد كانت شريعة موسى شاملة لمتطلبات الحياة الإيمانية في وقتها، ولكنها كانت خاصة ببني إسرائيل وحدهم، ولم تكن مفتوحة «**للأميين**».. فظلت محصورة في نطاقهم، فضلاً عن التحريف البشع الذي نالها على أيدي «**حكماء بني إسرائيل**»، الذين قال الله فيهم: ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويلٌ لهم مما يكسبون**﴾. (سورة البقرة، الآية ٧٩). أولئك الذين **أحلّوا الربا**، واحتالوا ليأكلوا أموال الناس بالباطل، وعطّلوا حكم الرجم للزاني المحصن، وأفسدوا سير الأنبياء فاتهموهم بكل كبيرة من أجل إباحة ارتكاب هذه الكبائر «**لشعب الله المختار**»!

وجاء عيسى عليه السلام، ليقول لبني إسرائيل:

---

(١) كما هو الحال في الديمقراطية.

(٢) كما هو الحال في الاشتراكية.

﴿ومُصدِّقًا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حُرّم عليكم﴾. (سورة آل عمران، الآية ٥٠).

فكان المفروض في النصارى أن يحكموا بما جاء في الإنجيل مُصدِّقًا لأحكام التوراة بصفة عامة ومعدلاً لبعضها على الخصوص:

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾. (سورة المائدة، الآية ٤٧).

ولكن أهل الإنجيل **لم يحكموا بما أنزل الله فيه**، بل جاء بولس فحرّم عليهم الختان وقد أمرهم الله به، وجاء غيره فأحل لهم الخمر والخنزير، وقد حرمهما الله، فاتبعوهم في ذلك كله فوقعوا في الشرك الذي قال الله فيه:

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾. (سورة التوبة، الآية ٣١).

وبيّن رسول الله وجه الشرك في ذلك حين قال صلى الله عليه وسلم، لعدي بن حاتم: «**ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم؟ فتلك عبادتهم إياهم**»[1].

بل كانت الطامة أن الشريعة بكاملها لم تطبق، بل بقيت «**وصايا**» خلقية يلتزم بها الأتقياء تقربًا إلى الله ولكنها لا تحكم واقع الأرض، إنما يحكم القانون الروماني ذلك الواقع، على أساس قول مدخول اعتبرته الكنيسة في إبان ضعفها، ولم ترجع عن اعتباره حين أصبح في أيديها السلطان الكافي لإلزام الحكام بتطبيق الشريعة، ذلك ما نسب إلى السيد المسيح من أنه قال: «أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله»!

وهكذا فإن الأرض الواسعة التي انتشرت فيها ديانة بولس - باسم النصرانية - **لم تطبق فيها الشريعة الربانية أبدًا**، ولم تعرف كيف يكون الالتزام بما أنزل الله في التشريع. وحتى حين كانت تحكمها «**الحكومة الثيوقراطية**»، كما يسمونها فلم تكن تحكم بما أنزل الله، إنما كانت تحكم بأهواء رجال الدين باسم الدين.

وهكذا انتقلت أوربا في قضية التشريع من جاهلية إلى جاهلية، حتى دخلت في حكم الجاهلية المعاصرة التي أباحت من المظالم والمفاسد ما لم تبحه شريعة في التاريخ.

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

والأمة الإسلامية ـ وحدها ـ هي التي طبقت الشريعة الربانية بإخلاص غير مسبوق، في مساحة واسعة من الأرض، ومساحة واسعة من التاريخ، إلى أن أجليت عنها في الاستضعاف الأخير.

وحين تحكم شريعة الله تحف البركة والطمأنينة الأرض، وحين تحكم الجاهلية يظهر في الأرض الفساد. .

ويكفي من بركة تطبيق الشريعة أن الأرض الإسلامية لم تعرف نظام الإقطاع الأوربي، الذي عاث في أوربا فسادًا مالا يقلّ عن ألف عام، والذي كان الإقطاعي فيه يجمع في شخصه السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها في آن واحد، ويفرض على الناس ـ عبيد الأرض ـ ما يعنّ له أن يفرض من الأهواء والمظالم، التي ربما كان من أشدها دنسًا «**حق الليلة الأولى**»، الذي يبيح للسيد اغتصاب من شاء من زوجات «العبيد» من «**الشعب**»، فلا تصل إلى زوجها إلا وقد دنسها الشيطان.

ويكفي من بركة تطبيق الشريعة الربانية أن الأرض الإسلامية كانت ـ لفترة طويلة ـ **أطهر أرض من الفاحشة، وأطهر أرض من الخمر وموبقاتها، وأطهر أرض من الربا، وأقل بلاد الأرض جرائم**.

وليس معنى ذلك أن الناس كانوا ملائكة أطهارًا، فمجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم، نفسه لم يكن مجتمعًا من الملائكة، إنما كان تطبيق المنهج الرباني في واقع الأرض يحصر الجريمة في أضيق نطاق ممكن، فتقع ـ حين تقع ـ شذوذًا يستنكر، وتوقع على مرتكبها العقوبة الرادعة، **فلا تتبلد عليها حواس الناس**.

إن مزية التشريع الرباني أنه يعمل على الحيلولة دون وقوع الجريمة قبل أن يعمل على عقاب مرتكبها. والعقوبة الرادعة في هذه الشريعة هي ذاتها لون من ألوان الوقاية من انتشار الجريمة في الأرض.

لقد كان الزواج الباكر يغني عن **ارتكاب الفاحشة**. وكانت تقوى الله

والطمأنينة بذكره تغني عن **الخمر**. وكانت قناعة الناس بالربح الحلال والعيش الحلال تحول بينهم وبين **الربا**. وكانت المودة المتبادلة بين الناس **تقلل من حجم الجريمة**، فكان الناس في ريف الإسلام الواسع لا يعرفون الأبواب المغلقة على بيوتهم لاستتباب الأمن فيه.

وكانت المدينة بالطبع غير الريف.. فيها أماكن لارتكاب الفاحشة، وأماكن لشرب الخمر، وأماكن للمجون واللهو، وعلى أطرافها يقبع قطاع الطريق و«الشطار»[1].. ومع ذلك كله فقد كانت بالنسبة لغيرها من المدن في خارج العالم الإسلامي أمنًا وسلامًا وطمأنينة وبركة، وكان التجار يتركون حوانيتهم مفتوحة ليذهبوا إلى الصلاة في المسجد فلا يسطو عليها شذاذ الآفاق!

وقدم علماء الأمة وفقهاؤها ثروة «**إنسانية**» ثرّة لا تزال تمثل زادًا نافعًا للبشرية إلى هذه اللحظة، سواء في **علم الأصول**، لوضع قواعد الاستدلال وقواعد الاستنباط من نصوص الشريعة، **أو علم الفقه** لوضع الأحكام التفصيلية لما يجدّ في حياة الناس من أمور، أو في **التربية** لتهذيب النفس الإنسانية على هدى التنزيل الرباني، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك من العلوم النافعة للناس في دينهم ودنياهم، وانتشر هذا العلم في ربوع العالم الإسلامي عن طريق المدارس وحلقات العلم في المساجد، **في وقت كانت أوربا تعيش فيه في الظلمات**..

وارتبط هذا كله في حس الناس وفي واقع الأمر بقضية التوحيد، وأصبح لهذه القضية واقع عملي في حياتهم، يمثل منهج حياة متكامل، يشمل الحياة كلها، لأن الشريعة الربانية شملت كل جوانب الحياة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأخلاقية.. كما شملت الثابت الذي يريد الله له أن يثبت، والمتغير الذي أذن الله فيه بالاجتهاد الدائم لمواكبة ما يجد من أمور الحياة، وربطه بالأصول الثابتة في هذا الدين، التي أطلق عليها العلماء «**مقاصد الشريعة**».

---

(١) الشطار ـ في الأصل ـ هم قطاع الطرق والنشالون، لأنهم يشطرون جيوب الناس ـ أي يشقونها ـ ليسرقوا ما فيها. ثم تطور استخدام اللفظ حتى شمل معنى الاحتيال الذكي لنهب أموال الناس بغير استخدام العنف، ثم تطور مرة أخرى فأصبح يعني المهارة بصرف النظر عن الوسيلة والأهداف!

وهكذا صارت قضية التوحيد هي منهج الحياة:

﴿قل إنّ صلاتي ونُسكي، ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له﴾. (سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢، ١٦٣).

وكانت أكبر عطاء منّ الله به على هذه الأمة، وأكبر عطاء أهدته هذه الأمة للناس..

(٢)

كان الإسلام ميلادًا جديدًا للإنسان، كما كانت كل رسالة سماوية أنزلت من عند الله.

كانت كلها تحريرًا للإنسان من خرافاته وأوهامه وتصوراته الفاسدة عن الله والكون والحياة والإنسان، وتحريرًا له من عبودياته الزائفة، سواء عبوديته للآلهة المزعومة، أو لشهواته، أو للأعراف المنحرفة، أو عبودية البشر بعضهم لبعض في صورة أشخاص لهم قداسة، أو في صورة مشرعين من عند أنفسهم بغير ما أنزل الله.

ولكن الرسالات السابقة كلها حُرّفت، فأفسدت «**الميلاد الجديد**» للإنسان، وأعادته - كما كان في جاهليته - عبدًا لغير الله.

وبقي «**الميلاد الجديد**» الذي أحدثه الإسلام أطول فترة من التاريخ يمثل التحرير الحقيقي للإنسان.. لقد كان شيئًا ضخمًا جدًّا في الواقع.

كان صفاء «**التوحيد**» كما بينه الله في كتابه المنزل، وكما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأصحابه، من النصاعة والقوة، والعمق والأصالة، بحيث أحدث في واقع الأرض تلك الدفعة الهائلة التي لا مثيل لها في التاريخ، سواء في عظمة الشخصيات التي أبرزتها، أو في صلابة القاعدة التي أسستها، أو في متانة المجتمع الذي صاغته، أو في الانسياح الواسع في أرجاء الأرض.

كان تحريرًا للرجل والمرأة على السواء.. لا في عالم النظريات ولكن في **عالم الواقع**.

وفي تجربتين سابقتين أخفق البشر في ممارسة ذلك التحرر على المستوى الملائم للإنسان..

في **التجربة اليهودية** أخلدوا إلى الأرض، واتبعوا أهواءهم وشهواتهم، وتركوا عالم القيم جفاءً واستهتارًا وتمردًا على أوامر الله، وتبجحًا في الوقت ذاته بأنهم هم الناس ومن عداهم دواب!

وفي **التجربة النصرانية** تركوا متاع الأرض، لكي يحققوا القيم العليا في عالم الروح المنعتقة من أغلال الجسد، في رهبانيتهم التي ابتدعوها، فما رَعَوْها حق رعايتها، وانقلب أكثرهم فاسقين!

وفي **التجربة الإسلامية** أفلح البشر فيما أخفقوا فيه من قبل.

عاشوا حياتهم الأرضية الواقعية على ضوء القيم التي آمنوا بها.. فالتقى الواقع بالمثال!

انطلق الرجال يمشون في مناكب الأرض يبتغون من فضل الله، ويتزوّجون وينسلون، ويأخذون قسطهم من المتاع المباح، وفي الوقت ذاته يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ويرتفعون على متاع الأرض كله في لحظة حين يدعو إلى ذلك داعي الجهاد، دون أن يفقدوا توازنهم، أو يخرجوا عن بشريتهم، أو يكبتوا دوافعهم..

وانطلقت المرأة بكل «**إنسانيتها**» تبني.. تبني مجتمعًا لا مثيل له في التاريخ..

لقد تحررت.. تحررت من أوضاعها المذلّة التي عاشتها في الجاهلية.. وتحررت من نظرة المجتمع لها، ونظرتها لنفسها في حدود عالم الحس القريب، التي كثيرًا ما تقترب من عالم الحيوان!

تحررت فشعرت أنها «**إنسانة**»، وأنها تعيش لهدف «**إنساني**» ضخم، هو بناء مجتمع ذي عقيدة، مجتمع ذي قيم عليا، مجتمع ذي فضائل، هي ركن أساسي فيه، وهي الباني الأساسي فيه.. في الوقت ذاته الذي تعيش فيه حياتها الواقعية تمامًا.. تتزوج، وتحمل وتلد، وتقوم بأعباء البيت وأعباء الزوجية، ولكنها في كل ذلك إنسانة ذات آفاق إسلامية، ونظرة إسلامية للأمور، واهتمامات إسلامية بالدعوة وبأحوال المجتمع.

وكان أبدع ما في ذلك التحرر الإنساني أنّ تحررها لم يدفعها إلى التمرد على

أنوثتها، بل هي تعيش كيانها الأنثوي الكامل، وتمارس إنسانيتها من خلاله.. كما أنها - كالرجل سواء - تعيش في ظل القيم الأخلاقية الإسلامية، التي تفرض قيودًا كثيرة على شهوات النفس، ولكنها قيود «**الإنسان**»، التي ارتفع بها عن عالم الحيوان!

(٣)

كانت حركة التوسع الإسلامي حركة فريدة في التاريخ من حيث مضمونها وأهدافها.

ولقد يكفينا في شرح أهدافها تلك الكلمات القلائل التي قالها ربعي بن عامر حين سأله رستم قائد الفرس: ما الذي أتى بكم إلى بلادنا؟! قال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى **عبادة الله**، ومن جور الأديان إلى **عدل الإسلام**، ومن ضيق الدنيا إلى **سعة الدنيا والآخرة**»!

ولقد يكفينا في شرح مضمونها قصة الشاب القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص بالعصا حين تسابقا ففاز عليه الشاب القبطي فضربه وقال له: «خذها وأنا ابن الأكرمين»! فلم يطق الشاب - أو أبوه - ضربة العصا، وهم الذين كان الرومان يجلدونهم بالسياط فلا يجدون ملجأ من الظلم ولا باعثًا للشكوى.. فارتحل إلى المدينة يشكو ضربة العصا إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فأعطاه عمر - رضي الله عنه - درّته ليضرب بها «ابن الأكرمين»! وقال لعمرو قولته المشهورة: «**يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا!**» وفي هذه القولة المختصرة يكمن الفارق بين حركة التوسع الإسلامي، وحركات التوسع الأخرى في التاريخ، **فهذه كانت تستعبد الأحرار، بينما التوسع الإسلامي كان يحرر العبيد**..

نعم.. إن كل حركات التوسع تستخدم القوة لتتوسع، ولقد استخدم الإسلام القوة في حركته التوسعية، وكان استخدام القوة بأمر من الله:

﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾. (سورة الأنفال، الآية ٦٠).

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يَلُونَكُم من الكفار ولْيَجِدُوا فيكم غلظة..﴾. (سورة التوبة، الآية ١٢٣).

ولكن فيم يستخدم الإسلام القوة؟ ألللاستيلاء على الأرض؟ ألللاستيلاء على الثروات؟ ألإذلال الناس واستعبادهم؟ ألإرواء شهوة الفتح والتوسع؟ ألإرضاء غرور طاغية متعجرف أو قائد حربي معجب بنفسه؟!!

إن هذه ـ وأمثالها ـ هي الأهداف التي استخدمت القوة من أجلها على مدار التاريخ، وكونت بواسطتها الإمبراطوريات في التاريخ، قديمه وحديثه سواء.

والإسلام لا يستخدم القوة لشيء من هذا كله..

ولا كذلك ليفرض العقيدة على الناس بالإكراه، كما زعم المستشرقون وغيرهم من أعداء هذا الدين..

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾. (سورة البقرة، الآية ٢٥٦).

وإنما يستخدم الإسلام القوة ـ بأمر من الله ـ لإزالة العقبات التي تقف بين النـاس وبـين التعـرف على الحق في صورته الحقيقية، ممثلة هذه العقبات في **نظم جاهلية**، تقوم على رأسها حكومات جاهلية، وتحميها جيوش جاهلية، فإذا أزيلت العقبات فالناس أحرار بعد ذلك، يختارون لأنفسهم ما يشاءون، دون ضغط من المسلمين ولا إكراه.

ولقد أحاط بهذه القضية كثير من الغبش لا من قبل المستشرقين وحدهم، ولكن من قبل تلاميذهم ممن يحملون أسماء إسلامية، ومن قبل المنهزمين أمام «**الحضارة**» الغربية، الذين يقولون إن هذا أمر قد انتهى بانتهاء ظروفه التاريخية، ولم يعد له مكان اليوم. وقد أتيحت للدعاة حرية الدعوة، واستخدام كل الوسائل الإعلامية المتاحة من كتاب وصحيفة وإذاعة وتلفاز!

ونقول لهؤلاء ـ كما قلنا في كتاب «**الجهاد الأفغاني ودلالاته**» ـ إن القضية ليست قضية الوسائل الإعلامية، ولا قضية «**إقناع**» الناس بالحق عن طريق عرض الحقائق على عقول الناس لتتأملها وتتدبرها، فإن قليلاً جدًّا من الناس هم الذين يتعاملون مع «**الحقائق المجردة**» أو مع «**الشيء في ذاته**». إنّما الغالبية العظمى من الناس يرون الأشياء من خلال الملابسات الواقعية الميحطة بها، أو بعبارة أخرى من خلال «**القوة**» التي تحيط بها.

ونضرب مثالين من الواقع القريب يبينان هذه الحقيقة . .

إنّ أعداء الإسلام من يهود ونصارى، يريدون القضاء على هذا الدين ولاشك :

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ . (سورة البقرة، الآية ١٢٠).

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ . (سورة البقرة، الآية ١٠٩).

فلماذا لم يكتفوا - في القديم أو الحديث - بالدعاية ضد الإسلام، وتشويه صورته في نفوس الناس؟! **لماذا حاربوا «دولة الإسلام»** وعملوا - في العصر الأخير - على إزالتها من الوجود أملاً في القضاء على **الإسلام ذاته؟**

أليس لأنهم يعلمون جيدًا أن الإسلام مع وجود دولة تحميه، غير الإسلام المجرد الذي لا دولة له ولا حماية ولا جيوش؟[1].

أما المثال الثاني فهو **الشيوعية بعد أن تخلت عنها روسيا!** أتراها هي هي كما كانت تحميها روسيا بكل قوتها وتقف لأعدائها بالمرصاد؟ أم بطل سحرها في النفوس وتغيرت نظرة الناس إليها مع أن مبادئها لم تتغير، و«حقائقها!» في الكتب ما زالت على ما كانت عليه!!

إن الناس لا يرون الحقائق المجردة ولا يتعاملون معها - إلا القلة النادرة منهم - إنما تكون «القوة» في حسهم مناطق جذب تحرف مسار الفكر، وتحرف مسار الشعور! وحين تكون القوة محيطة بالباطل فإنها تزينه في قلوب الناس فيحسبونه حقًّا ويؤمنون به ويدافعون عنه، بينما يتغير الموقف تمامًا في نفوس الناس لوزالت القوة التي تحيط به، فيرونه باطلاً - على حقيقته - ويتخلون عنه . .

وهذا هو الذي أمر الله المسلمين أن يفعلوه . . أن يزيلوا القوة التي تحيط

---

(١) لا شك أن إزالة دولة الخلافة - الذي خطط له اليهود والنصارى - كان عاملاً مهمًّا في الضعف المزري والضياع الذي آل إليه المسلمون في العصر الحاضر. ولولا أن الله قيض لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها لتحقق هدف الأعداء كاملاً. انظر الفصل القادم.

بالباطل فتزينه في قلوب الناس، فيحسبونه حقًّا ويتشبثون به. . فإذا أزيلت هذه القوة فلا إكراه في الدين. .

بل إن الأمر لا يبدأ بالقتال، إنما يبدأ بعرض الإسلام على الناس، فإن قبلوه فقد انتهى الأمر، وصار الداخلون في الإسلام إخوة في الدين، وصاروا جزءًا من الأمة التي وصفها الله بالخيرية، لا يتفاضلون بينهم إلا بالتقوى.

فإن رفضوا الإسلام فقد أمر الله بفرض الجزية عليهم **للهدف ذاته الذي فرض من أجله القتال،** ولكن بأسلوب سلمي يحقن الدماء. . فالمطلوب هو ألا تقف القوة المحيطة بالباطل عقبة في سبيل رؤية الناس للحق على حقيقته، وألا تكون منطقة جذب تحرف مسار الأفكار والمشاعر. . وأداؤها للجزية يفيد هذا المعنى من غير قتال. فالقوة التي تُفْرَض عليها الجزية لا تعود في حسّ الناس قوة، ولا تقوى على تحريف مسار الحق حتى ينظر الناس إليه على أنه باطل!

فأما إن أبوا الإسلام وأبوا الجزية فعندئذ فقط يقع القتال. . ويقع للهدف الذي شرحناه من قبل، لا لفرض الإسلام على الناس!

ومهما يكن من أمر فنحن **لا نتحدث عن الأوضاع الحاضرة التي عجز المسلمون فيها حتى عن الدفاع عن أنفسهم، إنما نتحدث عن التاريخ.**

* * *

توسع الإسلام في الأرض. . فماذا فعل بالناس؟

فُتحت مصر فكان من أمرها ما رأينا في قصة الشاب القبطي، ولم يقع إكراه على الأقباط أن يدخلوا في الإسلام، ولم يُجْلَوا من أرضهم، ولم يطردوا من بيوتهم، ولم تحرّق قراهم، ولم تنهب أموالهم. . والدليل أنه مازال في مصر بعد الفتح الإسلامي بأربعة عشر قرنًا أقباط يتزايد عددهم، يستمتعون بأمنهم وطمأنينتهم، وديارهم وأموالهم، يُمارسون دينهم في حرية كاملة تحت رعاية المسلمين وحمايتهم.

قارن هذا بما وقع للمسلمين في الأندلس، وما وقع لهم ـ مثلاً ـ في الفلبين.

كيف فعل النصارى بالمسلمين حين تمكنوا منهم في الأندلس؟ لقد أبادوا منهم

مئات الألوف في مجازر رهيبة تعترف ببشاعتها المراجع الأوربية ذاتها، ثم أجلوهم إجلاء كاملاً من البلاد التي حكموها - بالعدل - ثمانية قرون، والتي كانت المنارة التي علمت أوربا، وأخرجتها من ظلمات قرونها الوسطى إلى النور.

وكيف فعل النصارى كذلك بالمسلمين حين غزوا الفلبين؟ لقد طردوهم من أرضهم، وحرّقوا عليهم قراهم، وظلوا يزحزحونهم من أراضيهم الخصبة ويستولون عليها قسرًا، ويدفعونهم دفعًا إلى الأرض الجرداء التي لا تثمر. ومع ذلك لا يتركونهم هناك في سلام، بل تستمر عمليات الإبادة الجماعية حتى هذه اللحظة تحت سمع العالم وبصره.. **وتتمتع الفلبين برعاية خاصة من أمريكا تستعين بها على سحق ما بقي من كيان المسلمين.**

وفتحت الشام.. فكان من أمرها أنهم اشترطوا على أبي عبيدة بن الجراح أن يحميهم من بطش الروم وطغيانهم مقابل دفع الجزية للمسلمين، فقبل أبو عبيدة الشرط.

ثم سمع أبو عبيدة أن هرقل يُعدّ جيشًا ضخمًا لاسترداد الشام من المسلمين. **فقام بعمل لا مثيل له في التاريخ كله**.. إذ ردّ الجزية لأهل الشام، وقال لهم: لقد اشترطتم علينا أن نحميكم. ولقد سمعتم بما يجهز لنا. وإنا لا نقدر على ذلك (أي على حمايتكم حسب العهد بيننا وبينكم)، ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم.. فلما نصره الله عليهم عاد أهل الشام يدفعون الجزية عن رضى وهم يقولون: «أنتم - ولستم على ديننا - أحبّ إلينا وأرأف بنا من أهل ديننا»[1].. ثم دخلوا في دين الله أفواجًا بعد ذلك، وبقي من بقي منهم على نصرانيته، يستمتع بالحماية والأمن وحرية العبادة في ظل الحكم الإسلامي.

* * *

وامتد الفتح في سنوات قليلة فشمل مساحة واسعة من الأرض لا مثيل لها فيما عرف من حركات التوسع في التاريخ.

(١) انظر ت. و. آرنولد «الدعوة إلى الإسلام»، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه، ص ٥٣.

وكان لشجاعة الفاتحين وروحهم القتالية العالية أثرها في سرعة هذا الفتح ولا شك. فقد جعل الله قوة المؤمن المقاتل عشرة أضعاف عدوه الكافر، ولا تقل عن ضعفه في حالة الاستضعاف:

﴿يا أيها النبي حَرِّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبـوا ألفين بإذن الله. والله مع الصابرين﴾. (سورة الأنفال. الآيتان ٦٥، ٦٦).

ولكن القضية التي تلفت النظر ليست هي قضية «**الأرض**» التي فتحت بهذه السرعة المذهلة، وإنما قضية «**القلوب**»!

لقد فتح الفتح الإسلامي ملايين من القلوب دخلت في الدين الجديد، بغير ضغط ولا إكـراه، سواء في مصر والشـام، أو في العـراق وفـارس، أو في الشـمال الأفريقي، أو في بلاد السند أو غيرها من البلاد.

بل حدثت عجيبـة أخـرى لا مثيل لها في التاريخ.. أن كثيرًا من الشعوب المفتوحة **نسيت لغتها تمامًا**، حتى أولئك الذين بقوا من أهلها على دينهم ولم يدخلوا في الإسـلام، فصارت العربية ـ لغة الإسلام ـ هي لغتهم، وصار النصارى منهم يؤدون عبادتهم بالعربية، لا بالقبطية ولا بالسريانية ولا غيرها من اللغات التي كانت لهم قبل الفتح الإسلامي، مع أنه لم يقع عمل واحد من أعمال الإكراه لتغيير لغات الناس، كالذي فعلته فرنسا في الشمال الإفريقي مثلاً، إذ لم يرو التاريخ حادثة واحدة في هذا الشأن؛ إنما تعلم الناس العربية عن رضا ورغبة دون إكراه.

هذه القلوب لم يفتحها السيف! فالسيف قد يفتح الأرض، ولكنه لا يفتح القلوب!

إنما فتحتها العقيدة الجديدة ممثلة في سلوك واقعي من الفاتحين.

وذلـك من بين ما تفـردت به حركـة التوسع الإسلامي عن حركات التوسع التاريخية في القديم والحديث.

ففي القديم كان القهر والإذلال والاستعباد هو السلوك الواقعي للغزاة، بغير غطاء من الشعارات الزائفة.

وفي الحديث رفعت الشعارات الزائفة للتضليل، **وبقي القهر والإذلال والاستعباد هو السلوك الواقعي للغزاة.**

أما في الفتح الإسلامي فقد كان الشعار المرفوع هو **الإسلام**، وكان السلوك الواقعي للفاتحين هو مصداق انتمائهم لهذا الدين.. فأحبَّ الناس هذا الدين، الذي يخرج هذه النماذج الخلقية والإنسانية الرفيعة.. فأصبحوا مسلمين.

وأما الذين رغبوا في البقاء على دينهم فقد كفل لهم الفتح الإسلامي عقيدتهم وحريتهم وأمنهم وطمأنينتهم، فاستقروا في ظله آمنين.

* * *

إن التسامح الديني من أبرز صفات الفتح الإسلامي، التي أفردته عن كل حركات التوسع في التاريخ(١).

فاليهود المضطهدون في أوربا على يد النصارى ـ بسبب اعتقاد النصارى أنهم تسببوا في صلب المسيح ـ لم يجدوا لهم بلدًا يؤويهم ويعيشون فيه مطمئنين إلا الأندلس الإسلامية. فلما طرد المسلمون من الأندلس نزح اليهود معهم إلى المغرب حيث مازالوا يعيشون حتى اليوم.

ثم كان ملجأهم الآخر هو الدولة العثمانية، حيث عاشوا في سلام وأمن في ظل الحكم الإسلامي، وإن كانوا لخبث طويتهم قد دبروا لإزالة الحكم الإسلامي الذي نعموا تحت ظله بالسلام والأمن.

وأما النصارى فقد حماهم الحكم الإسلامي من اضطهاد بعضهم لبعض، حيث كان هذا الاضطهاد قائمًا في كل الأرض التي تخالف عقائدها عقيدة الدولة الأم. كما أمّنهم وكفل لهم الاستقرار الروحي والمادي فعاشوا أربعة عشر قرنًا آمنين.

وإن هذا التسامح الديني ليكشف عن حقيقة تفردت بها هذه الأمة، وتفردت

(١) إقرأ عن التسامح الديني عند المسلمين كتاب المستشرق ت. و. ارنولد: «الدعوة إلى الإسلام»، سبقت الإشارة إليه.

بها حركة التوسع الإسلامي.

إن هذه الأمـة قد أعـدت إعـدادًا خاصًّـا من لدن ربها تبارك وتعالى لقيادة البشرية، بينما لم تكن هناك أمة أخرى أعدت لهذه القيادة أو صلُحَت لها خلال التاريخ.

إن الله هو الذي أخرج هذه الأمة إلى الوجود، وهو الذي أعدها لتكون شاهدة ورائدة للبشرية. لذلك جعل فيها من الصفات ما يؤهلها لهذه الرسالة فرباها على العدل حتى مع الذين أساءوا إليها:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط. ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. (سورة المائدة، الآية ٨).

﴿إن الله يأمركم أن تُؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾. (سورة النساء، الآية ٥٨).

ووجه رسوله صلى الله عليه وسلم، ليقول لأهل الكتاب:

﴿آمنت بما أنـزل الله من كتـاب، وأمـرت لأعـدل بينكم﴾. (سورة الشورى، الآية ١٥).

وجعل الإيمان بما أنزل على الرسل السابقين جزءًا من عقيدة الأمة:

﴿آلم. ذلـك الكتـاب لا ريب فيـه، هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يُوقنون﴾. (سورة البقرة، الآيات ١-٤).

وهذه النقطة الأخيرة لها أهمية خاصة. فجزء كبير من العداء الذي وقع بين الأمم السابقة كان مرجعه إيمان كل أمة برسولها، **وكفرها بمن بعده**. فقد آمن اليهود بموسى عليه السلام، وكفروا بعيسى، فاضطهدوا أتباع عيسى اضطهادًا بشعًا، وحرّضوا الدولة الرومانية على إيذائهم ومطاردتهم، بل حرّضوا الحاكم الروماني بيلاطس على صلب عيسى نفسه عليه السلام، لولا أن الله نجاه من كيدهم ورفعه إليه.

وآمن النصارى بعيسى عليه السلام، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم،

فاضطهدوا أتباعه اضطهادًا بشعًا حيثما وقعوا في قبضتهم خلال التاريخ كله، سواء في الأندلس، أو في الحروب الصليبية الأولى، أو في الحروب الصليبية الثانية، **التي نعيشها إلى هذه اللحظة في كل الأرض بدرجات متفاوتة ووسائل متفاوتة، تتراوح بين الحرب الاقتصادية لسلب أقوات المسلمين وإفقارهم، والحرب الفكرية لمحاولة إجلاء المسلمين عن عقيدتهم، والحرب الدموية في المذابح التي تقام للمسلمين في آسيا وأفريقيا، فضلاً عن التحالف مع كل أعداء الإسلام لإعانتهم على إبادة المسلمين**، كما يحدث في الهند وجامو وكشمير، وفي فلسطين، وفي أرتيريا وغيرها من بلاد الأرض.

تلك الحرب التي قال عنها اللنبي حين دخل القدس سنة ١٩١٧م: «الآن انتهت الحروب الصليبية!» **وما انتهت بعد في الحقيقة**.

وقال عنها الجنرال غورو الفرنسي وهو يضع قدمه على قبر صلاح الدين: «ها قد عدنا يا صلاح الدين! **نحن أبناء الصليبيين**! ومن أعجبه حكمنا فليبق، ومن لم يعجبه حكمنا فليغادر البلاد!».

وقال عنها المسئول الفرنسي في الجمعية الوطنية الفرنسية، حين تقدم بعض النواب باستجواب للحكومة لوقف الحرب في الشمال الإفريقي، التي كانت تستنزف الأموال والدماء ولا يبدو أنها ستؤدي إلى نصر حاسم.. قال: «إن هذه حرب الهلال والصليب، **وينبغي أن ينتصر الصليب!**».

وقال عنها نيكسون الرئيس الأمريكي الأسبق، حين عاد من جولة قام بها في أفغانستان لدراسة الأحوال هناك، فسأله الصحفيون: ماذا وجدت هناك؟ قال: **وجدت أن الخطر هو الإسلام!** ويجب أن نصفي خلافاتنا مع روسيا في أقرب وقت، فروسيا على أي حال بلد أوربي! والخلاف بيننا وبينها قابل للتسوية، أما الخلاف الذي لا يقبل التسوية فهو الخلاف بيننا وبين الإسلام»!!

أما هذه الأمة فقد أعفاها الله من أن يكون في قلبها غلٌّ لأحد. فأرسل إليها الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، الذي لا نبي بعده، وجعل جزءًا من عقيدتها

الإيمان بالرسل السابقين ورسالاتهم. فخلص قلبها، واستعدت للقاء البشرية كلها بسماحة الإسلام، بلا أحقاد ولا عقد ولا ضغائن. فكان ذلك جزءًا من إعدادها لرسالتها، وجزءًا كذلك من خيريتها.

وبهذا الإعداد النفسي **المتصل مباشرة بأصل العقيدة**، مضت هذه الأمة تتوسع في الأرض، بإذن ربها وأمره، لتُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. بينما تحركت القوى العالمية الأخرى خلال التاريخ من أجل استعباد الناس وإذلالهم، ونهب أقواتهم، وإلحاقهم خُدامًا يخدمون مصالحم علانية أو من وراء ستار.

ثم تكوّن من البلاد المفتوحة تجمع فريد في التاريخ..

لم يكن ذلك التجمع إمبراطورية كالإمبراطورية الرومانية أو الإغريقية أو الفرعونية في القديم، أو البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية أو الروسية في الحديث..

إنما كان «**أمة**»..

أمة تحمل السمات الحقيقية للأمة لأول مرة؛ **بل ربما للمرة الوحيدة في التاريخ**..

أمة تجمعها العقيدة.. وتكوّن العقيدة رابطتها الأولى ورابطتها الأقوى، لا الأرض، ولا اللغة ولا الجنس ولا القوم، ولا أي عصبية من تلك العصبيات الجاهلية التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دعوها فإنها منتنة**»[1]. وقال عنها صلى الله عليه وسلم: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**»[2].

أمة **يجتمع فيها** بلال الحبشي، وصُهيب الرومي، وسلمان الفارسي، على مستوى القمة من سادات قريش. بل يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «أبو بكر سيدنا **وأعتق سيدنا!**» إشارة إلى بلال - رضي الله عنه - ويقول رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخاري.

(٢) رواه أبو داود.

عليه وسلم : «**سلمان منا آل البيت**»[1] .

ويجتمع في هذه الأمة البيض والسود، والحمر والصفر: «**لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسودَ إلا بالتقوى**»[2] .

ويجتمع العربي من الجزيرة، بالشامي، بالمصري، بالعجمي، بالهندي، بالأندونيسي، بالزنجي . . إخوانًا في الله، إخوانًا في الإسلام، إخوانًا في التجمع الواحد الذي تشكله «**الأمة المسلمة**» .

ويدخل ذلك في نطاق عالمية هذه الأمة وعالمية رسالتها . . ويدخل كذلك في حساب خيريتها التي أخرجها بها رب العالمين، بينما التجمعات العالمية التاريخية لم تخل قطّ من الروح الإمبراطورية، التي يُشكّلها وجود «الدولة الأم»، والدول المهزومة المغلوبة على أمرها أمام القوة الساحقة للدولة الطاغية .

(٤)

قامت على يد هذه الأمة حركة علمية واسعة . .

ولم تكن هذه الأمة قبل إسلامها أمة علم، ولا كانت لها اتجاهات «علمية» محددة . ولكنها صارت كذلك بعد الإسلام . وما من شك في أن توجيهات الإسلام كان لها الأثر المباشر في تحويل الأمة إلى البحث العلمي في شتى مجالاته .

بعض هذ التوجيهات كانت توجه النظر إلى ملكوت السمٰوات والأرض للنظر في إبداع الخالق تبارك وتعالى، للتيقن من تفرده سبحانه بالربوبية والألوهية :

﴿إن الله فالق الحبِّ والنوى، يُخرج الحيَّ من الميتِ ومخرج الميتِ من الحيِّ، ذلكم الله فأنى تُؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظُلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرٌّ ومستودع، قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك .

(٢) رواه أحمد في مسنده .

به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خَضِرًا نخرج منه حبًّا متراكبًا، ومن النّخل من طلعها قِنوانٌ دانية وجنّات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينْعِه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾. (سورة الأنعام، الآيات ٩٠ ـ ٩٩).

ولكن التوجيه ـ وإن كان المقصود به أساسًا تقرير الوحدانية، ونفي الشركاء عن الله[1] ـ فإنّ الحس البشري لا يملك مع تأمل هذه الآيات ألا يلتفت إلى الجانب «**العلمي**» فيها. . فكلها «**ظواهر طبيعية**». تلفت النظر. والقرآن الكريم يشد الانتباه إليها شدًّا ليتأملها الإنسان ويتدبرها. وفي أثناء تدبرها لا عجب أن يبحث في «**السنن الربانية**»، التي يُجري الله بها هذه «**الظواهر الطبيعية**»، والبحث عن هذه السنن، ومحاولة التعرف عليها هي «**الروح العلمية**»، الحقيقية التي يتقدم بها البحث العلمي، ويكشف المجهول.

وبعض هذه التوجيهات كان مباشرًا:

﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾. (سورة البقرة، الآية ١٨٩).

﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النّهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلَمُوا عدد السنين والحساب﴾. (سورة الإسراء، الآية ١٢).

وبعضها كان يعمق حاسة الملاحظة والمتابعة الدقيقة:

﴿ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكنًا، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً. ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيراً﴾. (سورة الفرقان، الآيتان ٤٥، ٤٦).

﴿وأوحى ربك إلى النّحل أن اتّخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يَعْرشون. ثم كُلي من كل الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربك ذُلُلاً، يخرج من بطونها شراب مختَلف ألوانه، فَيه شفاء للناس، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. (سورة النحل، الآيتان ٦٨، ٦٩).

ومن هذه التوجيهات ـ وكثير غيرها في الكتاب والسنة ـ توجّه المسلمون لطلب العلم.

(١) جاء في الآية التالية مباشرة: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾.

ولم يكن لديهم رصيد سابق يرجعون إليه، إنما كان العلم الموجود في الأرض يومئذ هو العلم الإغريقي. فتعلّم المسلمون اللغة الإغريقية (واللاتينية)[1]، ليحصّلوا ما كان موجودًا من العلم يومئذ، ويُشبعوا هذه الرّغبة التي تولدت عندهم في التعرف على السنن الربانية التي يُجري الله بها «**ظواهر الطبيعة**».

وكان العلم لدى الإغريق «**نظريات**» علمية، وفلسفية، لا تتجه إلى **التجريب**. إنما يكفي أن تعرض على «**العقل**» فإن أقرها ـ بصورة من الصور ـ فهي صحيحة بصرف النظر عن واقعها العملي، وإن لم يقرّها فهي غير صحيحة بصرف النظر كذلك عن واقعها العملي.

ولكن اتجاه المسلمين ـ الذي اكتسبوه من توجيهات الكتاب والسنة ـ لم يكن كذلك. إنما كان اتجاهًا عمليًّا من جهة، ومبنيًّا على الملاحظة الدقيقة من جهة أخرى.

ومن ثم بدأ المسلمون «**يجربون**» ما تلقوه من علوم الإغريق. وكان من بين ما أرادوا تجريبه للتثبت منه «**حجر الفلاسفة**»، الذي زعم الإغريق أنه يُضاف إلى المعادن الخسيسة فتتحول إلى ذهب وفضة!

وفي المعمل التجريبي أخذ المسلمون يصهرون الحديد والنحاس وغيرها من المعادن «**الخسيسة**»، ويضيفون إليها مواد أخرى لعلها تتحول إلى ذهب وفضة! ولم تتحول بالطبع! ولكن التجربة جعلت المسلمين يتقدمون تقدمًا هائلًا في علمي الفيزياء والكيمياء، ويتعرفون على كثير من خواص المادة التي كانت نواة لانطلاقة علمية هائلة في مختلف الاتجاهات!

وفي الطريق **صحح المسلمون** بعض أخطاء العلم الإغريقي، وكان من بين ما صححوه تصورهم أن الإبصار يتم بخروج شعاع من العين يسقط على المرئيات فتراها العين، فأثبتوا أن العكس هو الصحيح، وأن الشعاع يسقط من المرئيات على العين فتدرك وجودها.

واكتشف المسلمون الدورة الدموية، وتقدموا في علم الطب.

واخترعوا علم الجبر لحل المسائل الرياضية المعقدة.

(١) كان كثير من العلم مترجمًا إلى اللغة اللاتينية باعتبارها اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية الغربية.

وتقدموا في علم الضوء تقدمًا هائلًا كان هو نواة علوم الفلك وأساس صناعة المناظير الفلكية.

ولكن هذا كله ليس أروع ما اتسمت به تلك الحركة العلمية.

يقول المنصفون من كتّاب الغرب: إن أوربا تدين للمسلمين بإيجاد **المنهج التجريبي في البحث العلمي**، الذي هو أساس كل التقدم الذي حدث في العلوم الحديثة على أيدي المسلمين أولًا، ثم على أيدي الأوربيين الذين تتلمذوا على علم المسلمين بعد ذلك.

يقول بريفولت في النص الذي سبق أن استشهدنا به في فصل: «الجاهلية المعاصرة»، ونعيده هنا للتذكرة به:

«فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجود. وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علومًا أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام فتمتزج امتزاجًا كليًّا بالثقافة اليونانية. وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام، ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة، **والبحث التجريبي**، كل ذلك كان غريبًا تمامًا عن المزاج اليوناني.

أما ما ندعوه «العلم»، فقد ظهر نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، من طرق التجربة، والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان. . وهذه الروح وتلك المناهج العلمية، **أدخلها العرب إلى العالم الأوربي**».

ولكنا نقول: إن هذا ـ على أهميته البالغة ـ ليس أهم ما اتسمت به الحركة العلمية الإسلامية.

إن أهم ما تتسم به هذه الحركة ـ من منظورنا الإسلامي ـ أنها كانت حركة منبثقة من العقيدة، غير معادية لها، ولا متعارضة معها.

ولكي نعرف هذه النعمة ونقدرها حقّ قدرها، فلننظر إلى الحركة العلمية القائمة اليوم في ظل الجاهلية المعاصرة.

إنها - من حيث الحجم، ومن حيث ما كشفت من أسرار الكون، ومن حيث ما سخرت من طاقات السمٰوات والأرض - أكبر حركة علمية في التاريخ.

ولكن ضريبتها في الوقت نفسه ضريبة فادحة.. **وأفدح ما فيها هو الإلحاد**[1].

وما نريد أن نكرر الحديث عن الأسباب التي أدت إلى افتراق طريق العلم والدين في أوربا، وعن جناية الكنيسة الأوربية في هذا الشأن، ولكنا نتحدث عن الأمر الواقع أيًّا كانت أسبابه.

إن افتراق الطريق بين الدين والعلم ليس أمرًا هيّنًا، ولا هامشيًّا، كما تنظر إليه الجاهلية المعاصرة.

إنه يمزق النفس البشرية بين نزعتين فطريتين، كلتاهما أصيلة، وكلتاهما لازمة لصحة النفس وتوازنها وتناسقها: **نزعة** التوجه إلى الله بالعبادة، **ونزعة** التعرف على الكون المادي، وعلى خواص المادة، لتسخير هذه المعرفة في تصنيع خامات «**الطبيعة**»، وتحسينها، وتجميلها بما يلائم حياة الإنسان.

والإنسان - كما خلقه الله - يشتمل على النزعتين معًا، في تناسق وتوازن وترابط وتكامل:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذُرّيتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا﴾. (سورة الأعراف، الآية ١٧٢).

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾. (سورة البقرة، الآية ٣١).

﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾. (سورة الإسراء، الآية ١٢).

﴿وسخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض جميعًا منه﴾. (سورة الجاثية، الآية ١٣).

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾. (سورة النحل، الآية ٨).

﴿وعلّمه صنعةَ لبوس لكم لِتُحصِنَكم من بأسكم﴾. (سورة الأنبياء، الآية ٨٠).

﴿إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان مالم يعلم﴾. (سورة العلق، الآيات ٣ - ٥).

---

(١) هناك ثغرات أخرى في الحركة العلمية المعاصرة سنشير إليها فيما بعد.

وبهاتين النزعتين **معًا** يقوم الإنسان بدور الخلافة في الأرض، **التي تشتمل على عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني**، والتي هي الأمانة التي حملها الإنسان بينما أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال.. والتي من أجلها خلق الله الإنسان ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة.

ولقد علم الله ـ وقد خلق الإنسان لمهمة معينة ـ أنه يحتاج إلى كلتا النزعتين فركبهما في فطرته، فجعله عابدًا بفطرته، وراغبًا في التعلم بفطرته، وجعل هاتين النزعتين معًا هما أداته للقيام بالخلافة الراشدة وعمارة الأرض.

وحين يكون الإنسان على فطرته السوية التي فطره الله عليها يعمل بالنزعتين معًا بلا تناقض بينهما ولا خصام، فيعبد الله، وفي الوقت ذاته يسعى إلى التعرف على أسرار الكون، ليُحقّق ما سخر الله له من طاقات السمٰوات والأرض.

وهو تسخير يتم من عند الله ابتداءً، ولكنه لا يتحقق في عالم البشر إلا بجهد يبذلونه، ككل شيء في حياة البشر: يقدره الله ابتداء، ويحصّلونه هم بالجهد الذي يقومون به، لأن الله قدّر ـ حين خلق الإنسان ـ أن يجعله كادحًا، وأن يجعله يُحقق ما يُحقق عن طريق الكدح:

﴿**يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كَدْحًا فملاقيه**﴾. (سورة الانشقاق، الآية ٦).

﴿**لقد خلقنا الإنسان في كبد**﴾. (سورة البلد، الآية ٤).

وحين يمارس الإنسان الحياة بكيانه الكامل المتناسق فإنه يُحقق ذاته بطريقة سوية، ويخط طريقه في الحياة بخطى ثابتة ونفس مطمئنة، **وذلك ما حققته الحركة العلمية الإسلامية في أجمل صورة**.

أما حين تفترق النزعتان، وتتخاصمان بفعل الجاهلية، فإنه يحدث انفصام في الشخصية، يؤدي إلى الخلل والاضطراب، سواء في داخل النفس أو في واقع الحياة.

ففي داخل النفس يقوم الصراع بين نزعتين توأمتين، **الأصل فيهما التوافق والتناسق ووحدة الاتجاه**. وليس لهذا الصراع نتيجة إلا المرض النفسي، سواء كبتت إحدى النزعتين، أو ظلتا معًا ـ على السطح ـ متصارعتين.

وأما في واقع الحياة فماذا يتوقع من اجتماع النفوس المريضة إلا مزيد من المرض

ومزيد من الاضطراب؟!

وفي الصورة المقابلة، التي حققتها الأمة الإسلامية حال ازدهارها، التقى العلم والإيمان، واتسقت الشخصية المتكاملة المترابطة الموحدة الاتجاه، **فلم ينشأ عن التقدم العلمي فساد في العقيدة، ولا نشأ عن الإيمان بالله توقف في المد العلمي** الذي شمل كل جوانب البحث، النظري والعملي على السواء. إنما كان كل فتح جديد في باب من أبواب العلم مدعاة لمزيد من التقرّب من الله والإخبات إليه:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. (سورة فاطر، الآية ٢٨).

(٥)

وقامت على يد هذه الأمة حركة حضارية ضخمة..

وتبدي الكاتبة الألمانية زيجريد هونكه إعجابها الشديد بالحضارة الإسلامية في كتابها: «**شمس الله تشرق على الغرب**»، كما يتحدث كثير من المستشرقين والمؤرخين الغربيين عن ازدهار تلك الحضارة في بلاد الأندلس وبلاد المشرق في الوقت الذي كانت أوربا تعيش قرونها الوسطى المظلمة[1]. وتركز زيجريد هونكه بصفة خاصة على أثر الحضارة الإسلامية في نهضة أوربا، كما يؤكد ذلك بريفولت في كتابه Making of Humanity الذي سبقت الإشارة إليه.

وليس هنا مجال حديث مفصل عن تلك الحضارة وشمولها كل جوانب الحياة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية والفنية والمادية، وعنايتها بكل ألوان النشاط البشري، من تنظيم «**للدولة**» وتحديد اختصاصاتها ووظائفها، وتنظيم لعلاقات المجتمع، وعاداته وتقاليده، وتنظيم لدور التعليم، وتنظيم للحرب والسلم وشئونهما، وتنظيم للتجارة والصناعة، وتنظيم للعمران.. الخ.. الخ، فمجال ذلك كما قلنا هو البحوث المتخصصة.

إنما نحن معنيون هنا ـ كما عنينا في الفقرة السابقة التي تكلمنا فيها عن الحركة العلمية الإسلامية ـ بنقطة معينة، نراها هي الأوْلى بالإبراز في هذا البحث بصفة

(١) راجع آدم متز «حضارة الإسلام في القرن الثالث الهجري»، وجرونيباوم «حضارة الإسلام»، و«قصة الحضارة» لول ديورانت وغيرهم.

خاصة، هي انطلاق الحركة الحضارية الإسلامية من العقيدة، **دون تناقض ولا تعارض ولا خصام**.

* * *

كانت الجزيرة العربية تعيش على هامش العالم فترة من حياتها غير قصيرة. وكانت «**الحضارات**» تقوم على أطرافها في الشمال والجنوب، ويحتك العرب بها في حركتهم التجارية الدائبة في رحلة الشتاء والصيف، ولكنهم ظلوا عازفين عن تغيير معهود حياتهم، مشغولين بالثارات القبلية المستمرة عن تشكيل دولة ذات حكومة مركزية، تتوحد فيها القبائل، وينشأ عنها حضارة مستقرة.

وحين جاء الإسلام حدث ذلك كله:

﴿هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين. وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم﴾. (سورة الأنفال، الآيتان ٦٢، ٦٣).

﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٠٣).

ووجدت الدولة ذات الحكومة المركزية، التي تجتمع في ظلها القبائل المتناحرة فتكوّن أمة، والتي تقوم في ظلها حضارة، وغني عن البيان أن تلك الحضارة قد ولدت في ظل العقيدة الإسلامية، **بل انبثقت انبثاقًا من تلك العقيدة**، فقبلها لم يكن «**للأمة**» التي تنشىء الحضارة وجود.

ونقطة العظمة في هذه الحضارة أنها حين بدأت تنمو وتزدهر **لم تخرج من ظل هذه العقيدة**.. إلا حين أصابها الترف والانحراف.. وحتى حينئذ لم تنسلخ انسلاخًا كاملًا من العقيدة، إنما أصابها ما أصاب الأمة كلها من انحراف[1].

ومرة أخرى نقول: إنه لكي نعرف هذه النعمة ونقدّرها حق قدرها **فلننظر إلى الحضارة القائمة اليوم في ظل الجاهلية المعاصرة**.

(١) انظر ما يلي من هذا الفصل.

إنها من حيث حجمها، وسعة مجالاتها، ومن حيث عمارتها المادية للأرض، ومن حيث ما قدّمت من مخترعات تحمل العبء عن كاهل الإنسان وتحمّله للآلة، قد بلغت ذروة لم تبلغها حضارة في التاريخ.

ولكنها من حيث تحقيقها «لإنسانية الإنسان»، قد تكون **أسوأ حضارة في التاريخ**.

والقضية في جوهرها هي قضية: ما الإنسان؟ وما غاية وجوده؟

والحضارات لا تختلف فيما بينها بعدد ما أنشأت من الطرق المعبدة، وعدد ما أنشأت من المدن، وعدد ما أنشأت من المؤسسات في داخل هذه المدن.. وإن كان هذا كله داخلاً في الحساب. وإنما تختلف - قبل ذلك، وأهم من ذلك - **في مدى تحقيقها لغاية الوجود الإنساني، ومدى تحقيقها لإنسانية الإنسان**.

القضية هي تحديد المعايير التي يوزن بها الإنجاز البشري.

ولا شك أن من مزايا الإنسان التي اختصه الله بها، وفضلّه بها على كثير ممن خلق، أنه لا يتناول ما حوله من موجودات «الطبيعة» على حالتها الخامة، إنما هو مدفوع بفطرته إلى **تصنيع** تلك الخامات لينشيء بها لنفسه عالمًا جديدًا غير الذي ألفى نفسه موجودًا فيه. ثم لا يكتفي بذلك التصنيع، إنما هو يسعى دائمًا إلى **تحسين** أحواله التي أوجدها لنفسه بتصنيع خامات الطبيعة، ويحاول أن يصل بهذه الأحوال إلى درجة **الجمال**(١).

وهذه المراحل الثلاث: التصنيع، والتحسين، والتجميل، هي: **«المظهر الحضاري»** لحياة الإنسان في الأرض، الذي يميزه عن غيره من الكائنات.

نعم! ولكن هذا جانب واحد من جوانب وجوده، وغاية واحدة من غايات ذلك الوجود، لا تصلح وحدها أن تكون مقياسًا للإنجاز البشري.

إن الإنسان يُمارس حياته **بكل كيانه**، ويكون في أحسن تقويم حين يُمارس الحياة بكيانه كله متجمعًا متناسقًا متوازنًا مترابطًا كما خلقه الله:

(١) أو درجة الكمال. والكمال البشري قضية نسبية في جميع الأحوال.

﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾. (سورة ص، الآيتان ٧١، ٧٢).

ومقتضى ذلك التكوين أن للإنسان جانبين في آن واحد: **جانب** ماديّ حسيّ، **وجانب** روحي معنوي، مترابطين معًا غير منفصلين، وغير متناقضين ولا متخاصمين ولا متعاديين.

وحين يكون الإنسان على فطرته التي فطره الله عليها فإنه ينشيء حضارة متوازنة بين مطالب الجسد ومطالب الروح، تحقق كيانه الإنساني، وتحققه في أحسن تقويم.

ولقد كانت المزية الكبرى للحضارة الإسلامية أنها أخذت الإنسان كله، بكل جوانبه، فكانت حضارة «إنسانية» حقًّا، شاملة لكل المجالات التي يتحقق بها كيان «الإنسان».

فأما الجانب المادي من الحضارة: جانب التصنيع، والتحسين، والتجميل، فقد برع المسلمون فيه بما يثبت أصالتهم، وتفوقهم على عالم زمانهم. ولكن هذا لم يكن همهم الأكبر، وما ينبغي أن يكون.

لقد كان منهجهم هو «**منهج العبادة**» .. العبادة بمعناها الشامل الواسع، الذي يعني في النهاية عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني:

﴿قل إن صلاتي ونُسكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له﴾ (سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢، ١٦٣).

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾. (سورة البقرة، الآية ٣٠).

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾. (سورة هود، الآية ٦١).

ومن ثم تصبح «العمارة» وتصبح «الحضارة»، مزيجًا من الإنجاز **المادي**، والانجاز **الروحي** في ذات الوقت، أو بعبارة أخرى: **إنجاز مادي محكوم بالقيم العليا التي يُقرّرها الإسلام**.

ونظرة سريعة إلى «المدينة الإسلامية» تكشف عن هذه الحقيقة. فلقد كان مركز المدينة ـ الذي تتفرع منه، وتتفرع عنه الطرق والمناشط ـ **هو المسجد**. ففي المسجد يُؤدي الناس صلاتهم ـ صلاة الصبح ـ ثم ينطلقون إلى أعمالهم في التجارة والصناعة

وطلب العلم، وسواها من المناشط. وإلى المسجد يعودون في أوقات الصلاة، يتزودون بالزاد الروحي الذي يُعينهم على مسيرتهم التي قال الله فيها:

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذَلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه. وإليه النُّشور﴾. (سورة الملك، الآية ١٥).

وقال عن الزاد الذي يتزودون به في مسيرتهم:

﴿فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون﴾. (سورة الجمعة، الآية١٠).

ونظرة أخرى سريعة إلى «**البيت الإسلامي**»، تكشف عن هذه الحقيقة. ففي البيت «**حرم مصون**». وقد صمم البيت بحيث يتيح لسكانه قسطًا معقولاً من الشمس والهواء والفسحة، دون أن ينكشف أهله لعين الأجنبي الذي لا يجوز له أن يطلّع على عورات البيوت!!

وقارن هذا ببيت الجاهلية المعاصرة التي تُصرّ على أن تكون حجرة النوم هي «**أكشف**» غرفة في البيت، بحجة الحصول على أكبر قسط من الشمس والهواء! كما تُصرّ على أن تكون الساكنة في البيت هي «**أكشف**» من فيه!

* * *

لقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة روحية مادية في الوقت ذاته. حضارة ملتزمة بما أنزل الله. تمارس نشاطها الإنساني في الاتجاهات كافة دون أن تحتاج ـ لتحقيق ذلك ـ أن تكفر بالله، ولا أن تنبذ أخلاقها وتقاليدها، ولا أن تحول جزءًا من حياتها إلى آلية رتيبة، وجزءًا آخر إلى مجون حيواني صاخب خليع، كما تصنع الجاهلية المعاصرة بحجة التحضر والتقدم والرُّقي.

لقد كانت الأمة الإسلامية تُمارس الرقي الحقيقي ـ بجميع المقاييس ـ منطلقة من عقيدتها الإسلامية، مُطبقة لمنهجها الرباني، سيدة في الأرض، مُمكنة حسب وعد الله لها:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما

استخلف الذين من قبلهم. وليَمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليَبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا، يعبدونني لا يشركون بي شيئًا﴾. (سورة النور، الآية ٥٥).

وكان أجمل ما في هذه الحضارة ذلك التوازن الدقيق في داخل الكيان الإنساني، وفي واقع الحياة.

(٦)

مما يلفت النظر في تاريخ هذه الأمة تأثير الإسلام في جوانب كثيرة من حياتها في **اتجاه مغاير لتأثير البيئة**.

فقد كان العرب في الجاهلية قبائل متناحرة لا تلتقي في أمة، على الرغم من كل عوامل اللقاء التي تلتقى على مثلها شعوب أخرى، كوحدة الأرض، ووحدة اللغة، ووحدة العادات والتقاليد، ووحدة المعتقدات، ووحدة التراث، ومواسم الحج التي تلتقي فيها القبائل من كل أنحاء الجزيرة، ومواسم الشعر التي يلتقي فيها الشعراء والنقاد.. الخ.

لقد كانت النعرات القبلية والثارات القبلية أقوى أثرًا من كل هذه العوامل مجتمعة، فحالت ـ لمدة لا يعلمها إلا الله ـ دون التقاء هذه القبائل في أمة واحدة.. **حتى جاء الإسلام فمنّ الله عليها بالالتقاء والألفة، ولم تتكون منها مُجرّد أمة، بل تكوّن منها بقدر من الله خير أمة أخرجت للناس**.

وأشارت آية سورة الأنفال ـ التي استشهدنا بها من قبل ـ إلى أن هذا اللقاء لم يكن ممكنًا لولا فضل الله ومشيئته:

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألّفت بين قلوبهم، ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم﴾. (سورة الأنفال، الآية ٦٣).

وحين يُريد الله شيئًا فإنما يقول له كن، فيكون. ولكن الله يجعل لمشيئته أسبابًا تتحقق من خلالها. وكان السبب الذي جعله الله لتحقيق هذه الألفة هو **الإسلام**. فكان الإسلام هو الغالب على كل آثار البيئة التي حالت دون تحقيق الوحدة من قبل، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، للمؤمنين: «**إن الله أذهب عنكم عُبيّة الجاهلية**

وفخرها بالأنساب. .»[1]. والحديث واضح الدلالة في أن عبية الجاهلية وفخرها بالأنساب لم تذهب من ذات نفسها، كما يدعي الذين يزعمون أن العرب كانوا على وشك التجمع من ذوات أنفسهم، وكانوا ينتظرون «**الزعيم**» الذي يُوحدهم، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم، اتخذوه زعيمًا لهم وتوحدوا!

وهو قول بالغ التهافت، يردّ عليه قول الله تبارك وتعالى: إن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يكن من ذات نفسه، ليؤلف بين هذه القلوب، لا بشخصه، ولا بإنفاق ما في الأرض جميعًا. . لولا مشيئة الله، واتخاذ الله السبب لتحقيق هذه المشيئة وهو **الإسلام**. كما يردّ عليه أن العرب حاربت الرجل الذي تمت على يده الوحدة ـ بقدر من الله ومشيئته ـ حربًا لا هوادة فيها ثلاثة عشر عامًا كاملة في مكة، وسنوات أخرى بعد هجرته صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة، حتى دخلوا في الإسلام، فجعل الله الإسلام سببًا في الوحدة وتأليف القلوب.

* * *

وانتشر الإسلام في بقعة واسعة من الأرض، فحدثت فيها عجائب تشبه المعجزات، أشرنا إلى بعضها من قبل، من سرعة انتشار الإسلام في الأرض المفتوحة، واتخاذ العربية لغة في كثير منها تُنْسِي أهلها لغتهم الأصلية حتى الذين لم يدخلوا منهم في الإسلام. .

ونشير هنا إلى عجيبة أخرى تلفت النظر. .

إن البيئة التي انتشر فيها الإسلام ـ بقدر من الله ـ يقع معظمها في المنطقة الحارة، والمنطقة المعتدلة الحارة، والقليل منها هو الذي يقع في المنطقة المعتدلة الباردة.

والملحوظ في أهل هذه البيئة أنهم ـ بتأثير البيئة ـ **فوضويون** يكرهون النظام! **عفويون** يكرهون التخطيط! **قصيرو النفس، يشتعلون بسرعة وتنطفيء حماستهم بسرعة**[2]، أميل إلى الكسل منهم إلى الجدّ والنشاط والحركة!

وربما كان السبب في هذه الخصال أن هذه البيئة سهلة في عمومها، فلا أحد

(١) رواه أبو داود وأخرجه الترمذي وقال «حسن صحيح».

(٢) ذكرت هذه الإشارة من قبل في كتاب «واقعنا المعاصر».

فيها يموت من البرد، ولا أحد يموت من الحرّ، ولا أحد يموت من الجوع في الأحوال العادية، ويستطيع الإنسان بأبسط الجهد أن يقيم أَوَدَهُ، وأن يؤدي مطالب الحياة القهرية دون عناء كبير.

وفي مثل هذه الظروف يبدو **النظام** أمرًا لا ضرورة له! فإن الأمور يمكن أن تقضى بغير حاجة إلى تنظيم! وعندئذ يكون النظام عبئًا على الأعصاب، لا مبرر له، وتكون الفوضى أمرًا مستساغًا لأنها أيسر على الأعصاب!

كما يبدو **التخطيط** أمرًا لا ضرورة له كذلك! فحين تأتي المشكلة تحلّ! والنحو الذي تحل به يوم تجيء هو النحو ذاته الذي تحل به الآن لو برزت في هذه اللحظة! فلماذا التخطيط المسبق، ما دام التفكير اللحظي السريع عند حلول المشكلة يمكن أن يحلها؟!

وأما **قصر النفس** فربما كان منشؤه أن الأمور يمكن أن تُحلّ بجولات قصيرة مركزة تغير الأوضاع ـ ولو إلى حين ـ وتتجدد كلما أريد إحداث تغيير. . دون أن يحتاج الأمر إلى جولة طويلة منظمة مخططة تحتاج إلى متابعة مستمرة.

وأيًّا كانت الأسباب التي تحتويها البيئة، وتؤدي إلى وجود هذه الخصال في نفوس أهلها، فقد تسلم الإسلام أهل هذه البيئة ـ على أوضاعهم تلك ـ فأخرج منهم **خير أمة أخرجت للناس!**

ولقد بذل رسول الله صلى الله عليه وسلم، جهدًا تربويًّا ضخمًا في هذا السبيل، روت منه كتب السيرة أنه صلى الله عليه وسلم، كان يصفُّ المؤمنين للصلاة كما يصفهم للقتال! وكان يمر بيده الكريمة على أكتاف الرجال يسويها، ويأمرهم أن يحاذوا بعضهم بعضًا بأقدامهم، ولا يبدأ الصلاة صلى الله عليه وسلم، حتى يستقيم الصف.

والإسلام كله مواقيت منظمة . .

فالصلاة **مواقيت**، والزكاة **مواقيت**، والصوم **مواقيت**، والحج **مواقيت**، والأشهر الحرم **مواقيت**. .

ثم إن الإسلام علّم المسلمين أن **يُخططوا** للدعوة، وللسلم والحرب، ولمواجهة

الأعداء، ولتأليف القلوب، لأنهم واجهوا - بالإسلام - ظروفًا جديدة لا تصلح فيها العفوية التي تدير البيئة بها الأمور.

وكذلك فإن الإسلام أخرجهم من النظرة القريبة التي كانت تنتهي إليها مصالحهم في الأرض، إلى نظرة بعيدة بعيدة.. أبعد من أي مدى يمكن أن يعيش له الإنسان في الأرض، لأنه يتجاوز الزمان كله، والمكان كله، إلى ما وراء الزمان والمكان.. **إلى اليوم الآخر**، الذي لا يعرف أحد موقعه من الزمان والمكان، ولكنه واقع لا ريب فيه، تؤمن به هذه القلوب، وتعمل له وهي في واقعها الأرضي، فتخطو خطواتها على الأرض وهي معلقة بذلك الأمد الذي لا تحده الحواس.

وتغيرت بكل ذلك طبائع الناس.. وتكوّنت منهم خير أمة أخرجت للناس.

وحين خفّت قبضة الإسلام على النفوس في واقعها المعاصر، **عاد الناس إلى تأثير البيئة!** فوضويين يكرهون النظام، عفويين يكرهون التخطيط، قصار النفس، يشتعلون بسرعة وينطفئون بسرعة.

والعبرة المستفادة من هذه اللمحة من لمحات التاريخ أن كل **التفسير المادى للتاريخ** الذي يجعل للبيئة المادية السيطرة الكاملة على الإنسان، وكل **التفسير الداروينى** الحيواني للإنسان، الذي يجعل الإنسان حيوانًا متطورًا تطور جسده وعقله فحسب، وكل تفسير يغفل أثر العقيدة.. **إنما هي تفسيرات جاهلية، لا تصلح لتفسير حقيقة «الإنسان»**.

والعبرة المستفادة من جهة أخرى أن هناك شيئًا واحدًا يفوق تأثيره أثر البيئة.. ذلك هو **العقيدة الصحيحة** في الله، المتضمنة تحقيق المنهج الرباني في واقع الحياة.

وأنه حين يُكتب التاريخ، وحين تُربي الجماعات، وحين تُنشأ الدول، وحين تُمارس الحياة، فينبغي أن يكون الاعتبار الأول في كل ذلك للعقيدة الصحيحة، التي تقف - وحدها - لكل تأثير البيئة، وتستطيع - وحدها - أن تُصحّح كل انحرافات البيئة، حين تصل في نفوس أصحابها إلى درجة التوهج والانطلاق!

ثالثاً: الواقع المعاصر

لا يحتاج الإنسان إلى كبير جهد ليُدرك أن الواقع المعاصر للمسلمين هو أسوأ ما مر بهم في تاريخهم كله.

ولا يحتاج إلى كبير جهد كذلك ليدرك أن أوضاع المسلمين من السوء بحيث تجعلهم أسوأ كثيرًا حتى من الجاهلية المحيطة بهم، بل تبدو الجاهلية المعاصرة قمة شامخة يعيش «**المسلمون**» إلى جوارها في الحضيض.

فإلى جانب **التخلف المزري** في كل جوانب الحياة السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والمادية والفكرية والخلقية، يوجد **الضعف** المزري لا أمام «**القوى العالمية**» وحدها، بل أمام أصغر القوى وأضألها في الدويلات الآسيوية والأفريقية، المتخلفة في ذاتها، الضعيفة في كيانها، ولكنها تستأسد على المسلمين، فتقيم لهم المذابح بين الحين والحين، وتجتاح أرضهم، وتخرب ديارهم، وتنتهك أعراضهم، وكأنهم حمىً مباح لكل معتد أثيم.

وإلى جانب هذا وذاك، **الضياع الفكري والروحي** الذي جعل الأمة الإسلامية - لأول مرة في تاريخها - تنظر إلى الجاهلية على أنها أفضل منها، وتنظر إلى الإسلام على أنه رجعية وتخلف ينبغي الانسلاخ منه واتباع الجاهلية!

ولقد تحدثتُ بتفصيل كاف عن هذا الواقع المعاصر وأسبابه ونتائجه في كتاب «**واقعنا المعاصر**»، مما لا أحتاج معه إلى إعادة الحديث. ولكن لابد مع ذلك من سطور قلائل في وصف هذا الواقع، ليتبدى الفرق الهائل المذهل بين ماضي الأمة وحاضرها، حتى لكأنهما أمتان مختلفتان لا يربط بينهما رباط!

كيف انحدرت الأمة من مستواها الرفيع الذي أشرنا إلى لمحات منه، حتى صارت ذلك الغثاء الذي أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يُوشك أن تَداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكَلَة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلّة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله مهابتكم من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوَهْنُ. قالوا: وما الوهن**

يا رسول الله؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهية الموت»[1].

ولقد خيل لبعض المستضعفين، المنهزمين أمام الحضارة الغربية، الذين استعبد الغزو الفكري قلوبهم وأرواحهم - وخاصة عبدة التفسير المادي للتاريخ منهم - أن ضعف المسلمين وتأخرهم كان **نتيجة حتمية لتمسكهم بالإسلام!!**

وأن الإسلام كان حركة تقدمية يومًا ما! **أي بالنسبة لوقته!** وأنه فعل ما فعل في النفوس بسبب أنه كان بالنسبة لوقته حركة تقدمية، فدفع الحياة كلها إلى الأمام. ولكن دوره انتهى كحركة تاريخية وموقف تقدمي، لأنه بقي مكانه فسبقه «**التطور**»، **فأصبح من ثم حركة رجعية!** ولم يعد صالحًا لمواكبة التطور الحديث، بل صار معوقًا ينبغي طرحه والبحث عن بديل منه، والبديل هو الحضارة الغربية!

ويُلحُّ المستشرقون وتلامذتهم على هذا المعنى في كتاباتهم التي يهدفون بها إلى تسميم قلوب المسلمين وأفكارهم ليتخلوا عن دينهم، كما يمثل الواقع السيىء الذي يعيشه المسلمون نقطة «تشويش» تُحرّف مسار الحق، فتجعل الناس يُصدقون هذه الأباطيل كأنها حقيقة، وينظرون إلى الحقائق كأنها أساطير!

إن الذي تخلف لم يكن هو الإسلام.. إنما هم «المسلمون»!

وقد تخلفوا لا لتمسكهم بالإسلام، **ولكن لتخليهم عنه، وتفريطهم فيه.**

أما الإسلام فما زال هو الدين الحق، وما زال هو الطريق الواصل، وما زال هو الطريق المستقيم.

* * *

تخلف المسلمون لبعدهم عن حقيقة الإسلام، وإن بقيت لهم بعض مظاهره..

لقد بقي لهم أنهم ينطقون بأفواههم **لا إلـه إلا الله محمد رسول الله**. فهل يعون معناها أو يعرفون مقتضياتها؟

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

وبقي لهم أنهم يؤدون بعض العبادات، فهل أدركوا المقصود بها، أو رعوها حق رعايتها؟

وبقي لهم بعض «التقاليد» الإسلامية، فهل تصمد التقاليد الخاوية من الروح للمعركة الضارية التي توجه إلى الدين عامة والإسلام على وجه الخصوص؟

وبقي لهم تمنيات بأن ينصر الله دينه، ويعيد إليه أمجاده، فهل تكفي التمنيات لتغيير الواقع السيء وإنشاء البديل؟!

* * *

نستطيع أن نقول ببساطة إن كل مفاهيم الإسلام قد فسدت في حس الأجيال المتأخرة من المسلمين[1].

تحولت لا إلـه إلا الله من منهج حياة كامل، إلى **الكلمة التي تُنطق بالأفواه**.

وتحولت العبادة ـ بعد أن انحصرت في الشعائر التعبدية وخرجت منها الأعمال والأخلاق ـ إلى **أداء آلي تقليدي خاوٍ من الروح**.

وتحولت عقيدة القضاء والقدر من قوة دافعة إلى النشاط والحركة مع التوكل على الله، إلى **قعود عن النشاط والحركة مع تواكل سلبي مريض**.

وتحول التوازن الجميل بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، إلى **إهمال للدنيا من أجل الخلاص في الآخرة**، فأهملت عمارة الأرض، وطلب العلم، وطلب التمكين والقوة، وعمّ الجهل والفقر والمرض، ورضي الناس بذلك كله على أنه قدر رباني لا قبل لهم بتغييره، بل لا يجوز العمل على تغييره خوفًا من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله!

أهذا هو الإسلام؟! أم هذه صورة مناقضة لحقيقة الإسلام؟

وهل يمكن أن يؤدي الشيء ونقيضه إلى نتيجة واحدة؟!

إذا كان الإسلام يؤدي في حياة الناس إلى التمكن والقوة والنظافة ونقاء الأخلاق، والتقدم العلمي والتقدم الحضاري، ومقاومة انحرافات البيئة والتغلب

---

(١) راجع ـ إن شئت ـ كتاب «مفاهيم ينبغي أن تُصحح».

عليها . . **فهل يمكن للصورة البديلة أن تؤدي إلى النتائج ذاتها؟**

أم إنها لابد أن تؤدي إلى الضعف والتخلف والخضوع لانحرافات البيئة والعجز عن تقويمها؟

وهـذا الذي حدث بالفعل. . فجاء الأعداء من كل حَدَب وصَوْب يحتلون أرض الإسلام، يمزقونها تمزيقًا، ويُذلون أهلها، وينحون شريعة الله عن الحكم، وينشرون فيها الفساد، ويقتلون كل ما بقي من قيم في حياة المسلمين. . ثم جاء الغزو الفكري ليقول للناس: إن السبب في كل ما حل بهم هو **تمسكهم بالإسلام**!!

أي إسلام هذا الذي كانوا يتمسكون به؟!

حقيقة إنهم كانوا «متمسكين» بشيء ما! وإنهم كانوا يتوهمون أن ما هم متمسكون به هو «**الإسلام**»! ولكن متى كان الوهم يغني عن الحقيقة، أو يؤدي في عالم الواقع ما تؤديه الحقيقة؟!

مثل الوهم الذي كانوا متمسكين به والحقيقة كمثل ورقة النقد الزائفة يحسبها المخدوع بها ورقة حقيقية، حتى إذا ذهب بها إلى السوق لم يستطع أن يحصل بها على شيء مما يريد، وعاد بالخيبة والحسرة، إن لم يتعرض لإلقاء القبض عليه وتوقيع العقوبة عليه!

ولقد كان المسلمون متمسكين بأوهام يحسبونها حقيقة.

أول هذه الأوهام أن الإيمان هو التصديق والإقرار، وأن العمل ليس داخلاً في مسمى الإيمان!!

وبهذا الوهم حسبوا أنفسهم مؤمنين وهم لا يعملون بمقتضى الإيمان!

وتوهموا أنهم حين يؤدون الركعات المفروضة بأية صورة، ويصومون الأيام المفروضة على أية صورة، ويؤدون الزكاة المفروضة، ويحجون الحجة المفروضة - من استطاع إليها سبيلاً - فقد أدوا **كل العبادة** المفروضة.

ومن ثم خرجت أخلاقيات لا إله إلا الله من دائرة العبادة، وأصبح من المستساغ عند كثير منهم أن يؤدوا الركعات المفروضة في المسجد ثم يخرجوا ليكذبوا على الناس ويغشوهم ويخدعوهم، ويُخلفوا وعودهم معهم، ولا يُخلصوا في عملهم، ولا

يتقنوا حرفتهم، ولا يأمروا بالمعروف ولا ينهوا عن المنكر، ولا يعملوا على وقاية أنفسهم وأهليهم من النار باجتناب ما حرم الله، ولا يعاشروا زوجاتهم بالمعروف، ولا يهتموا بأمر المسلمين، ولا يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.. **وفي حسهم أنهم أدوا «العبادة»!**

هل كانت مثل تلك «العبادة» تصلح زادًا للدنيا أو للآخرة؟![1].

ومن الأوهـام كذلـك أنهم توهموا أنهم ما داموا «**مسلمين**» فسينصرهم الله، وسيوفقهم، وسيقضي لهم حوائجهم ويُنجّح مقاصدهم، **مهما يكن حالهم**، ومهما تكن حقيقة أعمالهم!!

غفلة كاملة عن السنن الربانية!

لقد قال الله للمؤمنين: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويُثبّت أقدامكم﴾**. (سورة محمد، الآية ٧).

ولم يقل لهم: ما دمتم مؤمنين فسأنصركم، وأثبت أقدامكم مهما تكن أحوالكم، وأوضاعكم وأعمالكم!

ولقد هُزم المؤمنون ـ وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ في وقعة أحد حين عصوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهُـزمـوا يوم حنين ـ وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذلك ـ حين أعجبتهم كثـرتهم فلم تغن عنهم شيئًا وهم خير القرون.. فكيف بهاتيك القرون المتفلتة الغارقة في البدع والمعاصي؟! **أفكان الله ناصرهم وهم لا ينصرونه؟!** لمجرد دعواهم أنهم مؤمنون؟ أفكان الله موفقهم وهم يعصونه، ولا يقومون بواجبهم نحوه؟ أفكان منجح مقاصدهم، وقلوبهم مشغولة عن ذكره، غافلة عن أمره ونهيه؟!

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يُضاعفها، ويُؤت من لدنه أجرًا عظيمًا﴾. (سورة النساء، الآية ٤٠).

---

(١) حين تؤدى العبادات المفروضة على هذه الصورة يسقط وزرها، ولكن لا يثاب الإنسان عليها، إنما يكون الثواب في الآخرة على قدر ما في العبادة من صدق. أما في الدنيا فلا يكون لها أثر حقيقي، لذلك قال الله: ﴿فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾.

كيف فسدت مفاهيم الإسلام في حس تلك القرون المتأخرة؟

لا شك أن هناك أسبابًا كثيرة تضافرت حتى زحزحت المسلمين عن حقيقة دينهم، وهم يحسبون على الدوام أنهم «متمسكون» بالدين! وحتى إن أدركوا أنهم مقصرون - ولابد أن يُدركوا ذلك بين الحين والحين - أسرع إليهم من يُوهمهم أنهم في مغفرة الله مهما فعلوا، حتى وقعوا فيما وقعت فيه بنو إسرائيل:

﴿فخلف من بعدهم خَلْف وَرِثوا الكتاب، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سَيُغفر لنا﴾. (سورة الأعراف، الآية ١٦٩).

«**ورثوا الكتاب**»! أي أخذوه وراثة واتخذوه تراثًا! ولم يشعروا أنه كتابهم هم، المنزل إليهم ليعملوا بمقتضاه! إنما هو كتاب الآباء والأجداد، وهم مجرد ورثة له، غير مكلفين بالعمل بما جاء فيه!!

لقد كانت هناك زحزحة مستمرة - استمرت من عمر الأمة عدة قرون - تبعد الناس رويدًا رويدًا عن حقيقة الدين، وتأتي صحوات عابرة، على أيدي العلماء والدعاة والمصلحين، ثم تعود الأمة إلى غَفْوتها أكثر انحرافًا من ذي قبل، وأكثر بعدًا عن حقيقة الدين[1].

وفي النهاية تحقق النذير: تداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، بينما هم كثير كثير.. ألف مليون من البشر.. أكبر عدد وصلوا إليه في التاريخ..

وفي القرنين الأخيرين كانت الكارثة التي لا تزال تعيش الأمة عقابيلها إلى هذه اللحظة.

ظلت الصليبية الصهْيونية تتآمر على الدولة العثمانية حتى قضت عليها في النهاية وأسقطتها. وفتتت العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة هزيلة ضعيفة، تتصارع فيما بينها وتتشاحن بما يُحقق مصالح الأعداء دائمًا، ويحقق لهم السيطرة على مقدّرات المسلمين!

---

(١) انظر تفصيل الحديث في ذلك في كتاب «واقعنا المعاصر»، فصل «خط الانحراف»، وفصل «آثار الانحراف».

وانتزعت فلسطين، واستولى الأعداء على «**بيت المقدس**»، التي ثارت من أجلها الحـروب الصليبية الأولى، وتحـركت من أجلهـا الحـروب الصليبية الثانية، ولكنها أعطيت في هذه المرة للشعب الشيطان، واكتفت الصليبية بإرواء حقدها بنزعها من يد المسلمين!

ونُحيت الشريعـة الإسـلاميـة عن الحكم في كل البـلاد التي دنستهـا أقدام الصليبيين، تشفيًا وحقدًا من ناحية، وزعزعة للدين من أصوله من ناحية أخرى. فهم يعـرفون أنهم حين ينقضون عُروة الحكم تُنقض بعدها بقية العرى، كما أخبر الصادق الصدوق صلى الله عليه وسلم: «**لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة، كلما نقضت عروة تمسك الناس بالتي بعدها، فأولهن نقضًا الحكم وآخرهن نقضًا الصلاة**»(1).

ولم يكتف الأعداء بتنحية الشريعة عن الحكم.. فقد كانوا أخبث من ذلك وأنكى عداوة، فقـد **أقـاموا المتاريس التي تمنع عودتها إلى الحكم مرة أخرى**، من الأجيال التي ربوها على الغزو الفكري ـ عن طريق مناهج التعليم ووسائل الإعلام ـ أجيال لا تعـرف الإسلام على حقيقته، بل هي نافرة منه منسلخة عنه، مُسممة الأفكار تجاهه، تدعو بدعوات الغرب، وتعتنق أفكاره، وترفض أن تُحْكَم بشريعة الله بعد أن قيل لها إنها رجعية وجمود وتأخر! **وتقف للدعوة الإسلامية بالمرصاد.. سواء منهـا الحكـام، و«المفكـرون»! و«الكتـاب»! والسينـمائيـون، والإذاعيـون، والتلفـزيونيون، والقصاصون، والمسرحيون و«الفنانات»، و«الفنانون».. والأولاد والبنات «التقدميون»، المنحلو الأخلاق**.

وكانت الطامة ـ في الجولة الأخيرة ـ في طائفة من **الحكام العسكريين**، جيء بهم ليسحقـوا الإسـلام سحقـًا، وأضفيت عليهم البـطولات الكـاذبـة، وهم يُذبّحون المسلمين وتقطر دماؤهم من أيديهم، ويُعبّدون شعوبهم لمصالح الصليبية الصهيونيّة لقاء شهوة السلطة وشهوة الطغيان.. ويُفقرون شعوبهم ويستنزفون طاقاتها، فتركبها

---

(1) أخرجه أحمد.

الديون وتهبط عملاتها، ويزيد تحكم الأعداء فيها، وهم جالسون بغلظ أكبادهم يتسلون بمصائب شعوبهم!

وفي كل حين تهجم الصليبية هجمة أو تهجم الصهيونية هجمة، فيعيدون تفتيت الدويلات التي فتتوها من قبل، ليحيلوها إلى تراب تسحقه أقدامهم! ويفتعلون الأزمات لتحقيق أهدافهم، و«**الأبطال**» **جالسون على مقاعدهم، يكذبون على شعوبهم ويموّهون عليها، في ظل «البطولات»** المزعومة.. حتى تنفذ أغراض السادة، فيركلوا الأبطال الزائفين بأقدامهم ويستهلكوهم، ولا يعتبر منهم أحد بما فُعل بمن سبقه من «الأبطال»!

﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم، وضربنا لكم الأمثال. وقد مكروا مكرهم﴾. (سورة إبراهيم، الآيتان ٤٥، ٤٦).

* * *

تلك نبذة سريعة عن مأساة الأمة في القرون الأخيرة، التي لا تزال تعيش عقابيلها حتى هذه اللحظة.. وما أبعد الشُّقة بين الأجيال التي شهد لها خالقها بقوله تعالى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾. (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

والأجيال التي حذّر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**غثاء كغثاء السيل**»[١].

وسُنة الله لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابي أحدًا من الخلق:

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم﴾. (سورة الأنفال، الآية ٥٣).

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون﴾. (سورة الروم، الآية ٤١).

(١) من حديث: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها». سبقت الإشارة إليه.

رابعاً: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

نستعير هنا عنوان الكتاب الذي ألفه السيد أبو الحسن الندوي، لأننا نجده خير ما يُعبر عن المعنى الذي قصدنا إليه في هذه الفقرة.

فلم تكن الخسارة التي نتجت من انحطاط المسلمين مقصورة عليهم وحدهم، إنما كانت **خسارة شاملة، شملت العالم كله**.

ذلك أن الله ـ منذ أخرج هذه الأمة إلى الوجود، وحمّلها رسالة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم ـ جعل مقادير البشرية كلها مرتبطة بأحوال هذه الأمة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وذلك من مقتضى كون هذه الأمة أخرجت لتكون شاهدة على كل البشرية:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾. (سورة البقرة، الآية ١٤٣).

وحين نفصّل مقدار الشرّ الذي أصاب البشرية من جراء غياب الأمة الإسلامية عن الساحة، سيتبين لنا مُجددًا مدى المسئولية الملقاة على عاتق هذه الأمة، ومدى الوزر الذي ارتكبته في حق نفسها، وحق البشر جميعًا، حين **فرطت في مسئوليتها**.

ولن نعيد الكلام هنا عن الخسارة التي لحقت بالأمة الإسلامية بالذات، فهذا واقع تعيشه الأمة بالفعل، وتعاني آلامه، وإن لم تكن دائمًا تدرك أسبابه. فقد قيل لها إن ما تعانيه هو نتيجة **التخلف العلمي والمادي** والسياسي والحربي والاقتصادي والحضاري، وأن عليها أن تجابه هذا كله وتتغلب عليه. **وهذا حق ولكنه ليس كل الحق**. والوقوف عنده مضلل للأمة عن معرفة حقيقة دائها وحقيقة دوائها.

وإنما الذي ينبغي أن تُبصّر به الأمة جيدًا أن التخلف العلمي والمادي والسياسي والحربي والاقتصادي والحضاري قد أصابها حين تخلت عن **معين قوتها**، الذي أعطاها القوة من قبل في هذه الميادين كلها، وما هو أبعد منها أيضًا، وأنه لا علاج لها إلا أن تعود إلى المعين ذاته.

أما إن حاولت أن تعالج كل أنواع التخلف السالفة بغير العودة إلى ذلك المعين، فسيظل جهدها قاصرًا، ولا يؤدي إلى ثمرة. وتجربة قرن كامل من الزمان ـ أو أكثر من قرن في بعض بلاد العالم الإسلامي ـ كفيلة ببيان هذه الحقيقة. فقد بذلت بلاد العالم الإسلامي جهدًا في «اللحاق» بركب «الحضارة» ـ أو في اللهاث وراء الغرب في الواقع ـ فكانت النتيجة قشرة حضارية زائفة لا تعالج شيئًا في الحقيقة، ومزيدًا من الضعف السياسي والحربي والاقتصادي.. وفي جميع الميادين.

والعلاج «الموضوعي» لكل أنواع التخلف واجب مفروض على الأمة، إن أرادت أن تُصلح أحوالها، ولكنه ـ وحده ـ لن يحل شيئًا، مالم يقم على أساس حقيقي:

﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير؟ أمّن أسس بنيانه على شفا جُرف هارٍ فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. (سورة التوبة، الآية ١٠٩).

ذلك ما ينبغي أن تُبصّر به الأمة إن أريد لها أي إصلاح حقيقي..

ولكنا هنا في هذه الفقرة لا نتحدث عن الأمة الإسلامية بالذات.. إنما نتحدث على مستوى العالم كله، لنعرف ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

* * *

يمكن أن نلخص الخسارة الكبرى بأنها غياب النموذج الصحيح، الذي ترتب على غيابه بروز النموذج الفاسد وتثبيته وسيطرته على الساحة، ونشر الفساد منه إلى كل الأرض.

وما نقول إن بقاء الأمة الإسلامية وقيامها برسالتها ـ أو بالأحرى رسالتيها ـ[1] كان سيمنع الفساد كلية من الأرض! فقد سبقت كلمة ربك ألا تجتمع البشرية في أمة واحدة، ولا تكون كلها صالحة:

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾. (سورة هود، الآيتان ١١٨، ١١٩).

(١) راجع «رسالة الأمة المسلمة» في أول هذا الفصل.

وقد وقفت الكنيسة بعناد وحشي تحارب تأثر أوربا بالإسلام، الذي كان وشيكًا أن ينشر الإسلام فيها على نطاق واسع، كما قال ويلز في كتاب «معالم تاريخ الإنسانية»[1]، واستخدمت الكنيسة في ذلك **محاكم التفتيش** من بين ما استخدمت من الوسائل.

فلا نزعم أن استمرار قيام الأمة الإسلامية برسالتها كان سيغير موقف الكنيسة ويلينّ عنادها الوحشي.

ولكنا نقول مع ذلك: إن نتائج مختلفة تمامًا عما هو حادث اليوم كانت قمينة أن تخرج إلى الوجود بحسب السنن الربانية ووعد الله ووعيده.

ونفصّل الكلام بعض الشيء.

لقد قامت الكنيسة بدور كبير في تنفير أوربا من الدين، ودفعها إلى الانسلاخ منه، وكانت الصورة التي قدمتها عن الدين - كما أشرنا مرارًا - **صورة منفّرة بالفعل**، فضلاً عن الطغيان البشع الذي مارسته الكنيسة باسم الدين في مختلف الاتجاهات.

وبرز في أوربا نموذج من الحياة يبتعد رويدًا رويدًا عن الدين، حتى انسلخ منه انسلاخًا كاملاً في العهد الأخير، ورأت أوربا في عملها هذا أنه هو الصواب الذي ينبغي عمله، وأن كل تصرف يؤدي إلى إبقاء سلطان الدين - فضلاً عن توسيع سلطانه - هو عمل ضد الشعوب! وضد الحضارة! وضد العلم! وضد إنسانية الإنسان!

وكما قلنا مرارًا فإن أوربا معذورة في أن تقف من دينها هذا الموقف، فقد كان ذلك الدين بالفعل معوقًا عن الحياة، ومفسدًا لها في كل اتجاه.

ولكن انتقال أوربا من السخط على دينها وكنيستها، إلى السخط على الدين في ذاته، وكل مقرراته، مع سيطرة أوربا على العالم، **كان هو سبب الكارثة التي وقعت فيها البشرية في ظل الجاهلية المعاصرة.**

وهنا يبدو الأثر الضخم الذي خلّفه غياب الأمة الإسلامية عن الساحة، ونُكولها عن رسالتها.

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

فلنتصـور جدلاً أن الأمة الإسلامية ظلت قائمة برسالتها، مُمكنة في الأرض حسب وعد الله لها، حين تعبده لا تشرك به شيئًا. فما الذي كان قمينًا أن يحدث؟!

كان يمكن - في أسوأ الأحوال - أن تكفر أوربا وحدها ولا يُؤثر كفرها على بقية الأرض.. فإن تضخم أوربـا على الصـورة التي وصلت إليهـا، واتساع سلطانها، وسيطرتهـا سياسيًّا واقتصـاديًّا وحـربيًّا وثقـافيًّا **لم يحدث إلا بسبب ضعف الأمـة الإسلامية**. وإلا فأين كانت أوربا؟ وكيف كانت، حين كانت بقية من القوة في حوزة الأمة الإسلامية؟!

وهل تضخمت أوربا، وبلغت قوتها ما بلغت، وبلغ سلطانها ما بلغ، إلا حين استعمرت العالم الإسلامي ونهبت خيراته؟!

إن هناك وهمًا «تاريخيًّا»، يعشش في أذهان كثير من الناس، مؤداه أن أوربا من **ذات نفسهـا**، بقـوتهـا الـذاتية، وبنوعية شعوبها، قد صارت إلى ما صارت إليه، وبسـطت سلطانها على العـالم.. وأن هذا الأمر كان في طريقه أن يقع مهما كانت أوضاع العالم من حول أوربا، ومهما كانت نسبة القوى العالمية بعضها إلى بعض..!

والـذي ثبّت هذا الـوهم في أذهـان الناس دون شك هو كونه واقعًا حدث بالفعل! وللواقع دائمًا ثقل في حسّ الناس! ولكن هذا الواقع قد حدث لأسباب! والسبب الأكبر فيه هو **ضعف العالم الإسلامي**! وإلا فلنتصور فقط أن الدولة العثمانية - وهي المرحلة الأخيرة من مراحل القوة الإسلامية - قد بقيت على قوتها، فهل كانت تجرؤ أوربا على استعمار العالم الإسلامي؟!

يقول أحد المبشرين في بدايات القرن العشرين الميلادي - قبيل انهيار الدولة العثمانية - إن أوربا كانت تخشى الرجل المريض **(وهو مريض!!)** لأن وراءه ثلثمائة مليون من البشر على استعداد للقتال بإشارة من أُصبعه!

فإذا كان هذا موقف أوربا من الرجل المريض، فكيف كان موقفها منه وهو قوي؟! ولنتصور فقط أن الجيوش العثمانية التي حاصرت بطرسبرج (لننجراد حاليًّا) من سنة ١٧٠٧م إلى سنة ١٧١١م قد دخلتها، وأن الجيوش التي حاصرت فينا في

المرة الأولى سنة **١٥٢٩** أو المرة الثانية سنة **١٦٨٣**م قد دخلتها . . **فماذا كان يكون موقف أوربا من العالم الإسلامي، وكيف يتصور تجرؤها على استعماره؟!**

ونحن لا نتحدث عن الدولة العثمانية في الوقت الذي حاصرت فيه بطرسبرج وفينا على أنها هي النموذج الذي نعنيه حين نتصور الأمة الإسلامية محافظة على رسالتها . . فقد كانت الدولة العثمانية ـ في وقت ازدهارها وتمكنها ـ تمثل قوة سياسية وعسكرية هائلة، وتمثل كذلك رغبة مخلصة في خدمة الإسلام ونشره في الأرض، ولكنها لم تكن تمثل الصورة العلمية والحضارية الصحيحة للأمة الإسلامية. وإنما الذي نعنيه هو صورة الأمة الإسلامية حين كانت محافظة على رسالتها **في جميع جوانبها** كما كانت بالفعل في فترة من تاريخها. وهو أمر كان في إمكان تلك الأمة **ـ ما دامت قد بلغته بالفعل ـ** لولا الانحرافات التي وقعت فيها، والتي هي مسئولة عنها في الدنيا والآخرة، والتي تسببت ـ بتراكمها على مدى الزمن ـ في زوال النموذج الصحيح، وبروز النموذج المنحرف، وتثبيته في الأرض، وإيهام الناس أنه نموذج صحيح، بل أنه هو النموذج الصحيح الذي ينبغي أن يبقى في الأرض!

وهذه مسئولية الأمة الإسلامية التي نتحدث عنها في هذه الفقرة، والتي استعرنا لها العنوان الذي عنونّاها به . .

ونعود إلى متابعة الأحداث . .

إن ضعف العالم الإسلامي هو الذي أغرى أوربا باستعماره. ولئن كانت القوة الحربية والسياسية للدولة العثمانية قد زجرت أوربا مدة أربعة قرون متوالية عن أن تتجه في حروبها الصليبية الحديثة نحو المشرق مباشرة، كما فعلت في المرة الأولى للاستيلاء على القدس، فإنها لم تستطع ـ بسبب ضعفها التدريجي ـ أن تمنع أوربا من الالتفاف حول العالم الإسلامي من جهة الغرب، وحول رأس الرجاء الصالح نحو الشرق ـ **على هدى الخرائط الإسلامية!!** ـ لتلتهم الأجزاء الضعيفة من العالم الإسلامي تباعًا، حتى إذا كانت نهاية القرن التاسع عشر الميلادي لم يكن قد بقي من العالم الإسلامي لم يُستعمر إلا تركيا ذاتها، **وأجزاء من الجزيرة العربية!!**

ومن نهب خيرات العالم الإسلامي تضخمت أوربا، وصارت إلى ما صارت إليه.

فإذا تصورنا أن الأمة الإسلامية لم تكن تهاونت، ولا تراجعت، ولا انحرفت، ولا فرطت، فإن أوربا ـ التي استيقظت من سباتها وخرجت من عصورها الوسطى المظلمة بما اكتسبته من علوم المسلمين وحضارتهم ـ كانت قمينة أن تسعى إلى القوة والعلم والحضارة، ولكن في الحدود التي يسمح لها بها كيانها، مهما يكن من تدفق رغباتها، وحماستها، وبذلها الجهد لتحقيق أهدافها!

إن الوهم «التاريخي» الذي أشرنا إليه آنفًا، يُخيِّل لكثير من الناس أن الشعوب الأوربية شعوب عبقرية بفطرتها، حضارية بفطرتها، عظيمة بفطرتها، متغلبة بفطرتها، لا تقف في طريقها عقبة، ولا يحجزها حاجز!!

فنحيل هؤلاء إلى حقائق التاريخ!

تقول الروايات التاريخية: إن فاسكو داجاما الذي نزعم لأبنائنا أنه هو الذي اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح[1]، التقى بالبحار العربي المسلم «ابن ماجد»، بعد اكتشافه ذلك الطريق، فعرض عليه بعض الآلات البحرية التي يملكها (الاصطرلاب والبوصلة ونحوها)، فاستمهله ابن ماجد قليلاً، ودخل حجرته ثم عاد ومعه من الأدوات ما ذهل له فاسكو داجاما! فعرض عليه أن يكون هو قائد رحلته إلى جزر الهند الشرقية.

وتقول الروايات التاريخية: إن أوربا ـ حتى القرن السابع عشر ـ لم تكن تعرف الحمامات الخاصة داخل البيوت! إنما كانوا يستخدمون الحمامات العامة. إنما كانت الحمامات الخاصة داخل البيوت **سمة إسلامية**، تعلمتها أوربا من المسلمين في الأندلس، ثم أخذوا يطبقونها رويدًا رويدًا مع ارتفاع مستوى معيشتهم التدريجي، نتيجة الاستعمار من جهة والثورة الصناعية من جهة أخرى. وأنه في أثناء قيام محاكم التفتيش في الأندلس بالبحث عن المسلمين المتنصرين ظاهرًا للفتك بهم والقضاء عليهم، كانوا يعرفون بيوت المسلمين بعلامة مميزة لا تخطيء، وهي وجود حمام خاص في المنزل!

---

(١) اكتشفه لنفسه ولأوربا، أما المسلمون فقد كانوا يعرفون الطريق ويرتادونه في رحلاتهم التجارية قبل ذلك بقرون.

والحي اللاتيني في باريس ـ الذي احْتُفظ به للذكرى، والذي يتغنى عبّاد باريس بأزقته الضيقة، ويتغنون أحيانًا بقذارة رواده! ـ هو نموذج لما كانت عليه باريس كلها إلى وقت قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩م). واقرأ إن شئت وصفًا لما كانت عليه الشوارع قبيل الثورة من القذارة، ومن الوحل اللازب حين ينزل المطر على الأتربة المتراكمة، في «قصة المدينتين» التي كتبها الكاتب الروائي شارلز دكنز، الذي اشتهر بدقته وواقعيته في وصف المشاهد التي يرسمها.

كلا! إنما الذي صنع أوربا الحديثة الغنية المتعالية هو **ضعف العالم الإسلامي، وعدوان أوربا عليه ونهب خيراته!**

ولو بقي العالم الإسلامي على صورته التي كان ينبغي أن يبقى عليها، فقد كانت أوربا ستتعلم، وترتقي، وتتقوى، وتتحضر، ولكن في الحدود المتاحة لها، التي تتيحها لها قوتها بإزاء قوة العالم الإسلامي.

ونفترض جدلاً أنها آثرت الكفر بسبب أفاعيل الكنيسة، ولم تدخل في الإسلام، على الرغم من إشارة ويلز إلى أن العالم كله كان عرضة لأن يدخل في الإسلام في بدايات القرن السادس عشر، فماذا كان يمكن أن يحدث؟

لقد كان النموذج المنحرف الذي اختارته أوربا لنفسها، المعادي للدين، أو المبتعد عنه في أقل تقدير، **سيظل محصورًا في حدود أوربا**، لا يتجاوزه إلى العالم الواسع، بسبب وجود النموذج السوي في رقعة واسعة من الأرض، مُمَكَّنا قويًّا، مستعليًا بإيمانه، وجذابًا في الوقت نفسه بما يشتمل عليه النموذج الإسلامي الصحيح من توازن ورفعة ونظافة وشمول وطمأنينة وبركة.

وفضلاً عن ذلك فإن النموذج الأوربي المنحرف ـ حتى ولو ملك القوة المادية والعلمية ـ كان سيظل موضع الاستنكار ممن يمارسون الأسلوب الصحيح، وممن يقفون موقف المتفرج بين المنهج المنحرف والمنهج الصحيح. ومما يدل على ذلك أن الوثنيين في الهند ـ الذين حكمهم المسلمون ثمانية قرون دون أن يُكرهوهم على اعتناق الإسلام ـ كانوا في مبدإ الأمر أميل إلى الحكم الإسلامي منهم إلى المستعمر البريطاني، وذلك قبل أن يستميلهم الإنجيز بشتى الطرق إليهم، ويُحرّضوهم على تذبيح المسلمين

وتقتيلهم، على طريقة الإنجليز الشهيرة: «**فرق تسد**»!

كانت أوربا الكافرة ستمضي قدمًا في «حضارتها» المادية، وفي صراعاتها الداخلية التي كان من نماذجها «الحرب الإيطالية» التي استغرقت من عام **١٤٩٤** إلى عام **١٥٥٩م**، وشهدت انتقال السلطة من دولة إلى دولة أكثر من مرة[١]، دون أن تسري عدوى ذلك التحضر الكافر إلى بقية بلاد العالم، ودون أن يُنظر إلى الكفر على أنه ضرورة من ضرورات التحضر! ولا إلى الدين في ذاته على أنه عقبة في طريق التقدم، إلى آخر ما سممت به «**الحضارة الأوربية**» أفكار الملايين في شتى بقاع الأرض، وتوهمت تلك الملايين أنه حقيقة بسبب غياب النموذج الصحيح.

* * *

وكانت أوربا الكافرة ستتقدم في العلم، بما تعلمت من علوم المسلمين، وعلى هدي المنهج التجريبي خاصة، الذي ابتدعه المسلمون ونقلته أوربا عنهم. **ولكن هذا النموذج المنحرف**، الذي يخيّر الناس بين العلم وبين الإيمان بالله، ويعجز عن التوفيق بين أمرين لا تعارض بينهما في الفطرة السوية، **لم يكن ليفتن البشرية كما فتنها اليوم**، لأن النموذج السويَّ، الذي يتقدم في البحث العلمي وهو مُؤمن، ويُمارس هذه النعمة الكبرى: نعمة التوافق والتناسق والتوازن، مع تحقيق مكاسب العلم في الوقت ذاته، **كان هو الذي سيجذب الناس إليه**، لأنه يمثل وضع الفطرة السوية.

وحين يرى الناس النموذجين المختلفين: أحدهما يتقدم في العلم وهو عابد لله شاكر لأنعمه، متخلق بأخلاق الإيمان، محافظ على روابطه الأسرية، مُطمئن النفس من القلق والجنون والأمراض النفسية والعصبية، عازف عن الخمر وما شابهها مما يُذهب الوعي، مُطمئن لعرضه، مطمئن لطهارة ماله، شاعر أنه يعيش من أجل قيم عليا يُجاهد في سبيلها..

والآخر يتقدم في العلم، ولكن بينه وبين الله جَفْوة، روابطه الأسرية مُفككة،

---

(١) من المراجع الجيدة في هذا كتاب «أوربا في مطلع العصور الحديثة»، للدكتور عبدالعزيز محمد الشناوي.

وروابطه الاجتماعية مفككة، يملأ مجتمعه القلق والجنون والأمراض النفسية والعصبية والخمر والمخدرات والجريمة؛ الفوضى الجنسية أصل فيه، والطُّهر شذوذ مستنكر[1].

حين يرى الناس النموذجين، **فأيهما يكون أحب إليهم؟ وأي نموذج يختارون لأنفسهم؟**

وهب أن أوربا لسبب من الأسباب تفوّقت في بعض ميادين العلم أكثر من العالم الإسلامي، واحتاج الناس إلى ما بين أيديها من علم تفردت به، فإن وجود النموذج السوي، المشتمل على نهضة علمية ولو كانت لا تُغطي كل الميادين، **ستظلّ له جاذبيته**، وسيظل الناس ـ وإن احتاجوا إلى ما عند أوربا في بعض ما يلزمهم ـ لا ينحازون إلى النموذج الفاسد، ولا يفضلونه على النموذج السوي، ولا يأخذون العدوى منه، ولا يتصورون أن الجفوة بين الدين والعلم هي من طبائع الأشياء!

ونضرب مثلاً مع الفارق.. فإن اليابان اليوم متقدمة في بعض ميادين العلم ـ الإليكتروني خاصة ـ إلى درجة تعجز أوربا وأمريكا عن اللحاق بها فيها. ومع ذلك فلم يفكر أحد وهو يستورد من اليابان ما يحتاج إليه من المنتجات، أن يعبد ما تعبده اليابان، أو يتخذ التقاليد اليابانية في حياته. فكذلك لو افترضنا أن أوربا تفوقت على المسلمين ـ الممارسين لدينهم على صورته الصحيحة ـ في بعض ميادين العلم، **فلم يكن ذلك ليؤدي إلى أن يترك الناس عبادة الله من أجل حاجتهم إلى علم أوربا في بعض الميادين**.

على أن هذا الفرض نفرضه **من باب الجدل فحسب**. فليس الأوربيون أذكى بالطبيعة من غيرهم من الشعوب، وليس المسلمون بالطبيعة أقل ذكاء منهم، حتى نفترض أن أوربا كانت ستتفوّق عليهم في حال التزامهم بمنهج ربهم الذي دفعهم إلى العلم دفعًا، وجعلهم ـ لقرون ـ سادة العلم في الأرض.

إنما العلم ـ **والعلم الحديث خاصة** ـ ذكاء من جهة، وإمكانات بحث وتجريب ينفق عليها بسخاء من جهة أخرى.

---

(١) لقد قال قوم لوط من قبل: ﴿أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾!! والمجتمع الغربي يعتبر الفتاة التي بلغت الرابعة عشرة وليس لها «صديق» حالة شاذة تحتاج إلى الطبيب النفساني ليعالجها!

والذي جعل أوربا تتفوق في العلم في العصر الحديث لم يكن بالضرورة هو الذكاء العبقري بمقدار ما كان **إمكانات البحث والتجريب التي ينفق عليها بسخاء**.

ولسنا ننفي وجود عبقريات فذة لديهم، ولكننا ننفي تفردهم بالعبقرية.. ولنذكر - على سبيل المثال فقط - أن أول من تنبأ بإمكان عمل قنبلة ذرية كان العالم المصري المسلم الدكتور **مصطفى مشرفة**، وكان مقعدًا بسبب إصابته بشلل الأطفال! ولكنه كان عبقريًّا، وكان يُقال عنه في وقته إنه أحد أربعة في العالم كله استوعبوا نظرية أينشتين استيعابًا علميًّا كاملاً! وقد تنبأ بإمكان صنع القنبلة الذرية - بعد دراسته لنظرية أينشتين - في وقت مبكر في مبادىء الثلاثينيات من القرن العشرين، في وقت لم يكن أحد بعد قد فكر في ذلك الموضوع. ولكنه كان محرومًا من الإمكانيات العملية التي تتيح له تجربة فكرته في داخل المعمل.

ولنذكر أيضًا أن قاعدة إطلاق الصواريخ في أمريكا تضم عالمًا مصريًّا مسلمًا يعتبر من كبار المختصين في هذا العلم.

وفي العالم الإسلامي بمختلف شعوبه عبقريات علمية في مجالات متعددة، «**تشتريها**» أمريكا وغيرها من الدول الغنية، أو تموت كمدًا من الإهمال والاضطهاد في بلادها! وذلك مع كل ما أصاب العالم الإسلامي من قعود وتخلف وانصراف عن العلم.. **فكيف لو تصورناه على صورته التي كان عليها وقت ازدهاره**؟!

* * *

وقضية التقدم العلمي بالذات لها أوجه متعددة، وكلها تؤكد **مدى الخسارة التي خسرها العالم بانحطاط المسلمين**.

فلو أن الأمة الإسلامية حافظت على تقدمها العلمي الذي كانت سابقة فيه لكل بلاد الأرض، وعلى منهجها التجريبي الذي أنشأته بتوجيه الإسلام لها.. **فأين كان يتوقع أن تبدأ «الثورة الصناعية»**؟

إن مكانها الطبيعي - دون شك - كان هو **العالم الإسلامي**. فقد كانت الثورة الصناعية تطبيقًا «تكنولوجيًّا» لثمار التقدم العلمي. لذلك فإن الأمة التي تملك التقدم

العلمي كانت قمينة أن تكون هي التي تخترع الآلة، وهي التي تبدأ الثورة الصناعية.

ولو نشأت الحركة الصناعية الحديثة في العالم الإسلامي، لكان لها - من جميع الأوجه - شأن آخر غير الذي صار لها حين نشأت في أوربا، النافرة من دينها، المعادية لتعاليمه..

* وأول وجه كانت ستختلف فيه عن الحركة الصناعية الأوربية أنها **لم تكن لتقوم على الربا، ولا لتسمح به**.

وهذا الأمر وحده على جانب كبير من الخطورة في أزمة البشرية الحالية.

فلو أن الحركة الصناعية قامت على غير الربا لانتفت بادىء ذي بدء تلك الأسطورة التي زعمت للناس أنه لابد من مخالفة أوامر الله من أجل الحصول على التقدم الصناعي! وأنه لا سبيل إلى تقدم البشرية صناعيًا إذا التزمت بأوامر الله!

وهي فتنة جائحة أفسدت عقائد الناس، وأخلاقهم، وأفكارهم، ومشاعرهم، بدعوى أن هذا الفساد كان من مستلزمات التقدم، ثم زعمت لهم بعد ذلك أن هذا لم يكن فسادًا، **بل «تطورًا»** حتميًا، وأن العقائد والأخلاق والقيم هي التي كانت لابد أن تبدل لتناسب «**العصر الصناعي**»!! وأن التطور المادي هو الذي يحكم حياة الناس!!

بعبارة أخرى لم تكن أباطيل التفسير المادي للتاريخ لتجد مكانًا لها في الفكر البشري، وإن وجدت في أذهان بعض الناس فلم تكن لتنتشر انتشارها الجائح الذي حطم كل القيم الثابتة التي لا غنى عنها في حياة البشر الأسوياء.

ومن جهة أخرى فلو أن الحركة الصناعية قامت على غير الربا **فمن أين كانت تأتي السيطرة الحالية للشعب الشيطان؟** التي أتاحت له أن يفسد في الأرض مالم يقدر على إفساده خلال أكثر من عشرين قرنًا من الزمان على الرغم من الجهد المتواصل و«النية المسبقة» و«العزيمة» المجندة للإفساد!

لقد كان تمويل الحركة الصناعية في أوربا عن طريق الإقراض بالربا هو الذي أتاح **لليهود** كل ما أتيح لهم من قوة شيطانية، حين جمعوا الذهب في أيديهم، واستطاعوا أن «**يشتروا**» به الأفكار والضمائر و«**الخدمات**» اللازمة لتنفيذ مخططاتهم.

وإذا كانت «**الضرورة**» الواقعية هي التي ألجأت أوربا إلى الاعتماد على اليهود في تمويل الثورة الصناعية[1]، فلم تكن تلك الضرورة قائمة في العالم الإسلامي. فقد كان المال في يد التجار المسلمين وفيرًا، وكانوا هم الأجدر بتحويل رؤوس أموالهم - أو جزء منها - لتمويل الحركة الصناعية دون ربا ولا فساد في الأرض.. **وعندئذ كان يتغير وجه التاريخ!**

وهـذه النقـطة وحـدها تبين لنا كم كانت جسامة الوزر الذي ارتكبته الأمة الإسلامية بتفريطها وتهاونها في أمر دينها. وكم كانت الخسارة التي عادت على العالم كله من جراء هذا التفريط والتهاون، فضلاً عن الضرر الذي عاد على الأمة كلها فيما بعد، من ضياع مكانتها، وضياعها هي ذاتها، وضياع فلسطين واقتطاعها من جسد الأمة الحي، ليلتهمها اليهود.

حقـًا! ما أبعـد الشُّقـة بين قيام الحركة الصناعية في أوربا، وما لابسها من ملابسات، وبين أن تكون قد قامت في العالم الإسلامي، الذي كان جديرًا أن تقوم فيه، لو بقي على صراط الله المستقيم.

* ولم تكن البراءة من الربا - الذي جرّ سيطرة اليهود العالمية - هي الخير الوحيد الذي كان العالم جديرًا أن يكتسبه من قيام الحركة الصناعية في العالم الإسلامي. بل كانت معها النجاة من شرور كثيرة أخرى وقعت في الأرض.

وخذ فقط «**قضية المرأة**».

لقد نشأت القضية كما شرحنا في هذا الكتاب - وفي غيره من قبل - من اضطرار المرأة الأوربية للعمل حين نزح كافلها من الريف إلى المدينة للعمل وتركها بلا عائل، فتبعته إلى المدينة لتعمل لتسد جوعتها، فاستغلها أصحاب المصانع استغلالاً رديئًا،

---

(١) لم تكن ضرورة في الحقيقة. فقد نشأت تلك «الضرورة» الوهمية من أن المال الوفير لم يكن متوافرًا إلا في يد أمراء الإقطاع والمرابين اليهود، فلما امتنع الإقطاعيون عن تمويل الثورة الصناعية للظروف التي بيناها في فصل «السيطرة العالمية لليهود»، انفتح الباب على مصراعيه للمرابين. ولكن هذا الوضع الإقطاعي ذاته كان نتيجة لعدم تحكيم شريعة الله في أوربا، وتحكيم القانون الروماني بدلاً منها، وسكوت الكنيسة على هذا الوضع، بل تشجيعه كذلك!

إذ ساوموها على شرفها من جهة، وأعطوها نصف أجر الرجل الذي تعمل معه في المصنع نفسه وتؤدي القدر ذاته من ساعات العمل. فأصبحت لها «**قضية**»، هي قضية «**المساواة مع الرجل في الأجر**»، ثم تطورت حتى صارت «**المساواة مع الرجل في كل شيء**»، وكان من بين «كل شيء» حق الفساد الذي يسمونه حق «الاستمتاع بالحياة!» Enjoy yourself

فهل كان شيء من ذلك كله يمكن أن يحدث لو قامت الحركة الصناعية في العالم الإسلامي؟!

لقد كفل الإسلام للمرأة من يكفلها في **جميع أحوالها**، بحيث لا تحتاج - في الأحوال العادية - للعمل، ويكفلها بيت المال حين لا يكون لها أي كافل من أسرتها. ثم إذا اضطرت إلى العمل فإن عدالة الإسلام تسوي بين الأجر والجهد المبذول، ومن ثم لم تكن لتوجد للمرأة قضية أصلاً، ولم يكن ليتاح للشياطين أن يستخدموا تلك القضية كما استخدموها بالفعل لإفساد المجتمع البشري كله[1].

ولقائل أن يقول: إن المرأة كانت مظلومة في المجتمع الأوربي وكان لابد من إنصافها، فنقول: **نعم!** كان لابد! ولكن بغير هذا الفساد الهائل الذي حلّ بالأرض من جراء تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد، وإطلاق الأولاد والبنات بلا حواجز ولا ضوابط حتى كضوابط الحيوان!

ولقائل آخر أن يقول: إن المرأة في المجتمع الإسلامي ذاته كانت مظلومة وكان لابد من إنصافها، فنقول: نعم! كان لابد! ولكن الذي ظلمها لم يكن الإسلام! إنما كانت ردّة جاهلية من المسلمين في نظرتهم إلى المرأة ومعاملتهم لها، فكان التصحيح **هو الرجوع إلى الإسلام الصحيح!**

وفي جميع الأحوال لم تكن لتتاح للشعب الشيطان تلك الفرصة «الذهبية» لإفساد الأمميين، واستحمارهم، لتنفيذ مخططاته الشيطانية..

---

(١) يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في المال الموروث باعتبار التكاليف الملقاة على عاتق كل منهم. فالرجل ينال مثل حظ الأنثيين ويُكلف في لوقت ذاته بالإنفاق على الأسرة، والمرأة تأخذ نصف نصيب الرجل ولا تُكلف بالإنفاق. أما المال المكتسب فلا تفريق فيه.

* وخذ كذلك «النظريات العلمية» الزائفة التي أفسدت الفكر الأوربي، ومن ثم الفكر العالمي كله: نظريات ماركس وفرويد ودوركايم وفريزر[1] ودارون وغيرهم من «العباقرة»!

فلو لم يكن لليهود السيطرة التي أحدثها لهم قبضهم على ناصية الثورة الصناعية وامتلاك الذهب، فهل كان يتوقع لهذه النظريات «العلمية» أن تنتشر في الأرض، وتُحدث ما أحدثت من الفساد؟!

لم يكن دارون أول قائل بنظرية التطور.. فقد سبقه لامارك، وماتت نظرية لامارك في مهدها، لأنها لم تجد البيئة الصالحة للانتشار. وكانت نظرية دارون قمينة أن تموت كما ماتت نظرية لامارك، أو تنحصر في النطاق العلمي المعملي وحده، يُصدقها من يُصدقها، ويُعارضها من يُعارضها بالأدلّة العلمية، دون أن تمتد إلى ميدان العقائد والقيم والأخلاق كما مُدّدت عمدًا، على يد ماركس وفرويد ودوركايم، لتحطيم الدين والأخلاق والتقاليد، الأعداء الألداء لليهود[2].

وكان التفسير المادي للتاريخ الذي ابتدعه ماركس، والتفسير الجنسي للسلوك الذي ابتدعه فرويد، والتفسير الجمعي للسلوك الفردي الذي ابتدعه دوركايم على أساس نظرية «القطيع» أو «العقل الجمعي».. كانت كلها يمكن أن تظل «نظريات» تناقش على مستوى العلماء، يُوافق عليها من يُوافق، ويُعارضها من يُعارض، دون أن يمتد لهيبها إلى الحياة الواقعية لتلتهم مقدّسات البشر وقِيَمهم العليا، وتلبس الحقّ بالباطل على طريقة اليهود:

﴿يا أهل الكتاب لم تَلبِسون الحق بالباطلِ وتَكتُمون الحق وأنتم تَعلمونَ﴾.

(سورة آل عمران، الآية ٧١)

* * *

---

(١) فريزر «عالم» بريطاني تخصص في دراسة القبائل البدائية، ثم زعم أن الدين الذي نقول عنه إنه سماوي، إن هو إلا «تطور» للديانات البدائية الوثنية!!

(٢) إقرأ - إن شئت - فصل «دور اليهود في إفساد أوربا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

ما أبعد الشّقة بين قيام الحركة الصناعية في العالم الإسلامي المتنور، وقيامها في أوربا التي تخرج من جاهلية إلى جاهلية، تتخبّط فيها كما يتخبط الذي مسّته الشياطين.

وقد قال تعالى عن الربا:

﴿الـذين يأكلُون الـرِّبـا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطانُ من المسِّ﴾. (سورة البقرة، الآية ٢٧٥).

فكيف بالـذين يأكون الـربـا ويُمارسون الفواحش ويشربون الخمر ويُدمنون المخدرات ويتعمدون مخالفة أمر الله في الكبيرة والصغيرة ليطيعوا أمر الشيطان؟!

لقـد تقـدمت أوربـا تقدمًا هائلاً في العلوم النظرية والتطبيقية والعمارة المادية للأرض.. ولكن هذا كله جاء على حساب «**الإنسان**»، كما قال ألكسيس كاريل بحق في كتابه الجيد «**الإنسان.. ذلك المجهول**».

لم يكن مقتضى التقدم العلمي والمادي ـ والسياسي والحربي والاقتصادي ـ أن يخرج الناس من دينهم وأخلاقهم وإنسانيتهم، ولا كان مقتضى محافظة الناس على دينهم وأخلاقهم وإنسانيتهم، أن يقعدوا عن التقدم العلمي والمادي والسياسي والحربي والاقتصادي، كما تخيلت أوربا في جاهليتها المعاصرة، وكما خيّلت للناس من خلال سيطرتها على العالم.

إنـما كان ذلـك كله لانحرافات محلية في أوربا من ناحية، **ولغياب النموذج الصحيح من ناحية أخرى**.

ففي أوربا كانت الكنيسة ومفاسدها وتحريفها للدين، وفي العالم الإسلامي كان التراجع والانحسار والضعف، نتيجة التفريط في دين الله، وفي المنهج الرباني الذي أنزله الله لتستقيم به حياة الناس في الأرض:

﴿دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين﴾. (سورة الأنعام، الآية ١٦١).

كلتا الأمّتين وقعت في الوزر. ولكن الوزر الأكبر والأثقل لاشكّ هو وزر الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة، ولتكون شاهدة على كل البشرية.

ولم أر في عيوب الـنـاس عيبًـا كنـقـص الـقـادرين على الـتـمام

* * *

ولكن قائلاً قد يقول ـ وقد قرأ التفسير المادي للتاريخ وتأثر به ـ **ما قيمة «لو» في عالم الواقع؟**

إن الذي حدث بالفعل أن المسلمين عجزوا في عالم الواقع عن تحقيق الإسلام في صورته «المثالية»، وانحسروا وضَعفوا وتَراجعوا، وأن أوربا تقدمت وتحضرت وتقوّت حين نبذت الدين. فموت الدين إذن كان «**حتمية تاريخية**»، كما أنه كان أمرًا لازمًا من أجل تقدم البشرية و«تطورها».

وكلا الأمرين غير صحيح . .

فأما بالنسبة لأوربا فلم يكن حتمًا أن تجري الأمور فيها على النحو الذي وقعت به.

لقد كان نبذ أوربا لدين بولس ضروريًّا لها بالفعل، لكي تنعتق من أغلاله وأوهامه وانحرافاته، وتنطلق نحو القوة والعلم والتمكين في الأرض. أما نبذ الدين جملة، وإقامة الحياة على أسس معادية للدين فلم يكن ضرورة، إنما هي **حماقة جديدة ارتكبتها الكنيسة** بمحاربتها للأثر الذي أحدثته الثقافة الإسلامية في ربوع أوربا، ثم استغل اليهود تلك الحماقة لحسابهم الخاص.

وأما التمكين المادي الذي حصلت عليه أوربا بعد نبذها لدين بولس ثم نبذها للدين عامة، فهو حقيقة واقعة، ولكنه لا يحمل الدلالة التي تُلصق دائمًا به . . لأنه لا يحمل في طياته شهادة «الصلاحية» بالمقياس الإنساني الصحيح. فلقد حقق جوانب من الكيان الإنساني ولا شك، ولكنه عجز عن تحقيق الجانب الأعلى والأكرم والأثمن في الإنسان، وهو «**القيم العليا**» التي خلق الإنسان من أجلها، ومن أجلها أسجدت له الملائكة.

ولقد مر بنا في السنن الربانية أن التمكين في الأرض يعطيه الله للمؤمنين والكافرين، للمصلحين والمفسدين:

﴿كلًّا نُمدّ، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورًا﴾.

(سورة الإسراء، الآية ٢٠)

﴿فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلّ شيء﴾. (سورة الأنعام، الآية ٤٤).

فليس هذا التمكين في ذاته دليلاً على صلاحية القائمين عليه! ولا دليلاً على أن الحياة بلا دين هي النظام الأصلح، الذي يكتب له البقاء في الأرض، والذي يمثل تقدمًا في حياة البشر!

ومهما يكن من أمر فلندع أوربا تقول في دينها وأحوالها ما تشاء! ولندع المفتونين بأوربا، المنهزمين أمام سيطرتها، يقولوا نيابة عنها ما شاءت لهم هزيمتهم!

أما بالنسبة للإسلام، فإن القول بأن «موت الدين» كان حتمية تاريخية، قول مردود بيقين.

وأبلغ ردّ يبين فساد تلك القولة وبعدها عن الواقع.. هو الصحوة الإسلامية!

وقد أبقينا الحديث عن الصحوة الإسلامية، إلى الفصل القادم.. «**توقعات المستقبل**».

توقعات المستقبل

استعرضنا في الفصول الثلاثة الماضية أحوال القوى الثلاث الرئيسية التي تؤثر اليوم في مجرى الأحداث: **النصارى واليهود والمسلمين**.

والصورة التي استخلصناها من هذا العرض هي **سيطرة الجاهلية المعاصرة على ربوع الأرض** - إلا ما رحم ربك - والسيطرة اليهودية على كلّ ربوع الأرض التي تسيطر عليها الجاهلية المعاصرة، لكون اليهود هم الذين يَرسمون لتلك الجاهلية أفكارَها وتصوراتها وسياستها واقتصادها، لا عن جبروت ذاتي فيهم، ولكن لغفلة الحراس الذين كلّفهم الله بقمع تلك القوة الشريرة والقيام بالحراسة عليها.. وعلى الجانب الإسلامي يوجد **الضعف المزري، والضياع والتخلف، والهوان والذّل**.

والآن يجيء السؤال: هل المتوقع لهذه الأوضاع أن تستمر على ما هي عليه؟ أم أنها بدأت تتحول بالفعل؟ وفي أي اتجاه يكون التحول المتوقع في تلك الأوضاع؟ وإلى متى تظل كلتا الجاهليتين اليهودية والنصرانية في وضع السيطرة والاستعلاء؟

في صورة الحاضر بعض الخطوط التي يمكن أن تعيننا في محاولة استخلاص صورة للمستقبل:

- انهيار الشيوعية.
- عوامل التفسخ في المجتمعات المعاصرة.
- الكتل المتصارعة داخل المعسكر الجاهلي.
- الصحوة الإسلامية.

تلك خطوط عامة يحتاج الحديث عنها إلى شيء من البيان.

* * *

كثير من الناس تستهويه الأحداث السياسية، وتتبع صراعات الكتل المتصارعة على سطح الأرض اليوم، لاعتقاده أن الخط السياسي هو الذي يُقرّر مصاير الأمور، فضلاً عن كون حديث السياسة «**هواية**» خاصة عند كثير من الناس.

ولكنا نعتقد أن الخط السياسي - مهما يكن من تأثيره في مجرى الأحداث - ليس هو الذي يُقرّر - في قدر الله - مصاير الأمور. ولا كذلك الأحوال الاقتصادية التي يرى بعض الناس أنها أشدّ فاعلية في تقرير مصاير الأمور من الخط السياسي، إذ يعتبرون الأوضاع السياسية إن هي إلا حصيلة الأوضاع الاقتصادية في نهاية الأمر.

والذي نعتقده أن الذي يُقرّر المصير هو «المنهج» الذي يحكم الحياة كلها، بجوانبها جميعًا: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والخلقية، والذي يُحدّد وضع «الإنسان» وأحواله مع ربه، وأحواله مع نفسه، وأحواله مع الآخرين.

وصحيح أن من سنة الله - كما أسلفنا القول - أن يُمكن لأصحاب المنهج الفاسد، بل قد يزيدهم تمكينًا كلما أمعنوا في الفساد:

﴿كُلًّا نمدُ - هؤلاء وهؤلاء - من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورًا﴾. (سورة الإسراء، الآية ٢٠).

﴿فلمّا نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾. (سورة الأنعام، الآية ٤٤).

ولكن سنة الله تقول: إنه تمكين موقوت مهما طال، وإن هناك علامات يمكن أن يستشف منها بوادر التدمير:

﴿فلما نسُوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتُوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبلسون. فقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين﴾. (سورة الأنعام، الآيتان ٤٤، ٤٥).

وليست البغتة هي الصورة الوحيدة للأخذ في سنة الله:

﴿أفأمن الذين مكرُوا السيئات أن يَخْسِفَ الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين. أو يأخذهم على تخوف، فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾. (سورة النحل، الآيات ٤٥ - ٤٧).

ولكنه في جميع الأحوال يأخذهم..!

ومن هنا فإن أحد الخطوط الواضحة في توقعات المستقبل أن يأخذ الله هذه الجاهلية بصورة من الصور إن هي أصرّت على المضي فيما هي فيه، ولم تغير حالها مع الله.

أما صورة الأخذ وموعده فهما معلقان بمشيئة الخالق المدبّر، وهي مشيئة طليقة لا تُحدّها حدود ولا قيود.

* * *

نقطة الخلل الجوهرية في هذه الجاهلية هي المنهج الذي اختارته لتعيش عليه.. وهو **منهج غير صالح للاستمرار**.. ومن ثم فإن صراعات الكتل المتصارعة في داخل **المعسكر** الجاهلي ليست هي التي نركز انتباهنا عليها في هذه الجاهلية، وإن كنا نشير إليها من باب تسجيل الواقع فحسب.

هناك صراعات متعددة في داخل المعسكر الجاهلي.

وقد كان الصراع الأكبر - في ظاهر الأمر - هو الصراع بين المعسكر **الشيوعي** والمعسكر **الرأسمالي**.

ولم يكن الناس يُصدّقون حين نقول لهم: إنه صراع غير جوهري، لأنه لا يوجد فارق حقيقي في القاعدة التي ينطلق منها كل من المعسكرين، وإن اليهود هم الذين يثيرون هذا الصراع لمصلحتهم الخاصة. وكان الناس يقولون لنا: **أفكل شيء تنسبونه إلى اليهود؟!**

والقضية - كما أشرنا إليها بوضوح في هذا الكتاب - ليست قوة اليهود، إنما هي غفلة الأمميين!

إن لعبة «**المعسكرين**»، و«**الصراع بين المعسكرين**»، الذي قد يصل إلى حدّ الحرب أحيانًا، لعبة قديمة كان **اليهود** يلعبونها في المدينة (يثرب)، قبل الإسلام بين الأوس والخزرج، أكبر قبيلتين يومئذ في يثرب. فكان **اليهود** يدخلون في الأوس، ويدخلون في الخزرج، ويثيرون الصراع بينهما من الداخل حتى تقع بينهما الحرب التي قد يقتل فيها أفراد من اليهود من الجهتين. ولكن يظل لليهود **مصلحة** «**عليا**» بل أكثر من مصلحة في تلك الحروب التي يفقدون فيها بعض الأفراد.

فأول مصلحة يحققونها ألا تأتلف القبيلتان فتكون لهما الزعامة في المدينة ويفقد اليهود مركزهم المتميز فيها.

والمصلحة الثانية: أن إثارة حالة الحرب الدائمة بين القبيلتين تنشط سوق السلاح، واليهود هم الكاسبون من ذلك لأنهم هم تجار السلاح في المدينة!

وقد ندّد الله بأفعالهم تلك في قوله تعالى: **﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم، ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم[1]، وتُخرجون فريقًا منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان[2]، وإن يأتوكم أسَارَى تُفادوهم[3]، وهو مُحرّم عليكم إخراجهم. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يُردّون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون﴾**.
(سورة البقرة، الآيتان، ٨٤ ـ ٨٥).

فلما جاء الإسلام ائتلفت القبيلتان، وآخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفقد اليهود كل شيء هناك!

ودار الزمن دورته، وغفل الحراس، فخرج اليهود يعيثون فسادًا في الأرض، ولعبوا لعبتهم القديمة لذات الأهداف، وإن يكن على مساحة من الأرض أوسع، ومساحة من البشر أوسع.. من بين الأميين المستغفلين.. فصارت الأرض معسكرين، بدلاً من قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب، ودخل اليهود في المعسكرين يديرونهما من الداخل، ويثيرون بينهما الصراع، حتى تظل السيطرة لهم في النهاية، وحتى تُرَوّج صناعة السلاح.. **وهم هم تجار السلاح!**

ثم حين بدت لليهود مصلحة في اتجاه آخر أداروا الدفّة وقرّبوا بين المعسكرين المتنازعين!!

والتقارب الواضح بين روسيا وأمريكا له أكثر من سبب في الحقيقة، وإن كان

---

(١) بدخول الحرب المثارة بين الأوس والخزرج، فريق مع الأوس وفريق مع الخزرج!

(٢) بتحريض الأوس والخزرج على الحرب فيما بينهما.

(٣) كانوا يفدون الأسرى من الجانبين اتباعًا ـ في زعمهم ـ لأوامر الله في التوراة! بينما الله أمرهم أيضًا ألا يقتلوا أنفسهم ولا يعرضوا أنفسهم للقتل. فلماذا يطيعون أمر الله في فداء الأسرى ولا يطيعونه في عدم تعريض أنفسهم للقتل؟!

الذي تلقف المكسب الأول من ورائه هم **اليهود**، بإطلاق الملايين من اليهود الروس «**التكنولوجيين**» كما يصفونهم، ليستوطنوا الضفة الغربية تمهيدًا لإنشاء إسرائيل الكبرى، كما قال شامير علانية، وتعامت كل من روسيا وأمريكا عن تصريحه، وسكتت عن الكلام المباح!

لقد كان من أسباب انهيار الشيوعية في روسيا، والتقارب بين روسيا وأمريكا، **الانهيار الاقتصادي في روسيا في ظل النظام الشيوعي**، الذي بدأ مبكرًا من أيام **ستالين**، فحاول ستالين أن يتغلب عليه بإحداث كسر مبدئي في المبادىء الشيوعية التي تقضي بالمساواة بين العمال في الأجور[1]. فأعلن ستالين أن هناك وحدة عمل إجبارية تكفل للعامل الحياة في أدنى درجات الكفاف. ومن وجد في نفسه فضلة من جهد فإنه يستطيع أن يؤدي وحدة عمل ثانية إضافية، ينال مقابلها شيئًا مما يعتبر كماليات، وإن كان في الحقيقة من الضروريات!

ثم اشتدت الأزمة أيام **خروشوف**، في الإنتاج الزراعي خاصة، فحاول مواجهته بإحداث كسر آخر في المبادىء الشيوعية، التي تقضي بإلغاء الملكية الفردية إلغاءً باتًا، وجعل الملكية الجماعية بديلاً عنها، فسمح خروشوف للفلاحين بملكية عشر المحصول لذوات أنفسهم، وامتلاك الدار التي يسكنونها وما فيها من أدوات، وكان قد وضح لخروشوف جيدًا أنه إن كان الإنتاج الصناعي يمكن السيطرة عليه بالحديد والنار والتجسس[2]، فالإنتاج الزراعي لا يمكن ضبطه بهذه الوسائل إلا إذا عين لكل فلاح مراقب أو جاسوس! فلجأ إلى تشجيع الإنتاج بإعادة الحافز الفردي في صورة من صور التملك.

---

(١) كان ماركس ينادي بوجوب المساواة في أجور جميع «المواطنين» ما داموا يؤدون «مقدارًا» واحدًا من العمل بصرف النظر عن نوع العمل، ولكن عند التطبيق على يد لينين وجد أن هذا غير معقول، فاكتفى بتوحيد الأجور بين العمال.

(٢) في الإنتاج الصناعي الحديث يقوم كل عامل بجزء محدد من العمل فعند المراجعة يمكن معرفة العامل المقصر، وعندئذ يقدم لمحاكمة فورية، ويحكم عليه بالإعدام بتهمة التخريب، وينفذ الحكم أمام بقية العمال للإرهاب.

ومع ذلك فقد ظلّ لإنتاج يتناقص باستمرار لضعف الحوافز على العمل، حتى تحولت روسيا من مصدّر عالمي للقمح، **إلى بلد يتسول القمح من أعدائه الأيديولوجيين!**

عندئذ اهتدى **جورباتشوف** - أو هُدِيَ - إلى تحطيم النظام الشيوعي لإنقاذ روسيا ولو إلى حين!!

ولكن ثمت سببًا آخر جوهريًّا لانهيار الشيوعية لا تذكره المصادر الغربية، كراهية منها أن تذكره، هو **تأثير الجهاد الأفغاني**.

فإن صمود دولة صغيرة شبه عزلاء أمام وحشية الدّبّ الروسي عشر سنوات متوالية، واضطرار روسيا في نهاية الأمر إلى سحب قواتها من أفغانستان، **قد أثر دون شك في زلزلة النظام من قواعده**، وهو الذي كان الناس ينظرون إليه على أنه نظام جبار قاهر لا يغلب!

أما التقارب بين روسيا وأمريكا، الذي تلا انهيار الشيوعية، **بل سبقه بقليل**، فإنا نجد تفسيره واضحًا في كلام نيكسون الذي أشرنا إليه من قبل، والذي قال فيه: إنه لابد من تصفية الخلافات بين روسيا وأمريكا لمواجهة الخطر المشترك، **وهو الإسلام!**

وسواء كان التقارب، قد حدث من جانب روسيا أو من جانب أمريكا أو من جانبهما معًا في الوقت ذاته بتوجيه «**القيادة العليا**» لكل منهما، التي تعين رئيس الجمهورية الأمريكية على هواها ((**وتقتله إن عصى!**))[1]، وتتحكم كذلك في اختيار «**الزعيم الأوحد**» في روسيا.. فقد كان الهدف واحدًا وهو **التكتل لمواجهة الإسلام! وهذا أحد الخطوط البارزة في صحيفة الحاضر، وصحيفة التوقعات بالنسبة للمستقبل!**

وأيًّا ما كان الأمر فقد هبطت حدّة الصراع بين ما كان يُسمى «المعسكرين الشرقي والغربي»، **وبرزت صراعات جديدة**.

(١) كما قتل جون كنيدي عام ١٩٦٣م حين وقف في وجه مصالح اليهود، على الرغم من أنه - من وجهة نظره - كان يريد خدمة المصالح القومية الأمريكية!

فالتكتل الأوربي المتمحور حول السوق الأوربية المشتركة، هو **محاولة للحدّ من السيطرة الأمريكية**، بإبراز كتلة أوربية في مواجهتها، يكون لها ثقل معين، **لكي لا تنفرد أمريكا باتخاذ القرار**. وإن كان هذا التكتل في الوقت ذاته مُوجّهًا ضدّ «**العالم الثالث**»، **أي ضد المسلمين**! فالمسلمون هم أكثر سكان العالم الثالث! والمقصود من السوق الأوربية المشتركة هو الضغط الاقتصادي، أو قل: **القهر الاقتصادي للعالم الثالث**، بحيث يُكره على بيع خاماته بأرخص الأسعار، ثم يشتريها - مصنعة - بأغلى الأسعار!

وعلى الرغم من اتفاق مصلحة هذا التكتل على إبراز وجود أوربي يوازن السيطرة الأمريكية، فهو **يحمل صراعاته الداخلية** بين ألمانيا الموحدة وكل من فرنسا وبريطانيا، وبين فرنسا المتشددة تجاه أمريكا وبريطانيا المتساهلة معها، السائرة في ركابها من أجل الحصول على بعض المساعدات الاقتصادية منها!

ولكن هذه الصراعات كلها - وإن اشتدت بين الحين والحين إلى درجة التأزم - **لا ينبغي أن تكون هي التي تشغلنا، أو التي نعلق آمالنا عليها!**

صحيح أن بعض الثغرات قد يستفيد منها المسلمون أحيانًا. ولكن لنتذكر دائمًا أن هذه الدول مهما تصارعت فيما بينها، ومهما اشتد الصراع بينها في بعض الأحيان - **فكلها تقف موقف العداء من الإسلام والمسلمين**! وكلها تقف مع إسرائيل بحكم العبودية لليهود، التي تسيطر على أوربا وأمريكا! ومن كان في شكّ من ذلك فلينظر إلى قضية فلسطين كيف عالجتها هيئة الأمم وغيرها من «**المحافل الدولية**»، خلال أربعين سنة كاملة!! وكيف أن المحاولات المزعومة للاستفادة من الثغرات القائمة بين الكتل الدولية من أجل صالح «**القضية**»، لم ينتج عنها أي تقدم خلال تلك الفترة المديدة!! إنما ظلت إسرائيل تتوسع وتتوسع، وتطرد العرب وتقتلهم وتعتدي على مقدساتهم، و«**الدبلوماسية**» في محاولتها الفارغة للاستفادة من الأوضاع الدولية تدور وتدور، ولا تصل من دورانها إلى شيء!

ومن كان في شك كذلك، فلينظر كيف عالجت «المحافل الدولية» **قضية كشمير**!! التي قال عنها نهرو في تبجح لا مثيل له: «إن حق تقرير المصير حق وعدل

إلا في كشمير!!» وكيف عالجت تلك المحافل **قضية الفلبين**، وقضية **أريتريا**، وقضايا المسلمين الذين يُحرقون أحياء في **الهند**، ويطردون من مساجدهم لتقام فيها معابد وثنية.. بل فلينظر كيف عولجت قضية **سلمان رشدي** في بريطانيا!! وتخيّل مثلاً أن كاتبًا مسلمًا كتب كتابًا بالإنجليزية في بريطانيا ضد اليهود.. كيف كان يكون موقف «**السيدة الحديدية**» التي أعلنت حمايتها لذلك المرتد، وقالت: إن هذه قوانيننا.. ومن لم تعجبه قوانيننا فليغادر بلادنا!!

كلَّا! من كان يُعلّق آمالـه على صراعات الكتل المتصارعة فسينتظر كثيراً، وسيحصل قليلاً، إن حصّل شيئًا على الإطلاق!

* * *

الصحوة الإسلامية هي أبرز خطوط الحاضر، وهي كذلك ـ فيما نتوقع ـ أبرز خطوط المستقبل.

ولا نقول هذا من باب إلقاء الكلام على عواهنه، ولا من باب تصديق الأماني، ولا من باب إعطاء الحركات الإسلامية القائمة اليوم أكثر من حجمها الحقيقي.

إنما نقول ذلك: **تتبعًا للسنن الربانية، ووعد الله ووعيده**.

إن الفساد القائم في الغرب اليوم ليس محصوراً في دولة معينة، إنما هو **فساد في أصل «المنهج»** كما بيّنا.

وانتقـال السلطة ـ أو مراكز الثقل ـ من منطقة إلى منطقة في داخل المعسكر الجاهلي **لن يحلّ مشكلة المنهج**، فكلهم يعيشون منهجًا واحدًا أو مناهج متقاربة.

بل إن ما كان يبـدو من صراع «**أيديولوجي**» بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغـربي لم يكن صراعًا جوهريًّا في حقيقته. فالفرق ليس كبيرًا بين ما كان يدين به المعسكر الشيوعي وما يدين به المعسكر الرأسمالي من حيث سيطرة القيم المادية في كليهـما، ومن حيث بعـدهمـا عن المنهـج الـرباني، ونفورهما من الأخذ به في واقع الحياة... **إنما كان الفارق في الدرجة لا في النوع!** في الصورة لا في الجوهر. أما التصورات، والقيم، وقاعدة الحياة، وغاية الوجود.. فالفارق فيها بين المعسكرين

ضئيل لا يكاد يُحسّ!

واليوم على أي حال قد انهارت الشيوعية، **واقترب «المعسكران» حتى كادا يصبحان معسكرًا واحدًا!**

وسواء كان هذا الانهيار نهائيًّا - **وهو ما يبدو لنا أنه الأرجح** - بالنسبة لنظام وصل في مصادمته للفطرة إلى أقصى المدى فسقط. أم كانت الشيوعية ستسعى إلى استعادة ما فقدته من الأرض - **وهو احتمال ضعيف** - فليست المشكلة كامنة فيمن تكون له السيطرة في المعسكر الجاهلي: روسيا، أم أمريكا، أم ألمانيا، أم اليابان، أم الصين.. أم يتنازعون السيطرة فيما بينهم.. **إنما المشكلة أن المنهج الذي تعيش عليه الجاهلية كلها قد تهرّأ ولم يعد قادرًا على الاستمرار إلى أمد طويل.**

ولسنا نقول مع الحالمين: إن الجاهلية المسيطرة اليوم ستسقط في الغد القريب.. ﴿**إلا أن يشاء ربي شيئًا، وَسِعَ ربي كل شيء علمًا**﴾ (سورة الأنعام، الآية ٨٠). كما جاء على لسان إبراهيم في القرآن الكريم.

إنما نقول فقط: إنه مقضي عليها بالسقوط حسب سنة الله، لما تشتمل عليه من الفساد. أما سرعة الانهيار أو بطؤه فأمر متعلق بمشيئة الله، **وإن كان استقراء السنة الجارية، والأسباب القائمة في الأرض اليوم يُوحي بأن انهيارها قد يكون بطيئًا، لسببين اثنين على الأقل:**

السبب الأول: أن فيها إيجابيات غير قليلة[١].

والسبب الثاني: أن البديل لم ينضج بعد.

ولقد ينتقل مركز الثقل في المعسكر الجاهلي أكثر من مرة في أثناء الانهيار، كما انتقل في الجاهلية الأولى أكثر من مرة بين فارس والروم. **وألمانيا** هي إحدى المراكز التي يمكن أن ينتقل الثقل إليها، والصين واليابان من المراكز المحتملة كذلك. ولكن هذا لن يُغيّر النتيجة في النهاية.. **فالنهاية هي الانهيار..**

---

(١) تكلمنا عن هذه الإيجابيات من قبل في فصل «الجاهلية المعاصرة».

* **والآن فلننظر في أسباب الانهيار وعلاماته.. ولننظر في أمر البديل..**

تحدث كثير من مفكري الغرب عن بوادر انهيار الحضارة الغربية.. كل يرصد الأمر من زاوية نظره الخاصة. فالفيلسوف البريطاني «**برتراند رسل**» يقول: «لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض. وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونًا من قوانين الطبيعة..» ثم يُعلل الأمر بأن الرجل الأبيض **لم يعد لديه ما يُعطيه!**

والعالم الفرنسي «**ألكسيس كاريل**» يتحدث في كتابه: «**الإنسان ذلك المجهول**» عن مظاهر الانهيار في الحضارة الغربية، ثم يُعلّلها بأن تلك الحضارة قد أنشئت دون أية معرفة بطبيعة «الإنسان» الذي أنشئت من أجله!

ويتحدث: «**جون فوستر دالاس**»، وزير الخارجية الأمريكية الأسبق في كتابه «**حرب أم سلام**»، عن إفلاس الحضارة الغربية فيردّه إلى نقص الإيمان، والحيرة القائمة في عقول الناس، والتآكل الموجود في أرواحهم[1].

وثلاثتهم - كما ترى - يؤكدون **انهيار الحضارة القائمة اليوم**، وإن اختلفت الأسباب التي يعزون إليها الانهيار. كما أن جماهير الناس في الغرب قد أخذت تشعر بلذع الضياع والحيرة، وتبحث في لهفة عن البديل.

ونقول نحن - **من زاوية رصدنا الإسلامية** - إن الفساد الأكبر في المنهج الغربي هو **الاستكبار عن عبادة الله، واتخاذ آلهة أخرى أندادًا لله**.. وهو الداء ذاته المتكرر في الجاهليات كلها منذ بدء الانحراف البشري.

ويظن بعض المبهورين بوضع الغرب المسيطر، أن هذا الوصف إن جاز في حق الجاهليات البدائية القديمة فلا يجوز في حق «**الحضارة الغربية المعاصرة**»، لأنه وصف متلازم مع **السذاجة وقلة العلم وقصور التصورات**، وهذا كله منتفٍ بالضرورة عن الذين سخروا طاقة الذرة، ووصلوا عن طريق العقول الإليكترونية إلى عجائب كانت تعتبر في الماضي من المعجزات.. **والذين يملكون من أدوات التدمير ما يكفي لتدمير وجه الأرض!**

---

(١) انظر تصريحاتهم في كتاب «المستقبل لهذا الدين».

ويحسن بنا أن نعود مرة أخرى إلى التاريخ، لنتتبع جذور الانحراف الذي أدى في النهاية إلى استكبار الجاهلية المعاصرة عن عبادة الله، واتخاذ آلهة أخرى أندادًا لله.. فربما كان **العرض التاريخي** أكثر إقناعًا للمبهورين بقوة الغرب المادية، وأعْون لهم على إزالة الغشاوة التي تغشى على تفكيرهم. فقد مرّ الفكر الأوربي بمجموعة من الاختلالات ـ أو الشطحات ـ جعلته يعجز عن التوفيق بين مجموعة من «الموافقات» الكائنة في الفطرة، وينظر إليها على أنها «**متناقضات**» لا يمكن الجمع بينها، إنما يأخذ الإنسان مكانه منها على أحد الطرفين المتناقضين، ويترتب على الطرف الذي يختاره من بين «النقيضين» موقفه من قضايا الوجود كلها، بدءًا من موقفه من قضية الألوهية، إلى قضية الخلق، إلى قضية الأخلاق، إلى قضية التشريع، إلى قضية العلم، إلى قضية السياسة، إلى قضية الاقتصاد، إلى قضية الفن.. الخ.. الخ.. الخ.

ونختار من بين هذه الاختلالات التي وقع فيها الفكر الغربي **أربعة بالذات**، كان لها الأثر الأكبر في تشكيل فكر الجاهلية المعاصرة وسلوكها وأخلاقها، ولا يعني هذا أنها الاختلالات الوحيدة في ذلك الفكر، فهي كثيرة كثيرة، ولكن ربما كانت كلها في النهاية راجعة إلى الاختلالات **الأربعة الكبرى** التي اخترناها للحديث.

*** أول هذه الاختلالات: عجز الفكر الغربي عن التوفيق بين فاعلية قدر الله وفاعلية الإنسان.**

ففي الفترة الكنسية آمن الناس ـ بتأثير التوجيه الكنسي ـ بفاعلية قدر الله المطلقة، على حساب فاعلية الإنسان. فالله هو الفعال لما يُريد، وقدره هو النافذ، والكون جميعًا مسخّر بأمره، والإنسان كذلك مُسخّر بأمر الله، لا يملك من أمر نفسه شيئًا، ولا من أمر غيره. فهو السلبية الكاملة إزاء الإيجابية المطلقة.

ولا شك أن فاعلية قدر الله حقيقة أزلية كبرى، لا يصحّ دون التسليم بها إيمان، ولا تسلم عقيدة، ولا يستقيم فكر. وأي تصور يخالف هذه الحقيقة هو شرك صريح.

ولكن الإيمان بفاعلية قدر الله لم يكن يقتضي بالضرورة الإيمان بسلبية الإنسان،

على النحو الذي قدمته الكنيسة في «**عصر الإيمان**»!

ولقد آمن المسلمون إيمانًا حيًّا صادقًا بفاعلية قدر الله، بل ربما كانوا أصدق الأمم إيمانًا بهذه الحقيقة، من شدة ما رُكِّزَ عليها في كتاب الله الكريم سواء في مجال الخلق أو الرّزق أو إجراء الأحداث، أو الإحياء والإماتة، أو البعث والنشور والحساب والجزاء.

ولكن المسلمين آمنوا في الوقت ذاته بفاعلية الإنسان! ولم يكن إيمانهم بهذه الحقيقة من عند أنفسهم، بل بوحي من توجيهات دينهم.. **ولا تناقض بين الأمرين**.

فالله هو الذي خلق كل شيء وقدر كل شيء.. ومن خلق الله وتقديره أنه جعل للإنسان قدرًا من الفاعلية يختار به بين الهدى والضلال، ويكون محاسبًا على اختياره يوم الحساب:

﴿ونفسٍ وما سوّاها. فألهمها فُجُورَها وتَقْواها. قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾. (سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ١٠).

﴿وقل الحقّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. (سورة الكهف، الآية ٢٩).

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبْصَرَ فلنفسه، ومن عَمِيَ فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ﴾. (سورة الأنعام، الآية ١٠٤).

وتجاور الإيمان بفاعلية قدر الله مع الإيمان بفاعلية الإنسان في قلوب المسلمين بلا تعارض ولا تناقض (ودع عنك كلام المتكلمين في قضية الجبر والاختيار التي كانت من آثار الغزو الفكري الإغريقي المبكر في حياة المسلمين، وكانت «كلامًا» معلقًا في الأبراج العاجية لا ينزل إلى واقع الناس)، وانطلق المسلمون انطلاقتهم الكبرى في الأرض **في جميع الميادين**. من جهاد لنشر الدعوة، إلى علم، إلى سياسة داخلية وخارجية، إلى تجارة، إلى صناعة، إلى حضارة متعددة الجوانب، يؤمنون بفاعلية الإنسان في الأرض، ويؤمنون في الوقت ذاته بأن الأمر كله لله، فيضربون في الأرض، ويأكلون من رزق الله ـ كما أمرهم الله ـ مطمئنين في الوقت ذاته إلى قدر الله:

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذَلُولاً فامشوا في مَنَاكِبِها وكُلُوا من رزقه، وإليه النشور﴾. (سورة الملك، الآية ١٥).

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾. (سورة الرعد، الآية ٢٨).

«**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليفوتك وأن ما فاتك لم يكن ليصيبك**»[١].

ومن هذا التوازن الجميل في الاعتقاد، تحقق توازن جميل في واقع الأرض، **فخرجت حضارة تعمل بأقصى طاقتها وفاعليتها في تعمير الأرض، وهي مؤمنة بالله**.

ولكن الفكر الغربي عجز عن الاهتداء إلى هذا التوافق الجميل المتوازن، سواء في عهده الكنسي، أو في عهده المتمرّد على الكنيسة..

في العهد الكنسي كما رأينا آمن بفاعلية قدر الله على حساب فاعلية الإنسان.. فلما احتك الأوربيون بالمسلمين في الحروب الصليبية وفي مجال العلم والحضارة في الأندلس وغيرها، انبعثت فيهم الرغبة الجياشة في الحياة، وفي تعمير الأرض، وفي كشف مجاهيلها، وفي ممارسة النشاط الذي حرّمته الرهبانية من قبل.. فوجدوا دينهم عائقًا عن ذلك كله، فانقلبوا عليه انقلابة كاملة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

من الإيمان بفاعلية قدر الله على حساب فاعلية الإنسان، إلى الإيمان بفاعلية الإنسان على حساب فاعلية قدر الله!

خلل واضح في كلتا الحالتين..

والحركة «الإنسانية» التي تولدت عنها «العلوم الإنسانية»[٢] في أوربا هي الواقع العملي لهذا الانقلاب في الفكر الأوربي.. الذي ظل يتزايد - ولا يتراجع - إلى هذه اللحظة.

هي إيمان بفاعلية الإنسان **ونبذ** للإيمان بقدر الله! نشأت عنه «حضارة» واسعة الأطراف، ولكنها كافرة جاحدة بالله!

وهكذا انتقلت أوربا من **دين بلا حضارة** إلى **حضارة بلا دين**!

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس.

(٢) لا تقصد أوربا بالعلوم الإنسانية العلوم المتعلقة بالإنسان كما نقلناها خطأ في جامعاتنا! إنما تقصد العلوم التي لا يرجع فيها إلى الوحي الرباني، إنما يرجع فيها إلى معلومات الإنسان وتصورات الإنسان.

وكان جوهر الخلل الذي وقعت فيه هو اتخاذ الإنسان نفسه ندًّا لله، واتخاذه هواه إلـهًا من دون الله!

﴿وجعلوا لله أندادًا ليُضلُّوا عن سبيله﴾. (سورة إبراهيم، الآية ٣٠).

﴿أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه﴾. (سورة الجاثية، الآية ٢٣).

وذلـك هو جوهـر الجـاهليـة، سواء الجاهلية البدائية الساذجة، أو جاهلية «العلم»، و«التمكن»، في القرن العشرين!

* * *

*** والخلل الثاني في الجاهلية المعاصرة: هو العجز عن التوفيق بين الدنيا والآخرة، وبين المادي والروحي في كيان الإنسان.**

ففي الفترة الكنسية آمنت أوربا بالآخرة على حساب الدنيا.. ونشأت عن ذلك الرهبانية وإهمال الحياة الدنيا.. كما آمنت بالجانب الروحاني من الإنسان على حساب الجانب المادي.

ولا شك أن تعاليم المسيح عليه السلام، كانت تمثل دفعة روحانية هائلة، وأنها كانت تركز الاهتمام على الأخرة.

وهذا أمر منطقي في كل رسالة سماوية، لأن الإنسان ـ في المعتاد ـ يؤتى من استحباب الدنيا على الآخرة، وانجرافه مع دفعة الشهوات حتى تنسيه ربه وآخرته. فيجيء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ليُبيِّنوا للناس أن الحياة الدنيا متاع الغرور، وأن الآخرة خير وأبقى، وليدعوا الناس في الوقت ذاته، إلى الارتفاع على ثقلة الشهوات.

ولئن كان هذا أمرًا منطقيًّا مع كل رسالة سماوية، فقد كان أوجب وألزم في رسالة المسيح عليه السلام إلى اليهود.

ذلك أن اليهود من بين كل الأمم التي أرسل إليها رسل من عند الله، كانوا أشدّها مادية وقساوة قلب وانغماسًا في حبّ الدنيا وإهمال الآخرة، فقد عبدوا العجل الذهب ـ **ولم تزايلهم عبادة الذهب إلى هذه اللحظة** ـ وأساءوا الأدب في حق الله

سبحانه وتعالى، فقالوا: ﴿**إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياءُ**﴾. (سورة آل عمران، الآية ١٨١). وتعجرفوا على عباد الله، حتى وصفوهم بأنهم هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار، وحرصوا على الحياة أشدّ الحرص: ﴿**ولتجدنّهم أحرصَ الناس على حياة**﴾. (سورة البقرة، الآية ٩٦). وحرّفوا التوراة وسِيرَ الأنبياء ليبيحوا لأنفسهم كل رذيلة، وقالوا: ﴿**لن تمسّنا النار إلا أيامًا معدوداتٍ**﴾. (سورة آل عمران، الآية ٢٤).

فلزم لهم ـ في علم الله ـ **جرعة روحية هائلة**، توازن ماديتهم التي غرقوا فيها، وتوجيهٌ مركّز إلى الآخرة ليوازن اشتغالهم الشديد بالحياة الدنيا.

ولكن النصارى ـ لأمر ما ـ «**تجاوزوا المقدار**» فلم يستخدموا العلاج في مكانه، وبالقدر الذي ينشيء السلامة والتوازن، وإنما جنحوا إلى الرّوحانية وإلى العالم الآخر جنوحًا أدى بهم إلى الرهبانية، وإهمال مطالب الجسد وكبتها، وإهمال الدنيا وعمارة الأرض.

ونشأ من ذلك اختلال في حياتهم، تمثل في فضائح الأديرة، وما حدث فيها من المفاسد، وتمثل في التخلف العلمي والمادي والحضاري.

﴿**ورهبانيّة ابتدعُوها ما كتبناها عليهم، إلا ابتغاء رضوان الله، فما رَعَوْها حق رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون**﴾. (سورة الحديد، الآية ٢٧).

وحين احتك النصارى بالمسلمين، شهدوا ما كان عليه المسلمون يومئذ من نشاط موار في كل الاتجاهات، فتاقت أنفسهم إلى ممارسة الحياة في عالم الواقع، فانقلبوا انقلابة كاملة من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال! من إهمال الدنيا إلى الفتنة بها، ومن إهمال الجسد وكبت رغائبه إلى **الإغراق في المتاع الحسي، وإهمال عالم الروح**.

وفي الحالين كان هناك خلل يُفسد الحياة.

ولقد تلقى المسلمون في كتاب ربهم توجيهات مماثلة لما تلقاه بنو إسرائيل على لسان المسيح عليه السلام، ولكنهم قطّ لم يجنحوا إلى الرهبانية، لأنهم نهوا عنها، **وهُدوا إلى الوسطية المتوازنة** التي لا تجنح هنا ولا تجنح هناك.

فلما جاء الرّهط الثلاثة، فقال أحدهم: إني أصوم الدهر ولا أفطر، وقال

الآخر: إني أقوم الليل ولا أنام، وقال الثالث: وأنا لا أتزوج النساء، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا إني أعبدكم لله** (أو قال **أتقاكم**)، **ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء**، **فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[1].

وهُدي المسلمون إلى ذلك التوازن الجميل بين الدنيا والآخرة، وبين الاهتمام بمطالب الجسد، والاهتمام بمطالب الروح، فنشأت على أيديهم تلك الحضارة المؤمنة التي أشرنا إليها مرات عدة. بينما انتقلت أوربا كما أسلفنا، من دين بلا حضارة، إلى حضارة بلا دين!

* * *

* **الخلل الثالث**: **هو عجز الفكر الغربي عن التوفيق بين عالم الغيب وعالم الشهادة**. .

في الفترة الكنسية، كان الإيمان بعالم الغيب هو «**الجو العام**»، الذي تعيش فيه النصرانية: الإيمان بالله وملائكته، والوحي والرسالة، واليوم الآخر. . وما حول ذلك من المعاني، ولكن على حساب الاهتمام بعالم الشهادة وإدراك أسراره أو الاهتمام بها.

وكل رسالة سماوية، قد عنيت بالتركيز على عالم الغيب. ولا غرابة في ذلك. فالبشر عرضة - بسبب ما ركب في طبائعهم من شهوات ومطالب جسدية - أن ينشغلوا بعالم الشهادة، الذي تتحقق فيه تلك الشهوات، ويُهملوا عالم الغيب، الذي يمنحهم «**المنهج**»، الذي ينظمون به حياتهم، ويرتفعون بتطبيقه إلى المستوى اللائق بالإنسان.

ولقد ركز الإسلام كثيراً على عالم الغيب. ومن بين الأمثلة على هذا التركيز وصف «**المتقين**»، في أول سورة البقرة بأنهم ﴿**الذين يُؤمنون بالغيب**﴾. (سورة البقرة، الآية ٣). قبل أي وصف آخر. . كأن هذه هي صفتهم الأولى والكبرى. **وإنها لكذلك بالفعل**. فعن طريق الإيمان بالغيب يؤمنون «**بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**

(١) أخرجه الشيخان.

والقدر خيره وشره» . ـ كما جاء في حديث جبريل عليه السلام ـ وهي المقومات الرئيسية للإيمان، كما أنه عن طريق الإيمان بالغيب يتلقون منهج حياتهم، بجميع تفصيلاته :

﴿أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكّر أولوا الألباب . الذين يُوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يَصلون ما أمر الله به أن يُوصل ويَخشون ربهم ويَخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية، ويَدْرَءُون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾ . (سورة الرعد، الآيات ١٩ ـ ٢٢).

ولكن إيمان المسلمين بالغيب، وتعمق هذا الإيمان في كيانهم، بتأثير التوجيهات القرآنية، وتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يمنع المسلمين من الاهتمام بعالم الشهادة، والانطلاق فيه بأقصى ما يملك البشر من نشاط .

ذلك لأن الإسلام وجههم إلى أن مهمة الإنسان هي **عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني**، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والمشي في مناكب الأرض، والأكل من رزق الله، وابتغاء فضل الله في البر والبحر، والنظر في مخلوقات الله **﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾** . (سورة الأنعام، الآية ٩٩). والتدبّر في ملكوت الله، والتدبر في كتاب الله : **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقْفالها﴾** . (سورة محمد، الآية ٢٤) . **﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾** . (سورة النساء، الآية ٨٢). وإعداد القوة لأعداء الله، والاجتهاد فيما يجدّ من أمور في حياة الناس . . **وكل ذلك عمل دائب في عالم الشهادة** .

كما أن الإسلام من جهة أخرى وجه المسلمين إلى **تدبر السنن التي يجري الله بها أحداث الكون المادي، وأحداث الحياة البشرية**، وهذه السنن في الحقيقة هي «**همزة الوصل**» بين عالم الغيب، وعالم الشهادة . فالله يدبّر أمر الكون من عالم الغيب، سواء أمر السموات والأرض، والنجوم، والشجر، والدواب . . أو حياة البشر أفرادًا وجماعات، ولكنه سبحانه وتعالى، يدبّر أمرها بمقتضى **سنن معينة** ثبتها سبحانه، وهو القدير على تغييرها إذا شاء، وخرق معتادها إذا شاء . ووجه الله أنظار المسلمين لتدبر

تلك السنن ليرتّبوا حياتهم بمقتضاها. ومن ثم صارت قلوبهم موصولة بعالم الغيب، ونشاطهم العملي - العقلي والجسدي - منطلق في عالم الشهادة، في توازن دقيق جميل أخاذ.

لم يمنعهم إيمانهم بعالم الغيب من اتخاذ الأسباب، (بل أمروا بذلك أمرًا)، ولم تفتنهم الأسباب الظاهرة، والتعامل المباشر معها، عن الإيمان بمسبب الأسباب.

لذلك أنشأوا - كما سبق القول - حضارتهم العمرانية في جو إيماني، وأنشأوا حركتهم العلمية كذلك في جو إيماني، بلا تكلف في أيهما، إنما انطلاقًا من ذلك التوافق الباطني الذي يحسونه في أنفسهم بين الإيمان بعالم الغيب، والعمل في عالم الشهادة.

ولكن الفكر الغربي عجز عن إيجاد ذلك التوافق الجميل في جميع أحواله.

في الفترة الكنسية آمن بعالم الغيب، وأهمل البحث في عالم الشهادة، واكتفى بما قدمته له الكنيسة من تفسير كل شيء في عالم الشهادة، بأنه تم بمشيئة الله وقدره. وهو قول حق في ذاته، ولكنه لا يشرح للناس السنن التي يجري بها الله ما يحدث في عالم الشهادة، ولا يقول لهم: إنها سنن ثابتة، ثبتها الله بمشيئته الطليقة، بحيث يستطيع الناس أن يتعرفوا عليها، ويستثمروها، ويرتبوا حياتهم عليها.

فلما اكتشف نيوتن «**قانون السببية**»، حدث انقلاب كامل في الفكر الأوربي، من النقيض إلى النقيض.

لقد كشف «**قانون السببية**» كما سمّته أوربا - وكان الأجدر أن تسميه «**السنن الكونية**» - عن حقائق علمية كانت مجهولة لأوربا من قبل، وشرح كثيرًا من «**الظواهر الطبيعية**» لم تكن أوربا تعلم عنها أكثر من أنها تتم بمشيئة الله. وعندئذ اندفعت أوربا في الطريق الجديد، الذي انفتح أمامها، حتى نسيت مسبب الأسباب أو تنكرت له!

يقول **جرين برنتون** في كتاب «**منشأ الفكر الحديث**»، (ص **١٥١** من الترجمة العربية لعبدالرحمن مراد)

«الإلـه في عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة. ولكن صانع هذه الساعة الكونية - ونعني بها الكون - لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد. فبإمكانه أن يجعلها تعمل

حتى الأبـد. أمـا الرجال على هذه الأرض، فقد صممهم الإلـه كأجزاء من آلته الضخمة ليجروا عليها. وإنه ليبدو أن ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإلـه صانع هذه الساعة الكونية الضخمة، الذي لا يستطيع ـ إذا ما أراد ـ التدخل في شئون عمله»!!

وواضح من كلام برنتون، أن أوربا قد اتخذت من السبب المباشر بديلاً من مسبب الأسباب! ومن «الطبيعة» ندًّا لله!

ومن المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي تعلمته أوربا من المسلمين، ومن اكتشاف السنن الكونية، نشأت في أوربا حركة علمية ضخمة، ولكنها نشأت **كافـرة جاحـدة، لعجز أوربا عن التوفيق بين عالم الغيب وعالم الشهادة**. وأصبح الإيمان بالغيب في نظرهم مُعـوّقًـا عن البحث العلمي، بل مُفسدًا لروح البحث! وأصبـح العلم هو «**المخلّص**» من جهـالة الإيمان بالغيب، التي لا يتمسك بها إلا السذج المتأخرون، الذين لم يرتقوا إلى اتخاذ روح البحث العلمي!!

* * *

* **الخلل الرابع: هو عجز الفكر الغربي عن إيجاد التوازن بين الثابت والمتغير.**

في الفـترة الكنسية آمنت أوربـا بالثبـات في كل شيء: الله والكون، والحياة والإنسان. فالله سبحانه وتعالى، أزلي لا يتغير، والكون منذ خلقه الله على حاله الذي خلق عليه. والكـائنـات الحية منذ خُلقت لم يطرأ عليها تغيير. وأوضاع الناس في الأرض حكّامًا ومحكومين ثابتة لا تتغير: الإقطاعيون في ترفهم وتمتعهم، والشعب في فقره وعبوديته، وانسحاقه وشقوته، يذهب الأفراد ويجيئون، والأوضاع لا تتغير، لأنها **جزء من قدر الله الثابت**.

فلما جاءت الداروينية كانت مفاجأة حادة لفكرة الثبات التي آمن الناس بها قرونًا بعد قرون.

وأنكـر النـاس النظرية في مبدأ الأمر، وقاوموها مقاومة شديدة، خاصة وأنها سلبتهم كرامتهم «**الإنسانية**»، التي يعتزون بها، وقالت لهم: إنهم قردة متطورة بلا زيادة!

ولكن الدعاية الضخمة التي قام بها اليهود للنظرية، والدفع المستمر لها، لم يُثبِّت النظرية في أذهان الناس فحسب، بل جعلتهم يؤمنون بها كأنها حقائق علمية نهائية، لا مجرد «**فرض علمي**»، ولا حتى «**نظرية علمية**»، كما قدمها صاحبها نفسه!

وانقلب الفكر الأوربي انقلابة كاملة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، كما حدث في كل مرة! فبعد أن كان الثبات هو الصورة الدائمة للأشياء، **أصبح «التطور» هو الصورة الدائمة للأشياء**، ولم يعد هناك شيء ثابت على الإطلاق لا الكون، ولا الحياة، ولا الإنسان، ولا الدين، ولا الأخلاق، ولا فكرة الإنسان عن الله!

فالكـون المـادي تطوّر من سديم إلى نجوم، والحياة تطوّرت من كائن وحيد الخلية إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان. والإنسان تطوّر من كائن شبيه بالقردة يمشي على أربع، إلى قرد إنساني مستقيم القامة، إلى إنسان متوحش، إلى إنسان مستأنس. والدين تطور من عبادة الأب إلى عبادة الطوطم، إلى عبادة قوى الطبيعة، إلى عبادة الأفلاك، إلى عبادة الأصنام، إلى عبادة الله الواحد.. إلى.. إلى الإلحاد، والتحول بالكلية عن الدين! والأخلاق تطورت من أخلاق خشنة عنيفة عند البدائيين، إلى أخـلاق «حضارية»، حول وديان الأنهار مع تحول الناس للزراعة والاستقرار - مع حرص شديد على قضية العفة وسيطرة الرجل - إلى تهاون شديد في قضية العفة وزوال سيطرة الرجل.. ثم وقفت هناك[1]!

وهكذا.. وهكذا.. لا شيء ثابت على الإطلاق!

ولم يستطع الفكر الغربي قطّ أن يهتدي إلى التوازن الجميل الدقيق الذي هدى الإسلام إليه المسلمين في هذه القضية. أن في النفس البشرية وفي الحياة البشرية **أموراً ثابتة لا تتغير**، ولا يُريد الله لها أن تتغير، لأنها متعلقة بحقائق أزلية كوجود الله سبحانه وتعالى، وألوهيته وربوبيته، وتفرده بالألوهية والربوبية، أو بأصول ثابتة في الفطرة، وكل تغيير فيها يؤدي إلى الفساد، **وأموراً أخرى متغيرة**، لأنها تتعلق بمدى ما يُحقّق الإنسـان بجهـده العقلي والبدني من تسخير لطاقات السمـوات والأرض، المسخرة

(١) نحن هنا نختصر مراحل «التطور» المزعومة لأن المقام ليس مقام التفصيل!

للإنسـان أصلاً بقدر من الله، ولكن تحقيق التسخير يحتاج إلى علم، وإلى استثمار للعلم في تصنيع خامات الطبيعة وتحسينها وتجميلها. . وهذه أمور أذن الله فيها بالتغيير لكي لا تجمد الحياة وتأسن.

ولكن «**الأصول الثابتة**» **هي التي تحكم** «**الصور**» **المتغيرة**، وليست المتغيرات هي التي تحكم الثوابت. وتلك هي الفكرة الرئيسية في «**الاجتهاد**»، لاستنباط أحكام متجددة من الأصول الواردة في الشريعة، لمواجهة ما يجدّ في حياة الناس من أمور. وبهـذا تنطلق الحياة في تجدد دائم، ونمو مستمر، دون أن تفقد ارتباطها بالأصول الثابتة في حقائق الأزل وفطرة الإنسان(١).

* * *

تلك أبرز الاختلالات في الفكر الأوربي، وهي كما ترى **اختلالات في العقيدة، وفي مقتضيات لا إلـه إلا الله**. . نشأ عنها فساد في الفترة الكنسية أدى إلى الجهل والظلام والجمود والتخلف، ثم نشأت عنها فيما بعد ردود فعل لا تقل فسادًا أو ربما كانت أشدّ، أدت إلى الاستكبار عن عبادة الله، واتخاذ آلهة أخرى أندادًا لله.

وذلك هو «**المنهج**» الفاسد الذي أفسد حياة الغرب، على الرغم من كل التفوق العلمي، والتكنـولـوجي، والحربي، والسياسي، والاقتصادي، الذي أحرزه الغرب أثناء كفره، بحسب سنة من سنن الله:

﴿**فلما نَسُوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيءٍ**﴾. (سورة الأنعام، الآية ٤٤).

ولكن الفساد اتسعت رقعته فأصبح مُؤذنًا بالانهيار، **حسب شهادتهم هم على أنفسهم**. ومهما يكن من بطء الانهيار للأسباب التي ألمحنا إليها، فهو واقع لا محالة لأنه سنة من سنن الله. .

﴿**وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير**﴾. (سورة الحج، الآية ٤٨).

﴿**حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم**

---

(١) يقول «العلم» اليوم: إن الكون المادي ذاته «يتطور» بالصورة نفسها، أي أنه صور متغيرة محكومة بقوانين ثابتة!

الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾. (سورة الأنعام، الآيتان ٤٤، ٤٥).

وليس الذي سينهار دوة بعينها أو شعبًا بعينه، حتى تأخذ مكانها دولة أخرى أو شعب آخر[١].

إنما الذي في طريقه للانهيار هو «المنهج».. **منهج الاستكبار عن عبادة الله، واتخاذ آلهة أخرى أندادًا لله**.

ولا بد من منهج بديل.. فإن الجاهلية الحاضرة التي فسدت وأفسدت لا تملك حلًّا جذريًّا لمشكلاتها، لأنها تفكر في الحلّ وهي واقعة في الاختلالات التي أشرنا إليها، فتخرج حلولها مصابة بالاختلالات ذاتها!

والإسلام هو المنهج البديل.. لأنه هو المنهج الذي أنزله الله ليصلح فساد الجاهلية:

﴿الٓر كتاب أنزلناه إليك لتُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾. (سورة إبراهيم، الآية ١).

كل اختلالات الجاهلية المعاصرة علاجها في الإسلام.. **بل لا علاج لها إلا في الإسلام**.

الاستكبار عن عبادة الله، واتخاذ آلهة أخرى أندادًا لله ـ وهو جوهر الفساد كله في الجاهلية المعاصرة ـ علاجه عبادة الله وحده بلا شريك، **وهو جوهر الإسلام**.

الخلل الذي نشأ من العجز عن التوفيق بين الإيمان بفاعلية قدر الله، وفاعلية الإنسان، والذي نشأت عنه «الحضارة» الكافرة، علاجه ذلك التناسق الدقيق الجميل الذي أخرج في الإسلام حضارة مؤمنة بالله.

الخلل الذي أنشأه العجز عن التوفيق بين العمل للدنيا والعمل للآخرةعلاجه في هذا التوجيه الإسلامي:

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾. (سورة القصص، الآية ٧٧).

---

(٣) قلنا: إنه قد يحدث انتقال في مراكز القوة في أثناء انهيار الجاهلية. ولكن العبرة في انهيار المنهج في النهاية.

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه النشور﴾. (سورة الملك، الآية ١٥).

الخلل الذي أنشأه العجز عن التوفيق بين عالم الغيب وعالم الشهادة، والذي نشأت عنه حركة علمية كافرة، علاجه ذلك التناسق الذي تم على أيدي المسلمين فأنشأوا به حركة علمية مؤمنة.

والخلل في التوفيق بين الثابت والمتغير علاجه أن «يتعقل» الناس حين يبْصرون بنور الله، فتذهب عن عقولهم لوثة التطور، ويظلون على الرغم من ذلك متحركين وهم مستمسكون بالعروة الوثقى، لا انفصام لها، ومهتدون بالنور الإلهي:

﴿الله نور السمٰوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّيٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يُضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور. يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم﴾. (سورة النور، الآية ٣٥).

﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم. الله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يُخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾. (سورة البقرة، الآيتان ٢٥٦، ٢٥٧).

وهكذا، لا يوجد بديل من المنهج الفاسد إلا المنهج الرباني المتمثل في الإسلام.

* * *

ولا خطر من الإسلام على «الحضارة»!

إن الإسلام لن يحارب التقدم العلمي والتكنولوجي ولا ثمار الحضارة المادية.

ولكنه عن يقين سيغير ما بأنفس الناس، وسيغير نظرتهم إلى الأشياء.

فأما إيجابيات هذه الحضارة الجاهلية فسيبقيها الإسلام، ولكنه **سيصحح قاعدتها**، كما استبقى الإسلام ما كان في الجاهلية العربية من فضائل، ولكنه في الوقت ذاته صحح قاعدته.

لقد كان عند العرب في الجاهلية **كرم وشجاعة**، ولكن الجاهلية كانت قد أفسدت قاعدتها، فجعلت الكرم إنفاقًا للمال رئاء الناس، وجعلت الشجاعة حمية جاهلية. فأبقى الإسلام الكرم والشجاعة، **لأنها من أخلاقياته الأصيلة**، ثم صحح قاعدتها ليُصبح الكرم إنفاقًا في سبيل الله، والشجاعة جهادًا لتكون كلمة الله هي العليا.

وكذلك يفعل الإسلام بفضائل الجاهلية المعاصرة: **الجلد على العمل، وعبقرية التنظيم، والروح العلمية** في تناول المشكلات، ومحاولة إيجاد الحلول العملية لها.. كل ذلك يحافظ عليه الإسلام، **لأنه متفق مع أصول دعوته**، ولكنه سيُصحح قاعدته فلا يكون الأمر **لمتاع الحياة الدينا وحده**، وعلى غير أسس «**أخلاقية**». إنما يكون عبادة لله، وعمارة للأرض بمقتضى منهج الله، فيتوافر فيه من الخير والبركة أضعاف ما هو حاصل اليوم في الأرض.

وأما الفساد فلا يتقبله الإسلام. سواء كان الفساد كفرًا بالله وجحودًا بآياته، أو تحللاً خلقيًّا، أو ظلمًا سياسيًّا أو اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا ناشئًا كله من تحكيم شرائع غير شريعة الله، أو فكريًّا أو فنيًّا ناشئًا من اتباع الهوى الذي يضل عن سبيل الله:

﴿ولا تتبع الهوى فيُضلك عن سبيل الله، إن الذين يَضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾. (سورة ص، الآية ٢٦).

* * *

الإسلام هو المنهج البديل، الذي يُصحح انحرافات الجاهلية..

ولكنه لا يَبلُغ إلى الناس على حقيقته حتى يحمله قوم يعيشون به، ويعيشون له، ويعرضونه على الناس من خلال **قدوة واقعية، ومن خلال واقع ممكّن في الأرض**.

صحيح أن بضعة ألوف، أو بضعة مئات من الألوف في أوربا وأمريكا قد دخلوا في الإسلام، فرارًا إليه من لذع الضياع والحيرة، الذي يأكل حياة الناس في الغرب، ويكاد يسلمهم إلى الجنون.

ولكن الذين يبحثون عن الحق، ويهتدون إليه من ذوات أنفسهم، قلة دائمًا في التاريخ.

ولو وجد الناس في الغرب اليوم - في حيرتهم وعذابهم - **نموذجًا إسلاميًّا صحيحًا مُمَكّنًا في الأرض**، لكان المفروض أن يدخلوا فيه **بالملايين** بدلاً من الألوف.

ولكن الذي يصدّهم عن الحق هو **الواقع السيىء الذي يعيشه المسلمون اليوم** نتيجة بعدهم عن الإسلام وتفريطهم فيه، والصورة المنفرة التي يعطيها ذلك الواقع.

من أجل ذلك نفرح **بالصحوة الإسلامية**، ونراها خطًّا بارزًا من خطوط الحاضر، وخطًّا بارزًا من خطوط المستقبل المتوقع كذلك.

ونرى في الوقت ذاته أن هذا الوضع يفرض على الصحوة **تبعات جسيمة**، لابد أن تكون كفئًا لها، لتقوم بالمهمة المطلوبة منها، لا على نطاق العالم الإسلامي وحده، ولكن على نطاق الأرض كلها.. الأرض التي أفسدتها الجاهلية.

فأما كون الصحوة الإسلامية خطًّا بارزًا من خطوط الحاضر، فلأن الأعداء كانوا قد فعلوا كل ما في وسعهم للقضاء على الإسلام، من غزو عسكري، وضغط سياسي واقتصادي، وغزو فكري، وإثارة للنعرات القومية والوطنية لتفتيت وحدة المسلمين، وتقطيع أوصالهم، وتربية أجيال من المسلمين لا تعرف شيئًا عن الإسلام إلا الشبهات التي يثيرها المبشرون والمستشرقون وتلاميذهم من «المفكرين الإسلاميين!!».

ثم كانت المفاجأة لهم - وللعالم كله - بعد هذا الجهد المبذول كله هي **الصحوة الإسلامية!**[1].

لذلك ننظر إليها على أنها قدر الله الغالب:

﴿والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. (سورة يوسف، الآية ٢١).

وكذلك نتطلع إليها في ثقة بأنها ستكون بإذن الله من الخطوط البارزة في **المستقبل المتوقع**، لأنها برزت إلى الوجود في الوقت الذي بدأ عوار الجاهلية يظهر للعيون، وبدأ الناس يتلفتون حولهم باحثين عن منهج بديل! فهي إذن حركة ذات دلالة تاريخية، وليست مجرد حركة محلية في بلد من البلدان.

---

(١) انظر - إن شئت - فصل «الصحوة الإسلامية» من كتاب «واقعنا المعاصر».

* ولا يغيب عن بالنا على أي حال أن مجرد فساد المنهج القائم اليوم في الأرض، ومجرد وجود البديل الصحيح، لا يؤدي بذاته إلى أن ينبذ الناس المنهج الفاسد ويتجهوا إلى المنهج الصحيح!

كلا! حتى يحمله قوم يعيشون به ويعيشون له، فيقنعون به وجدان الناس لا عقولهم فحسب، ويجذبونهم إليه جذبًا من خلال **النموذج الواقعي**، كما فعل المسلمون الأوائل حين كان الإسلام غريبًا في الأرض أول مرة:

«**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[1].

والغربة الثانية هي التي يعانيها الإسلام في الأرض اليوم، وهي في حاجة إلى جهد شبيه بالجهد الأول، يزيل الغربة بإذن الله.

* * *

وهنا يتساءل كثير من الناس: **هل تعي الصحوة الإسلامية مهمتها؟ وهل هي سائرة في الطريق الذي يوصلها؟ هل لديها «خطة» لحاضرها أو مستقبلها؟** أم تعيش - كما تعيش بقية الأمة في الوقت الحاضر - ارتجالاً عفويًا ليست له أهداف واضحة ولا خطة مرسومة؟!

وما نريد أن نتعجل الإجابة على هذه الأسئلة، وما نريد كذلك أن نتحدث عن جماعة بعينها من الجماعات الإسلامية العاملة في حقل الدعوة، **بل نوجه الحديث إلى الجميع**، لنتدارس معًا ما هو مطلوب منّا في الحاضر وفي المستقبل، وما يواجهنا من عقبات.

يقول تعالى مبيِّنًا أدب الدخول إلى بيوت الناس:

﴿فإذا دخلتم بيوتًا فسلموا على أنفسكم، تحية من عند الله مباركة طيبة، كذلك يُبيِّن الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾. (سورة النور، الآية ٦١).

والمقصود بطبيعة الحال: فسلموا على أهل البيت الذي تدخلونه. ولكن التعبير بأنفسكم تعبير جميل موحٍ، يوحي بالوحدة النفسية والشعورية، التي تجمع الداخلين

(١) أخرجه مسلم.

والمدخول إليهم، فحين يُسلّم الإنسان على «غيره» فكأنما يسلّم على «نفسه» من شدة القرب، ومن وحدة الطريق.

ونريد - بهذه الروح - أن نتحدث إلى **أنفسنا**، لنتعرف على مهمة الصحوة الإسلامية، والصورة التي ينبغي أن تكون عليها.

* إننا حين نقول: إنه لابد لنجاح العمل الإسلامي من تربية **قاعدة صلبة مؤمنة مجاهدة واعية**، يتضجر بعض الناس ويقولون: إنكم تطلبون **مثاليات** لا تقبل التحقيق في الوضع الراهن، فكأنكم تدعون إلى تعطيل العمل الإسلامي حين تعلقونه على هذا المطلب الصعب! كما أنكم تخذّلون العاملين في حقل الدعوة وتيئسونهم من الوصول إلى تحقيق أهدافهم!

في حين أن الذي نُنادى به ضرورة لا غنى عنها على الإطلاق!

ونبدأ بتصحيح فكرة تنشأ عند بعض الناس حين يسمعون هذه الكلمات، إذ يظنون أن المطلوب هو تربية **كل المتسبين** إلى الدعوة على هذا المستوى، الذي يرونه مثاليًّا غير قابل للتحقيق!

ونسارع فنقول: إن هذا مستحيل!

فمجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لم يكن كله على مستوى القاعدة التي تربت في بيت ابن الأرقم في مكة، والتي تربى عليها الأنصار بعد ذلك في المدينة، فقد كان فيهم - كما قلنا في غير هذا الكتاب[1] - ضعاف الإيمان، والمثّاقلون والمعوقون، والمبطئون، والمنافقون، وغيرهم من الفئات التي تمارس الإسلام على عوج.

ولكن القاعدة التي رباها الرسول صلى الله عليه وسلم، **كانت من القوة والصلابة بحيث حملت هؤلاء جميعًا وسارت بهم إلى الهدف المقصود.**

والذي نريده اليوم وننادي به هو **تربية «القاعدة»**، التي تحمل ضعاف الإيمان والمثّاقلين والمعوقين والمبطئين والمنافقين، وتتحرك بهم نحو الهدف، وهذا الأمر ليس «مثاليًّا» ولا هو غير قابل للتحقيق.. وإذا ثبت أنه غير قابل للتحقيق فعلاً، فمعنى

---

(١) في كتاب «مفاهيم ينبغي أن تُصحح».

ذلك أن العمل الإسلامي ذاته هو كذلك غير قابل لتحقيق أهدافه!! **وحاشا لله أن يكون ذلك كذلك!**

كيف نطمع في دعوة الناس إلى الإسلام إذا كنا نحن ـ الدعاة ـ غير مطبقين له في ذوات أنفسنا؟

كيف ندعو الناس إلى أخلاقيات لا إله إلا الله إذا كنا نحن أنفسنا غير متخلقين بها؟

كيف ندعوهم إلى **الثبات** إذا كنا نحن لا نثبت؟ وكيف ندعوهم إلى **الصدق** إذا سوغنا لأنفسنا أن نكذب؟ كيف ندعوهم إلى **التجرّد** لله إذا كانت ذواتنا هي محور تحركنا؟ ومصالحنا الذاتية هي التي تُحدد مواقفنا وأعمالنا؟

أوليست هذه بديهية من بديهيات العمل الإسلامي؟! أفإن نادينا بضرورة التربية لتلافي هذه السلبيات نكون منادين بمثاليات غير قابلة للتحقيق؟!

﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون. كبر مقتًا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾. (سورة الصف، الآيتان ٢، ٣).

كبر مقتًا لأنه يكون **صدًّا عن سبيل الله**، بدلًا من أن يكون دعوة إلى الله!

والشاعر يقول:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم[1]!

نستطيع أن نُخفي -حقيقة أنفسنا في خطبة حماسية بليغة، أو موعظة مؤثرة، أو محاضرة «قيمة»، أو كتاب نؤلفه.

ولكن الدعوة ليست خطبًا ولا مواعظ ولا محاضرات ولا كتبًا ـ وإن كانت هذه كلها أدوات نافعة مطلوبة للدعوة ـ **إنما الدعوة قدوة وصحبة وتربية**.. هكذا علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا ينبغي أن يكون فهمنا لحقيقة الدعوة[2].

وفي الصحبة الطويلة التي تقتضيها علمية الدعوة ـ أي تقتضيها عملية التربية ـ يستحيل علينا أن نخفي حقيقة أنفسنا، ولابد أن «**ننكشف**» أمام الذين يتلقون

---

(١) هو زهير بن أبي سلمى.

(٢) في النية إصدار بحث بعنوان «كيف ندعو الناس».

منـا. فكيف إذا اكتشفوا ذات يوم أننا كنا «**نخدعهم**».. أننا كنا نحدثهم بمعان نفتقدها نحن، أو نشتمل على أضدادها؟ كيف تكون الصدمة؟ وكيف تكون النتيجة؟

إن تربية «القاعدة» على أخلاقيات لا إلـه إلا الله، أمر بالغ الأهمية حتى في مرحلة الدعوة قبل أن يكون لنا تمكين في الأرض.

بل ربما كانت في تلك المرحلة ألزم، لأنها هي التي تجعل نمو «الجماعة» يسير في خطه الصحيح. وإلا فلنتصور إقبال الشباب على الدعوة ـ كما هو حادث اليوم ـ بغير دعـاة يستقبلونهم، ويقـومون على تربيتهم وتوجيههم وترشيدهم وهدايتهم.. **كيف يكون الحال**؟ تتضخم الجماعة ولكن **على خواء**! أو تتضخم ولكن على **عوج**! وعندئذ تكون عبئًا معوّقًا أكثر مما تكون قوة دافعة!

و«**الـدعاة**» الذين يستقبلون الشباب المقبل على الدعوة، هم «**القاعدة**» التي نتحدث عن ضرورة العناية بها، وإنشائها على أساس متين من الإيمان والوعي والتجرد لله والصدق مع الله، والاستعداد للبذل في سبيل الله.. أفإن نادينا بضرورة تربية تلك القاعدة على أعلى مستوى يقال: إننا ننادى بمثاليات غير قابلة للتحقيق؟!

* **ولنضرب بعض الأمثلة من بعيد**.. دون أن نخوض في تفصيل طويل لا مجال له في هذا البحث..

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، **يُربِّي أصحابه** ليكونوا جنودًا مخلصين، وليكونوا في الوقت ذاته قادة إذا وضعوا في المكان الذي يحتاج إلى القيادة وتحمل المسئولية.

وكان صلى الله عليه وسلم ـ وهو أعظم مربٍ في تاريخ البشرية ـ يمكّن لهذا الهدف المزدوج، بأن يؤكد على ضرورة السمع والطاعة في المنشط والمكره، ومهما تكن المواقف الذاتية والأفكار الخاصة، وفي الوقت ذاته كان عليه الصلاة والسلام، **يكثر من استشارة أصحابه** ـ وهو النبي الملهم الذي يتنزل عليه الوحي ـ لا لحاجته إلى الاستشارة ـ والوحي يلهمه بالعمل المطلوب، ويصحح مسار التصرف إن وقع على

خلاف الأولى، كما حدث مع الأعمى (ابن أم مكتوم)، وكما حدث في قضية الأسرى في بدر - ولكنه كان يهدف بكثرة استشارة أصحابه إلى **تربية شخصياتهم، وإعدادهم ليكونوا «صفًا ثانيًا» للدعوة، وقادة يعتمد عليهم في المواقف**. . وكذلك كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من بعده.

فهل نتبع نحن - في الجماعات القائمة بالعمل في حقل الدعوة - هذا الهدي النبوي؟ أم إننا - لظروف خاصة تفسر ولا تبرر - نتكيء على مبدأ السمع والطاعة، ونهمل عملية الشورى أو نحصرها في أضيق نطاق؟!

وأي دولة نهدف - في أذهاننا - إلى إنشائها بهذا اللون من التربية؟ أهي دولة الشورى الإسلامية التي أبرزت أروع نماذجها في الخلافة الراشدة؟ أم دولة الاستبداد السياسي التي تريد أن تأمر فتطاع، والتي تضيق بالنصيحة التي أمر الله الأمة بتقديمها لأولى الأمر فيها؟ وبعبارة أخرى: هل نريد أن ننشيء حكومة راشدة أم نريد أن نضيف طُغاة جددًا إلى السلسلة الطويلة من الطغاة؟!

وهذا مجرد مثال. .

وهذا مثال آخر في مجال بعيد تمامًا عن الأول، يحسبه كثير من الناس أمرًا ثانويًا هامشيًا لا يستحق الالتفات إليه في وسط جديات الأمور! ونقول نحن: لو كان أمرًا ثانويًا هامشيًا ما أولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، العناية التي تتحدث عنها كتب السيرة!

أشرنا من قبل إلى أن البيئة التي انتشر فيها الإسلام - بقدر من الله - يقع معظمها في المنطقة الحارة والمنطقة المعتدلة الحارة، وأن من صفات هذه البيئة أنها فوضوية تكره النظام، عفوية تكره التخطيط، قصيرة النفس، تشتعل بسرعة وتنطفىء بسرعة، وأن الإسلام تسلم أبناء هذه البيئة - بأحوالهم تلك - فأخرج منهم - على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم - **خير أمة أخرجت للناس**. وأنه لما خفت قبضة الإسلام على النفوس رجع أهل هذه البيئة إلى تأثراتهم البيئية، فعادوا فوضويين ارتجاليين قصيري النفس سريعي الحماسة سريعي الانطفاء.

واليوم يقال: إن هذه عيوب «حضارية» تتسم بها البلاد المتخلفة، وإنه لابد

من القضاء عليها إن أردنا أن يكون لنا مكان بين الشعوب «المتحضرة»!

وأيًّا تكن النظرة إليها فهي عيوب حقيقية **تحتاج إلى «تربية» للقضاء عليها**. وقد فشلت الأحزاب السياسية، سواء «الليبرالية»، أو الاشتراكية، في القيام بهذه المهمة خلال قرن كامل من الزمان إن لم يكن أكثر.. وبقيت الجماعات الإسلامية هي الأمل الذي يمكن أن يُلجأ إليه.

فهل عملت الجماعات الإسلامية حسابًا لهذا الأمر في منهج تربيتها.. على الأقل في «القاعدة» التي تخرّج الدعاة؟!

فأما الجماعات التي أنشأت تنظيمات «عسكرية»، فقد ركزت على الجانب التنظيمي دون شك. ولكن ليس هذا هو الذي نقصده. إنما نقصد أن يكون الفرد العادي من الدعاة **منظمًا مرتبًا**. ينظم وقت عبادته ووقت عمله ووقت راحته، ووقت اطلاعه، ووقت زياراته، ووقت رياضته، وينظم ملابسه، وأدواته، ويضبط مواعيده فلا يعطي وعدًا ويخلفه، ولا يذهب لزيارة الناس دون أن يستوثق من مناسبة الوقت الذي اختاره للزيارة، ويضبط كلامه فلا يقول إلا ما هو متثبت منه، وما يعتقد أنه حق. وينظم تفكيره فلا يقفز إلى نتيجة لا يؤيدها دليل، ولا يجعل هوى نفسه يشوش على تفكيره. ويتعود المتابعة والمثابرة فلا يندفع اليوم وتخمد حماسته غدًا.

هل جعلنا هذا في حسابنا في تربية القاعدة التي يفترض فيها غدًا أن تربي بقية الأمة؟!

وهل هذه مثاليات غير قابلة للتحقيق؟ فكيف إذن تربي الجاهلية المعاصرة أبناءها عليها حتى تُصبح جزءًا عاديًا من كيانها؟ ولماذا نستكثر على أنفسنا أن نبذل الجهد في تربية القاعدة على هذه الأخلاقيات التي كانت في حس المسلمين الأوائل وثيقة الصلة بلا إلـه إلا الله؟وكان قدوتهم فيها هو رسول الله؟!

* * *

وننتقل خطوة أخرى..

كيف نطمع في إقامة «حكم إسلامي»، إن لم نرب مثل هذه القاعدة؟!

يقولون: إن شذاذ الآفاق يقومون بانقلابات عسكرية ناجحة، ويصلون إلى

الحكم وهم لا أخلاق لهم، ولا خبرة ولا قواعد شعبية، فلماذا يشترط علينا وحدنا أن نكون ذوي أخلاق معينة، أو على مستوى معين من صلابة التكوين؟!

فنقول: **أولاً**، إن هؤلاء لا ينجحون في انقلاباتهم بخصائص ذاتية فيهم، إنما ينجحون بسند من «**القوى العظمى**»، التي تضعهم على رأس السلطة.

وهذه «**القوى العالمية**»، التي تتحكم في العالم اليوم، وفي العالم الثالث بصفة خاصة، **لا تحب الإسلام ولا تؤيده، بل تقف منه موقف العداوة الصريحة أو الخفية**، وتعمل على خذلانه وإضعاف أهله، فلا ينتظر منها أن تساند حكمًا إسلاميًّا في أي مكان في الأرض.

ونقول: **ثانيًا**، إن هؤلاء لا يشترطون على أنفسهم، ولا يشترط عليهم سادتهم الذين يضعونهم في أماكنهم ويساندونهم أن يكونوا ذوي أخلاق، ولا أن يسلكوا سلوكًا نظيفًا في حكم شعوبهم، بل العكس هو الأحب لهؤلاء السادة، لييسر لهم هؤلاء الحكام بأخلاقهم المنحرفة مهمة إذلال الشعوب الإسلامية، **وسحق الحركات الإسلامية فيها**.

أما الحركة الإسلامية فليس هدفها أن تصل إلى السلطة بأية صورة، ولا أن تقدم حكمًا من أي نوع، وبالذات ذلك النوع الذي يقاومه الإسلاميون، ويقولون عن القائمين عليه إنهم عملاء ومخربون! **وإلا فما الذي يغري الناس أن يتركوا هؤلاء ويناصروا أولئك إذا كانوا من نوع واحد؟**

بعبارة أخرى إن المطلوب من الصحوة الإسلامية أن تقدم للناس «**حكمًا إسلاميًّا**»، **لا حكمًا جاهليًّا باسم الإسلام!**

وإنه لخير للناس، وللحركة الإسلامية ذاتها، أن يتأخر الحكم الإسلامي **مائة عام** ثم يقوم على أسس إسلامية صحيحة، ويعطي الناس الصورة الصحيحة للحكم الإسلامي، من أن يقوم **غدًا** حكم يحمل اسم الإسلام، وهو غير قادر على تطبيقه في عالم الواقع لنقص في تربيته، أو نقص في خبرته، أو نقص في كفاءته!

في الحالة الأولى، سيتأخر الحكم الإسلامي ولكن يظل الناس متعلقين به، متشوفين إلى تحقيقه، **وفي الحالة الثانية**، ستنتكس الدعوة من خيبة الأمل التي تُصيب

الناس، ولا يعود الناس يستمعون إليها، ولو ظلت تدعوهم مائة عام!

كيف إذا جاءت جماعة إسلامية إلى الحكم - بأي صورة من الصور - فقامت **تعتقل معارضيها من الجماعات الإسلامية الأخرى لأنهم يناوئونها** - أو كانوا يناوئونها - في مسألة من مسائل الخلاف؟

أي صورة يقدمون عندئذ للحكم الإسلامي؟! وهل يكون ذلك في صالح الدعوة أم ضد مسيرتها؟

وكيف إذا جاءت جماعة إسلامية إلى الحكم بصورة من الصور فاستغل أشخاصها سلطتهم في **تقريب أحبائهم ومؤيديهم من غير ذوي الكفاءة، وإقصاء الذين لا يحبونهم ولو كانت فيهم الخبرة المطلوبة؟**

أي صورة يقدمون عندئذ للحكم الإسلامي؟!

وكيف إذا جاءت جماعة إسلامية إلى الحكم بصورة من الصور **فعجزت عن إدارة الأمور** لقلة خبرتها أو قلة كفاءتها، فانفرط عقد الحكم، واضطرب دولابه، بينما الذين كانوا قبلهم من العلمانيين والعملاء كانوا أمهر منهم في الإدارة وأكثر منهم كفاءة وخبرة؟

أي صورة يقدمون عندئذ للحكم الإسلامي؟!

وقد يقول قائل: إن حكم أي جماعة إسلامية سيكون على أقل تقدير أفضل من حكم شذاذ الآفاق.

وحتى إن سلمنا جدلاً بذلك، فإنه **منطق غير سليم**.

إن الناس لا يتقبلون من الحكم الإسلامي أن تكون كل مزيته أنه أفضل من حكم شذاذ الآفاق! فهذا - في ذاته - ليس فضلاً ولا مزية! كما يقول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا؟!

إنما يتوقع الناس أن يكون الحكم الإسلامي هو المنقذ والمخلّص، الذي يخلّصهم من أدران الفساد الواقع في حياتهم بسبب عدم تحكيم الإسلام. ويتوقعون - من ثم - أن تكون فيه المزايا الأصيلة الموجودة في الإسلام، من **عدل وإنصاف ونظافة وتعاون على البر والتقوى، وتضافر على الإصلاح، وتجرد لله**، وليس مجرد

أفضلية نسبية عن الفساد!

وهذا كله يقتضي أمرًا واحدًا مؤكدًا: **هو التركيز على تربية «القاعدة»، قبل التعرض لأي أمر من الأمور الجسام!**

* * *

فإذا كان هذا مطلوبًا على المستوى المحلي، أي بالنسبة للدعوة في داخل العالم الإسلامي، **فكيف إذا وضعنا في حسابنا الرسالة العالمية للصحوة الإسلامية؟!**

وربما يهجس هاجس في حس بعض الناس أن يقولوا: دعونا بربكم من الأحلام! إذا كنا حتى الآن لم نصل إلى المستوى المطلوب في الدعوة على مستوى العالم الإسلامي، ولم نمكّن بعد في بلادنا، أفلا يكون من الخَرقَ التفكير في عالمية الدعوة في الوقت الحاضر، وفي رسالة الصحوة الإسلامية إلى سائر البشرية؟!

ونقول في اطمئنان: كلاّ! لسنا حالمين! وليس من الخرق التفكير في المستقبل العالمي للدعوة.

إن العالم اليوم في حاجة إلى الإسلام.. ومئات الألوف الذين دخلوا في الإسلام من أوربا وأمريكا ـ وفيهم الأطباء والمهندسون والمفكرون وغيرهم من ذوي الحيثيات في بلادهم ـ هم إشارة على الطريق.. إشارة إلى المستقبل.

كل ما في الأمر أننا نعتقد أن الدعوة في الغرب لا تثمر على نطاق واسع، قبل أن تنضج وتتبلور في بلادها الأصلية، وتُعطي النموذج المطلوب.

أما حين يتم ذلك، ويبرز إلى الوجود نموذج إسلامي ناضج، تمثلت فيه حقيقة الإسلام، فليس من المتوقع أن يدخل الغربيون في الإسلام بمئات الألوف فقط.. **بل بالملايين**.

إن حجم الضياع الذي يعيشه الناس في الغرب ـ والشباب خاصة ـ ربما كان أكبر شيء من نوعه في التاريخ.

وقوى الشر التي تمسك بالمجتمع الغربي لا تريد له أن يفيق من الدوامة التي يدور فيها، لأن دورانه فيها يُحقق لتلك القوى الشريرة أعزّ أمانيها التي ظلت تسعى إلى تحقيقها منذ قرون!

وكلّما همّ ذلك المجتمع أن يفيق اخترعت له قوى الشر من «المخدرات» ما يجعله يغرق في الدوامة أكثر ولا يفيق.. **ويكفي جنون الكرة نموذجًا لما نقول.**

ومع ذلك كله فإن بواكير اليقظة قد بدأت تظهر على المدى البعيد.

بواكير اليقظة هم أولئك الباحثون عن طريق الخلاص.. **الذين يدخلون في الإسلام.**

فمن لهؤلاء يرشدهم إلى الطريق؟!

وهل تملك الصحوة الإسلامية أن تهمل هذا الباب الذي يتوقع أن يتدفق منه مدد جديد للإسلام؟!

ولا أتحدث الآن عن أي برنامج محدد تقوم به الصحوة من أجل الدعوة في الغرب.. إنما الذي أريد التركيز عليه أمر واحد: **هل نستطيع أن نقوم بأية خدمة حقيقية لهذا المدد المتوقع إن لم نقم بتربية «القاعدة» على المستوى المطلوب؟!**

خلاصة الأمر أن تربية هذه القاعدة ليست عملاً هامشيًا توجه إليه العناية في أوقات الفراغ! وليست مثاليات غير قابلة للتحقيق، وليست المناداة بها تخذيلاً للعمل الإسلامي ولا تيئيسًا للعاملين في حقل الدعوة.

إنها ضرورة لا غنى عنها للعمل الإسلامي.

وأيًّا كانت الخطة التي تريد الحركة الإسلامية أن تنتهجها في حركتها، فتربية القاعدة أمر لا مفرّ منه ولا غنى عنه لنجاح أي تحرك تقوم به.. **وبدونه لن تثبت حركة على الطريق.**

* * *

بقيت في بحثنا نقطة أخيرة..

ما الذي يتوقع من أمر الصحوة الإسلامية في صراعاتها الداخلية والخارجية في المستقبل القريب، ثم في المستقبل البعيد؟ وما الذي تلقيه توقعات المستقبل من مسئوليات على عاتق الصحوة الإسلامية؟

والحديث في هذا الأمر يحتاج إلى توضيح بعض النقاط.

يجب أن يكون مفهومًا أن الصليبية العالمية والصهيونيَّة العالمية لا يكرهان شيئًا، ولا ينزعجان من شيء، بقدر ما يكرهان **الصحوة الإسلامية**، وينزعجان منها.

وأن حنق الصليبية والصهيونية، يزداد مع كل توسع جديد يحدث في نطاق الدعوة.

وأنه من الخطط الدائمة الثابتة عندهما العمل على ضرب الحركة الإسلامية وخنقها ما وسعتهما الحيلة وما وسعهما الجهد.

وإذا أردنا أن نستيقن من حجم هذه الحقائق فلنجعل بالنا إلى عدة أمور.

لقد عملت الصليبية والصهيونية معًا، يدًا بيد، للقضاء على الدولة العثمانية، وتقطيع أوصال العالم الإسلامي، وتحويله إلى مزق ضئيلة يسهل ازدرادها، على أن تكون فلسطين من نصيب لصهيونية لتقيم فيها دولتها، ثم تتوسع منها إلى ما تسميه «**إسرائيل الكبرى**»، وأن يكون بقية العالم الإسلامي نهبًا مباحًا للصليبية والصهيونية معًا في الوقت ذاته، يأكل منه كل بقدر ما تتسع معدته، أو بقدر ما يُريد.

ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف وضعت تخطيطات مشتركة سياسية وحربية واقتصادية.. الخ ربما يكفي للتعرف عليها قراءة «**تقرير لورد كامبل**» الشهير، الذي نشر في عام ١٩٠٧م والذي جاء فيه:

«هناك شعب واحد متصل يسكن من المحيط إلى الخليج[١]، لغته واحدة، ودينه واحد، وأرضه متصلة، وماضيه مشترك، وآماله واحدة، وهو اليوم في قبضة أيدينا، ولكنه أخذ يتململ، **فماذا يحدث لنا[٢] غدًا إذا استيقظ العملاق؟!**».

ثم ردّ على التساؤل وأعطى الحل المطلوب:

«يجب علينا أن نقطع اتصال هذا الشعب، **بإيجاد دولة دخيلة** تكون صديقة لنا

(١) يتكلم عن المنطقة العربية من العالم الإسلامي.

(٢) الضمير في العبارة عائد على الدول الاستعمارية، فقد كانت تلك الدول قد طلبت من بريطانيا ـ زعيمة الاستعمار يومئذ ـ أن تدرس لها مشكلة بدء اليقظة في المنطقة، فانتدبت بريطانيا اللورد كامبل لعمل الدراسة المطلوبة وتقديم تقرير بها للجهات المختصة، فهو يتحدث بالنيابة عنهم جميعًا.

وعدوة لأهل المنطقة، وتكون بمثابة الشوكة تخز العملاق كلما أراد أن ينهض»[1].

هذه خلاصة المؤامرة الصليبية الصهيونية التي أنتجت إسرائيل.

ولكن إنشاء إسرائيل سنة **١٩٤٨**م نتجت عنه مفاجأة حادّة للمخططين من كلا الطرفين، هي **دخول الفدائيين المسلمين إلى ساحة المعركة في فلسطين**.

وأيًّا كانت الظروف التي أحاطت بدخولهم فقد تنبه العدو الصليبي الصهيوني إلى وجود قوة خطرة يجب القضاء عليها من أجل استقرار إسرائيل أولاً، ثم توسعها ثانيًا، ومن أجل «**مصالح**» الغرب الصليبي بعد ذلك. ومن «مصالحه» تنصير ما يمكن تنصيره من بلاد أفريقيا وآسيا، وإقامة دويلات غير إسلامية على الأرض الإسلامية.

وزُرعَ العالم الإسلامي بمجموعة من «**العسكر**»، مهمتهم الأولى **إبادة الحركات الإسلامية، وتطويع المنطقة للمصالح الصهيونية الصليبية المشتركة**، تحت أي اسم من الأسماء، الوطنية أو القومية أو الاجتماعية.

ودون الخوض في تفصيلات معادة[2] فإن نتيجة السعي الصليبي الصهيوني في النهاية كانت اتساع الحركة الإسلامية، وتوغلها في حياة الأمة الإسلامية!! وهذا قدر الله الغالب الذي قال الله عنه: ﴿**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾. (سورة يوسف، الآية ٢١).

ومن الطبيعي أن يثير هذا حنق الصليبية الصهيونية، ويزيد من أحقادها تجاه الإسلام.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد.. فقد دخلت الجيوش الروسية أفغانستان للقضاء على «**التمرد**» الإسلامي ضد العميل الشيوعي الذي كانوا قد زرعوه في منصبه ذلك لينوب عنهم في إبعاد الشعب الأفغاني عن الإسلام. وكان مفهومًا عند الدنيا كلها أن القوات الروسية ستسحق التمرد الإسلامي في أيام، أو على أكثر تقدير في أسابيع!

---

(١) انظر تقرير اللورد كامبل في كتاب «اليهودية» من سلسلة مقارنة الأديان الدكتور أحمد شلبي ص ٩٩.

(٢) انظر فصل «الصحوة الإسلامية» من كتاب «واقعنا المعاصر».

كان هذا أول تمرد على الدب الروسي بعد التمرد المجري عام **١٩٥٦م**، وقد أخمد التمرد المجري في أيام، وبوحشية بالغة ليكون عبرة لأي دولة تُريد أن «**تتحرر**» من قبضة الوحش الروسي. فلما تحرك الأفغان أسرعت روسيا لتأديبهم **بدافعين اثنين** لا دافع واحد كما كان الأمر مع التحرك المجري.

الدافع الأول: هو الإبقاء على هيبة الدب، إرهابًا لكل من تحدثه نفسه بالخروج عليه، **والدافع الثاني** - ولا يقل عنه قوة - إرهاب المسلمين في الاتحاد السوفييتي لكي لا يفكروا في رفع رؤوسهم ولا المطالبة بشيء من التحسين لأوضاعهم الظالمة التي تعاملهم بها روسيا منذ عهد لينين وستالين، فقد قتل ستالين وحده أربعة ملايين من المسلمين، وشردهم في سيبيريا، ووطن غير المسلمين في الولايات الإسلامية ليمنع عنهم الشعور بالوحدة في أوطانهم المسلوبة المغلوبة على أمرها.

وفي مبدأ الأمر أرسل الروس بعض «**المسلمين الروس**» - كما يسمونهم - من الذين ولدوا في الشيوعية ونشأوا فيها لإقناع الشعب الأفغاني بتقبل الشيوعية وعدم مقاومة الحكم الشيوعي العميل في أفغانستان، ففوجئوا بهم يسلمون أسلحتهم لإخوانهم المسلمين الأفغان، وينضم بعضهم للجهاد معهم!! فسحبوهم على عجل، وأرسلوا جيوشًا روسية صميمة، وشيوعية صميمة، وزودوهم بأفتك الأسلحة، وبالقنابل الحارقة، وبالغازات السامة، وبكل «**المحرمات**» المتفق على تحريمها حتى بين الوحوش البشرية.

ومرت سنة وسنتان وثلاث سنوات.. وامتدت إلى عشر سنوات!

وكانت النتيجة المذهلة - لأول مرة في تاريخ «الإمبراطورية الروسية الشيوعية» **أن اضطرت الجيوش الروسية إلى الانسحاب، بينما تقدم المجاهدون الأفغان!**

وكانت «كارثة» هزت الشيوعية في موطنها الأصلي، وحدث من جرائها المحذور الذي كانت تخشاه روسيا أشد الخشية، إذ تحركت الولايات الإسلامية لأول مرة منذ قهرتها الشيوعية تطالب بالحكم الذاتي!!

وزادت الكارثة من حنق الصليبية الصهيونية، **وأزيلت الحواجز بين روسيا وأمريكا ليدخلا معًا في تكتل مشترك ضد الإسلام!**

ولم يقف الأمر عند هذا الحد.

فقد كانت الصليبية الصهيونية قد نجحت في تحويل قضية فلسطين من قضية «**إسلامية**» **إلى قضية** «**عربية**»، ثم نجحت مرة أخرى في تحويلها من قضية عربية شاملة إلى قضية **للفلسطينيين خاصة**! وذلك بعد أن نجحت في إيجاد «**زعامات**» فلسطينية ترضى بتحويل القضية إلى «**قضية سياسية**»، يُتفاوض من أجلها، وتعرض على «**المحافل الدولية**»، ويدور أهلها في الدوامة ﴿**أربعين سنة يتيهون في الأرض**﴾. [1] (سورة المائدة، الآية ٢٦).

وفجأة انبعثت **حركة جهادية إسلامية في الأرض الفلسطينية**، أزعجت الصليبية الصهيونية إزعاجًا حادًّا، وسببت لها من المتاعب ما كانت قد ظنت أنها تخلصت منه إلى غير عودة.

وما يدري أحد ما يسفر عنه الغد!

كل ذلك يؤجج حقد الصليبية الصهيونية، حتى لتعجز عن كتمان حقدها: ﴿**قد بدت البغضاء من أفواههم وما تُخفي صُدورهم أكبر**﴾. (سورة آل عمران، الآية ١١٨).

فقد توالت التصريحات الرسمية وغير الرسمية تنادي كلها بضرورة مواجهة «الحركات الأصولية» بالحسم، والقضاء على أخطارها المتوقعة!

هذه هي الظروف التي تواجه الصحوة الإسلامية من قبل الصليبية الصهيونية ومن يتبعها من «**العسكر**»، المعينين في العالم الإسلامي، لينوبوا عنها في ضرب الحركات الإسلامية.

أما في الداخل فتواجه الحركة الإسلامية **التفرق والتشرذم والخصام بين الفصائل المختلفة العاملة في حقل الدعوة**، الذي يصل أحيانًا إلى حدّ الصدام بين بعضها وبعض، مع اختلاف مناهج العمل، واختلاف أساليبه، وعدم وجود قيادة

---

(١) نزلت هذه الآية في بني إسرائيل حين رفضوا الجهاد من أجل دخول الأرض المقدسة، وقد صارت تنطبق على «المسلمين»، الذين حولوا حركة الجهاد إلى مفاوضات سياسية مع «المحافل الدولية»!

كبيرة تجمع ما تشرذم من الجماعات وتضمها في صفٍّ واحد، مع النقص القائم في التربية في الوقت الحاضر.

وبعض الناس - حين يصلون إلى هذه الرؤية - يتوجسون خيفة على مستقبل الصحوة، بل يصل بعضهم إلى حد الشك في قدرتها على الاستمرار مع وجود كل هذه المعوقات من الداخل ومن الخارج سواء.

ونحن نختلف مع المتشككين والمتوجسين - لا في رؤية المعوقات - ولكن في تقدير النسبة بين المعوقات وبين المبشرات! أيّها أثقل، وأيّها يكون في النهاية صاحب التأثير.

فنحن نرى - مع وجود كل هذه المعوقات - أن **المبشرات أثقل وزنًا من المعوقات**، وأجدر أن تكون هي صاحبة الكلمة الأخيرة بإذن الله!

فأما الحرب على الدعوة، فقد رأينا بالفعل أنها لم تؤثر على سير الدعوة، بل زادتها حجمًا وقوة واتساعًا في الأرض! وخذ في الحساب حركة الجهاد الأفغاني، وحركة الجهاد الفلسطيني وغيرها من الحركات، أوليست هذه كلها حقائق واقعة؟ أوليست كلها من نتائج الصحوة الإسلامية؟ أوليست هذه كلها قد وقعت **على الرغم من كل** الحرب المنصوبة ضد الإسلام؟!

فلماذا تفزعنا الحرب، ونحسب أنها ستقف المد الإسلامي؟

وأما التشرذم والخصام والفرقة ونقص التربية فهي أمراض حقيقية تعيق الدعوة، ولكنها لا تمنعها من الحركة، أو هي لم تمنعها حتى الآن من الحركة، وندعو الله على الدوام أن ينقذ الحركة الإسلامية من آثارها.

أما المبشرات فكثيرة.

من بينها أن الرغبة في الإسلام قد أصبحت **تيارًا ذاتيًا عند الشباب لا يتعلق** بجماعة معينة، بل لا يتعلق أحيانًا بأي جماعة على الإطلاق.

وحين كان العمل منحصرًا في جماعة معينة كان من السهل على «**الجهات المختصة**» أن تضرب تلك الجماعة، فتعطل العمل الإسلامي.

أما الآن فلم يعد ضرب جماعة معينة - ولا حتى الجماعات كلها - يقتل العمل

الإسلامي، الذي «ينبثق» دائمًا في تشكيلات جديدة، بعد ضرب التشكيلات القائمة في الساحة!

ومن بينها - كما أشرت في كتاب «واقعنا المعاصر» - **فشل النظم المستوردة و«الزعامات» المصنوعة على عين الغرب في حل أي مشكلة من مشكلات العالم الإسلامي**، مع تشدقها بذلك، ومع كل «**البطولات**» التي تضفي عليها من وسائل الإعلام العالمية، لإيهام شعوبها بأنها تتحرك من عند نفسها، وتعمل لصالح بلادها! وكل فشل يحدث في هذه المجالات هو مدد للحركة الإسلامية، إذ هي الملجأ الذي يلجأ إليه الناس بمشاعرهم وتطلعاتهم، كلما عانوا الفشل على يد تلك الأنظمة، وتلك الزعامات[1].

ومن بينها **الوجود الإسرائيلي ذاته**، الذي قصد به أن يكون «بمثابة الشوكة، تخز العملاق كلما أراد أن ينهض»!

وهي اليوم قائمة بعملية الوخز على أبشع صورة.. ولكن ما الأثر المتوقع حين يشتد الوخز؟ إن الذي يُتوقع هو أن **يهبّ العملاق - من شدة الألم الذي يحدثه الوخز - ليكيل الضربة لمن يخزه، وذلك حين يُصبح الألم أشد من الاحتمال، ويُصبح خطر التعرض للموت أهون عند صاحبه من استمرار الآلام!**

إن اليهود يتصرفون اليوم - بحماقة - ضد صالحهم! وهذا أمر مشهور عنهم في التاريخ: أنهم يظلون يتمادون في صلفهم وعجرفتهم حتى يُضيعوا ما بأيديهم! وهم اليوم يلعبون بالنار في المنطقة، ويعملون على **إثارة الروح الإسلامية** التي جيء بهم لإخمادها! وقد قال الله عنهم في محكم التنزيل: ﴿**الله يستهزىء بهم ويمُدّهم في طغيانهم يعمهون**﴾. (سورة البقرة، الآية ١٥).

ثم.. هل نستطيع أن نسقط من المبشرات **انهيار الشيوعية**؟

حقيقة إن الدولة التي كانت تحمل الشيوعية لا تزال قائمة، ولا تزال تعمل ضد الإسلام كما كانت تعمل وهي تحمل الشيوعية، وأوضح أعمالها - بعد انهيار الشيوعية - فتحها باب الهجرة على مصراعيه لليهود «**التكنولوجيين**»، ليحتلوا قطعة من أرض

---

(١) راجع - إن شئت - فصل «نظرة إلى المستقبل» في كتاب «واقعنا المعاصر».

الإسلام، وينزعوها من جسم الأمة الإسلامية.

ومع ذلك فإن انهيار المذهب الشيوعي في ذاته لابد أن يوضع في المبشرات. فقد كانت الشيوعية فتنة لكثير من الشباب في العالم الإسلامي، بل كانت أمريكا ذاتها تستخدم الشيوعية - في مناطق نفوذها - **لتحارب لها الإسلام!** وكانت تضع وسائل الإعلام في أيدي الشيوعيين ليشوهوا صورة الإسلام في نفوس الشباب ويفتنوهم عنه. ومهما يكن في جعبة اليهود .. مبتدعي الشيوعية - من بدائل لفتنة الناس عن الدين، فإن انهيار النظام الذي كان قائمًا على الإلحاد، هو دفعة للاتجاه الديني في الأرض كلها، ودفعة للتيار الإسلامي في أرض الإسلام.

ويجيء في قمة المبشرات، حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبدالله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله**»[1].

وهذا الحديث وحده دون أية مبشرات أخرى يكفي لبعث اليقين في نفوس المسلمين، أن هناك جولة جديدة للإسلام، ممكنة في الأرض بإذن الله.

فإذا أضيف إليه الحديث الآخر: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكًا عاضًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها. ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**»[2]. فما عاد لأحد أن يشك في الجولة الجديدة المنتصرة، الممكنة في الأرض بإذن الله.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان.

ولكن الصحوة ينبغي أن تتوقع مزيدًا من الحرب. بكل وسائل الحرب. .

ينبغي أن تتوقع **مزيدًا** من البطش الدموي حين يبلغ الحنق مبلغه لدى الطغاة، أو لدى الذين يزرعون الطغاة في الأرض الإسلامية.

ومزيدًا من المؤامرات لشغل الحركة الإسلامية عن مهمتها، بقضايا فرعية أو قضايا هامشية أو قضايا خلافية تستهلك فيها طاقتها بدلًا من توفيرها للتربية المطلوبة لإنشاء القاعدة وتثبيتها ثم توسيعها.

بل قد تستدرج بعض الجماعات من رغبتها في نفي تهمة التطرف عن نفسها **لتكون سندًا للطغاة في ضرب الجماعات التي توصم بالتطرف!**

بل قد تستدرج بعض الجماعات للاشتراك في الحكم مع العلمانيين، أو الاشتراك معهم في رسم السياسة العامة، لتشترك في حمل الأوزار التي ترتكبها الأنظمة المجافية للإسلام، لكي لا ينفرد العلمانيون بحمل الأوزار وتظل الجماعات الإسلامية نظيفة في نظر الناس!

أنواع كثيرة من الحرب يمكن أن يتعرض لها العمل الإسلامي في المستقبل القريب.

ويجب على الصحوة أن تكون هي الأطول نفسًا في هذه الحرب.

يجب عليها ألا تستهلك طاقتها في **صراع مبكر مع السلطات**، **تخسر فيه أكثر مما تكسب**. فقبل أن يتبين الناس حقيقة المعركة وأبعادها تتحول القضية بسبب هذا الصراع - كما قلت في كتاب «**واقعنا المعاصر**»، وكتاب «**الجهاد الأفغاني**» - إلى ضارب ومضروب، وغالب ومغلوب، وتضيع القضية الأساسية التي يقوم حولها الصراع: قضية لا إله إلا الله، ومقتضياتها الحقيقية في حياة الأمة المسلمة.

إن الأمر الرباني بكف الأيدي حتى تتبين حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر: ﴿**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة**﴾. (سورة الأنفال، الآية ٤٢). لم يتنزل إلا لحكمة يعلمها «**الحكيم الخبير**».

ويجب على الصحوة كذلك **ألا تستدرج إلى قضايا «استهلاكية»**، كالمعارك التي تثار حول المسائل الخلافية، وتستهلك فيها طاقات «**المفكرين**»، و«**الدعاة**» بغير

حصيلة حقيقية، تفيد الدعوة إلى الله.

ولا تستدرج إلى «مؤتمرات» منصوبة خصيصًا لتشتيت الانتباه وتمييع القضية، **كمؤتمر الإسلاميين والعلمانيين**[1] الذي ما كان للمسلمين أن يشاركوا فيه، لأن مجرد قبولهم المشاركة فيه معناه **إعطاء شرعية للعلمانية على قدم المساواة مع الإسلام**! وتحويل الإسلام إلى «**وجهة نظر**»، تعرض إلى جانب وجهة نظر أخرى مخالفة (الرأي والرأي الآخر كما قالوا!) والناس مدعوون للمقارنة بين وجهتي النظر واختيار إحداهما!

فأي مهانة لدين الله أن يتحول على يد المؤتمرين ـ أو المتآمرين ـ إلى **وجهة نظر ترفض من قبل العلمانيين، ويعترض عليها ونحن قعود معهم**، بحجة استمالتهم للإسلام وتليين معارضتهم لتطبيق الشريعة! والله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم أنما يُريد الله أن يُصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون**﴾. (سورة المائدة، الآيتان ٤٩، ٥٠). ويقول للمؤمنين: ﴿**وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذًا مثلهم**﴾. (سورة النساء، الآية ١٤٠). ويقول في قضية «الرأي والرأي الآخر»: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرَةُ من أمرهم**﴾. (سورة الأحزاب، الآية ٣٦).

إنما كان على الإسلاميين إن أرادوا أن يحضروا مؤتمرًا كهذا أن يضعوا النقط على الحروف من أول لحظة، وأن يطلبوا من العلمانيين أن يُحدّدوا موقفهم بوضوح، فيسألوهم: «**أتريدون ـ أم لا تريدون ـ أن تكونوا مسلمين؟!**» فإن قالوا ـ كما سيقولون بالطبع ـ إنما نحن مسلمون بالفعل ومستمسكون بالإسلام، فيقال لهم: إن الإسلام يقتضي تحكيم شريعة الله ـ كما قضى الكتاب والسنة، وإجماع الفقهاء ـ **فهل تريدون ـ أم لا تريدون ـ تطبيق الشريعة؟**! فإن قالوا: **نريد** فقد انتهت القضية، وإن قالوا: **لا نريد**! فقد انتهت القضية كذلك ولم يعد هناك مجال لحديث.. وينتهي

(١) عقد في القاهرة الفترة من ٢٥ ـ ٢٧ سبتمبر ١٩٨٩م.

«**الحوار**» بعد افتتاحه بدقائق معدودات!

ولو علم المؤتمرون أن الإسلاميين لديهم هذا الوضوح وهذا الحسم ما جرءوا أن يدعوا لمثل هذا المؤتمر من مبدأ الأمر!

ويجب على الصحوة كذلك، أن تحذر **أن تُستدرج لإعطاء سند للطغاة لتذبيح بعض الجماعات العاملة في حقل الدعوة التي توصم بالتطرف**.

إن التطرف أمر مقيت، يسيء إلى الدعوة كل الإساءة ولا ينفعها في شيء، ولكن الذي يزرع التطرف وينميه هو **الحكومات التي لا تحكم بما أنزل الله**، وتبطش بطشًا وحشيًّا بالشباب الذي يُطالب بتحكيم الشريعة، بينما تسمح للملحدين والعلمانيين أن يعرضوا أفكارهم على الناس بلا حرج ولا خوف، وتسمح للفساد أن يستعلن بالفاحشة في المجتمع.. فإن كانت الحكومات راغبة حقًّا في القضاء على التطرف فلتقض على أسبابه، وهي تملك ذلك ـ ولا شك ـ لو صدقت مع الله.

وعلى الصحوة كذلك أن تحذر **أن تُستدرج للاشتراك في الحكم مع العلمانيين** بحجة العمل على إصلاح أحوال الأمة! إن الأحوال أسوأ بكثير من أن يُصلحها اشتراك بضعة نفر من الإسلاميين في الحكم، بينما الأوزار ستلطخ الجميع! والهدف الحقيقي من استدراجهم للحكم ليس هو الرغبة في إصلاح الأحوال! إنما هو الرغبة في تلطيخهم بالأوزار، وإظهارهم بمظهر العاجز عن الإصلاح!

وعليها كذلك أن تحذر أن **تستهلك جهدها في الرد على تحديات أعدائها لها** بقولهم: أعطونا حلولاً عملية!

فالأعداء لا يريدون حقيقة أن يصلوا إلى حلول عملية، إنما يريدون فقط أن يشغلوا الحركة الإسلامية عن مهمتها في الدعوة، ومهمتها الكبرى في تربية القاعدة المؤمنة المجاهدة الواعية، التي هي الخطر الحقيقي الذي يخشونه ويحذرونه.

ولو عرضنا عليهم الحلول العملية فمن ينفذها؟!

ها نحن أولاء نعرض عليهم حلاً عمليًّا لأزمة الغذاء في مصر والسودان.

إن في السودان قطعة أرض من أخصب بلاد الأرض، يقول الخبراء: إنها لو

زُرعت قمحًا لكفت أفريقيا كلها لاَ مصر والسودان فحسب، ولكنها تحتاج إلى تنفيذ مشروع هندسي، مدروس دراسة فنية وافية، وإلى قوة بشرية تعمل في الزراعة في تلك البقعة من الأرض، وهي موجودة ومتوافرة في مصر.

ولكن المشروع يحتاج قبل ذلك إلى **حكم إسلامي في مصر والسودان معًا** يوحدهما في دولة واحدة، حتى تنتقل القوة البشرية الفائضة في مصر، إلى حيث تعمل في الأرض المستصلحة في السودان بغير حرج ولا حساسيات، ولا نعرات جاهلية وطنية أو إقليمية، فتنتج من القمح ما يكفي أفريقيا كلها، ويقيها تحكم الجبابرة في أقواتها!

هذا حل عملي للأزمة الغذائية المستحكمة في كل من مصر والسودان، وهي من أكبر الأزمات التي تواجههما.. **فمن ينفذه؟**

كلاّ! إنهم لا يطلبون الحلول العملية لتنفيذها، إنما **لشغل الحركة الإسلامية عن مهمتها الحقيقية، وإحراج صدرها دائمًا بالأسئلة** التي لا جواب لها في ظل أوضاعهم الفاسدة، لا لأن الإسلام عاجز عن تقديم الحل، ولكن لأنه لا يوجد من ينفذ الحل الإسلامي في غيبة الحكم الإسلامي! ثم يروحون يقولون للناس: **انظروا إنهم لا يملكون حلولاً عملية!**

ولتحذر الجماعات الإسلامية أخيراً ما هي فيه من تشرذم وتفرق وخصام.. ولتتعلم كيف تختلف دون أن تفترق وتتخاصم، فإنها مأكولة كلها إن بقيت على ما هي فيه من فرقة، لا يستفيد منها إلا الأعداء.

وكأني ألمح سؤالاً يرد على شفتي سائل يسأل: **وما الحل إذا ظلت** الجماعات الإسلامية في صراعاتها، ولم تستطع أن تلتقي على إطار عام يُؤلف بينها، حتى وإن لم يجمعها في كيان واحد؟ وما الحل إذا لم تتدارك الجماعات الإسلامية جوانب النقص في تربيتها؟

والحل قرره رب العالمين من فوق سبع سمـٰوات:

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾. (سورة الأنفال، الآية ٤٦).

﴿وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم﴾. (سورة محمد، الآية ٣٨).

إن البشر لا يعجـزون الله . . **﴿والله غالـب على أمـره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**. (سورة يوسف، الآية ٢١).

وكل شيء في أحوال الناس يوحي بأن هناك جولة جديدة للإسلام بإذن الله، يغير الله بها الواقع الكالح الذي يحكم الأرض اليوم، ويستبدل به صفحة مشرقة، يعيش الناس في ظلها إلى حين، وتُملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا من قبل، والله الفعال لما يُريد، هو الذي يخلق الأسباب لتحقيق ما يريد.

* * *

وحين يتحقق وعد الله، وتقع المعركة الفاصلة التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بين المسلمين واليهود، تنتهي - على الأرجح - الفترة الاستثنائية التي مكّن الله فيها لليهود **﴿بحبل من الله وحبل من الناس﴾**. (سورة آل عمران، الآية ١١٢). ويعود اليهود إلى وضعهم الطبيعي الذي كتبه الله عليهم . .

أمـا الجاهلية المعاصرة فلن تذوب كلها، ولن تختفي من وجه الأرض، فقد سبقت كلمة ربك ألا يجتمع الناس كلهم في أمة واحدة:

﴿ولـو شاء ربـك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾. (سورة هود، الآيتان، ١١٧، ١١٨).

ولقد كانت للإسلام في الماضي أكثر من جولة ممكنة في الأرض، فلم تقض على كل الجاهلية، وظل الصراع سجالاً بين الإسلام وبين الجاهلية عدة قرون.

وقولنا إننا نتوقع للإسلام جولة جديدة ممكنة في الأرض، **لا يعني أن تزول كل الجاهلية، وتدين الأرض كلها للإسلام**. ولكن يختلف الوضع قطعًا بين وجود كيان ممكن للإسلام، وبين انفراد الجاهلية وحدها بالسلطان.

يختلف الـوضـع من طرفيه جميعًا . . بالنسبة للمسلمين من ناحية، وبالنسبة للجاهلية ذاتها من ناحية أخرى.

فأما بالنسبة للمسلمين فالأمر واضح . . فحين يكونون هم أصحاب الأمر في

بلادهم، يتعاملون مع بقية الأرض تعاملاً حرًّا لا قهر فيه عليهم، فعندئذ يستطيعون أن يحققوا منهج ربهم بلا تدخل من قوى قاهرة تمنعهم، وعندئذ يتحقق لهم وعد ربهم:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا، يعبدونني لا يُشركون بي شيئًا﴾. (سورة النور، الآية ٥٥).

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.
(سورة الأعراف، الآية ٩٦).

وإن الأرض التي انتشر فيها الإسلام لهي بفضل الله أغنى بقعة في الأرض، بخيراتها المختلفة، ومعادنها وركازها، ومواردها المائية وخصوبة أرضها، وطاقتها البشرية.. ولكنها اليوم أفقر بقاع الأرض بقدر ما فرط أهلها في دينهم ومنهجهم، فإذا رُدّت إليهم سيطرتهم على أرضهم وخيراتهم فذلك فضل من الله عميم.

أما بالنسبة للجاهلية، فالمتوقع أن يدخل من أفرادها في الإسلام كثير، كما دخلوا في حركات المد الإسلامي السابقة. ومن بقي منهم على دينه وأبى أن يدخل في دين الله، فإن وجود النموذج الصحيح، المتمثل في الواقع الإسلامي، سيصحح دون شك كثيرًا من انحرافات الجاهلية المعاصرة، كما أثر في أوربا مرة من قبل، فأخرجها من عصورها الوسطى المظلمة، وإن لم تدخل في دين الله.. **وفي أقل القليل سيمنع الجاهلية من فتنة المسلمين عن دينهم، كما فعلت في القرنين السابقين!**

* * *

تلك توقعات المستقبل كما نراها في ضوء السنن الربانية، ووعد الله ووعيده.

وهي كما قلنا من قبل: اجتهادات تخطىء وتُصيب، ولكن فيها شيئًا واحدًا ثابتًا على الأقل، هو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن **معركة المسلمين واليهود،** وحديثه عن **عودة الخلافة الراشدة مرة أخرى في الأرض،** وكفى بهذين أملاً للمسلمين، وأملاً لكل البشرية!

وإن هذه الرؤية الإسلامية لأحوال العالم المعاصر، لتفرض على المسلمين -

وعلى الصحوة الإسلامية بصفة خاصة - تبعة هائلة . . أن يعودوا إلى حمل الأمانة التي ألقوها عن عاتقهم فترة من الزمن، فضلوا وضلت معهم البشرية . وأن يعودوا إلى رسالتهم التي نبذوها وراء ظهورهم :

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شُهداء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيدًا﴾ . (سورة البقرة، الآية ١٤٣).

وإنه لجهد أي جهد . .

ولكن له في الوقت ذاته جزاء أي جزاء!

﴿ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مَخْمَصَة في سبيل الله، ولا يطؤون موطئًا يَغيظ الكفار، ولا ينالون من عدوّ نيلًا إلا كُتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يُضيع أجر المحسنين﴾ . (سورة التوبة، الآية ١٢٠).

فهرس

كتب للمؤلف

الإنسان بين المادية والإسلام
شبهات حول الإسلام
في النفس والمجتمع
قبسات من الرسول
معركة التقاليد
هل نحن مسلمون؟
منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول في النظرية)
منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني في التطبيق)
منهج الفن الإسلامي
دراسات في النفس الإنسانية
التطور والثبات في حياة البشرية
جاهلية القرن العشرين
دراسات قرآنية
مذاهب فكرية معاصرة
واقعنا المعاصر
مفاهيم ينبغي أن تُصحح
حول التفسير الإسلامي للتاريخ
الجهاد الأفغاني ودلالاته
دروس تربوية من القرآن الكريم

كتب تالية

١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي
٢ المستشرقون والإسلام

إصدارات دار الوطن للنشر

صدر حديثا:

رسائل للمجتمع

* **احفظ الله يحفظك**/ عائض القرني	٣ ر.س
* **قل هذه سبيلي**/ عائض القرني	٣ ر.س
* **القرآن والحضارة المعاصرة**/ د. محمد الراوي	٢ ر.س
* أريد أن أتوب.. **ولكن!**/ محمد صالح المنجد	٢ ر.س
* **السعادة بين الوهم والحقيقة**/ د. ناصر العمر	٢ ر.س
* **للمسافرين فقط** / أحمد العثمان	٢ ر.س
● **كيف نشكر النعم**/ رياض الحقيل	٢ ر.س
* أثر **المعاصي على الفرد والمجتمع**/ الشيخ محمد العثيمين	١ ر.س
● **المنجد في الهدي النبوي**/ عبدالرحمن الجامع	٢ ر.س
● **المنجد في أبواب الأجر وكفارات الخطايا**/ عبدالرحمن الجامع	٢ ر.س
● أسباب **دفع العقوبات**/	٣ ر.س

رسائل للأسرة المسلمة

* **مقومات السعادة الزوجية**/ د. ناصر العمر	٣ ر.س
* **الــــزواج**/ الشيخ محمد العثيمين	٢ ر.س

رسائل توجيهية للشباب

● **جلسة على الرصيف**/ الشيخ سلمان العودة	٣ ر.س

توزيع مؤسسة الجريسي

الرياض ت ٤٠٢٢٥٦٤ ـ جدة ت ٦٨٢٦١٠٥
الدمام ت ٨٢٧١٨١١ ـ المدينة ت ٨٣٨٠٥٢٩
القصيم ت ٣٦٤٤٣٦٦ ـ أبها ت ٢٢٢٠٤٨٥

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ – ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض